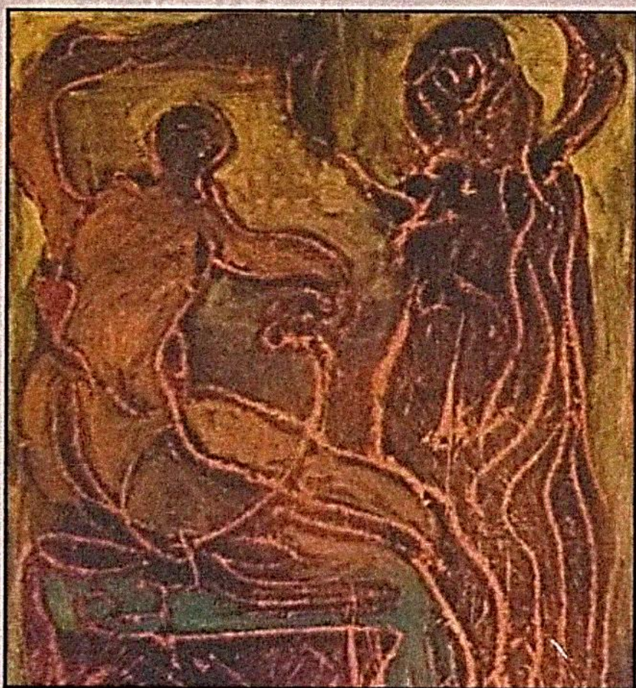
واسيني الأعرج

حارسة الظلال

دون كيشوت في الجزائر

رواية





علي مولا

واسيني الأعرج

حارسة الظلال

دون كيشوت في الجزائر

رواية

• واسيني الأعرج
• حارسة الظلال
• جميع الحقوق محفوظة
• الطبعة الثانية 2006
• موافقة وزارة الإعلام رقم 92067
• الناشـــــــــــر: ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 5141441
• الإشــــراف الفني: د. مجد حيدر
• التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

واسيني الأعرج. مواليد 1954 بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

إن قوة واسيني التجريبية التجديدية تجلت أكثر في روايته الكبيرة، المبرمجة اليوم في العديد من الجامعات العالمية، الليلة السابعة بعد الألف بجزأيها: رمل الماية والمخطوطة الشرقية، التي حاور فيها ألف ليلة وليلة لا من موقع ترديد التاريخ ولكن من هاجس الرغبة في استرداد التقاليد السردية الضائعة.

- في سنة 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.

- تحصل في سنة 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.

- اختير في سنة 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.

- تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.

الحبيبة الغالية نجاة، أيتُها الجرح الصّامت،
وحدك تعرفين كم أن الدنيا هشّة وقاسية،
وفي أحيان كثيرة غير عادلة.

كأسي انكسرت مثل قهقهة عالية.

أبولينير Apollinaire

الفصل الأول

عائلة الخضر

ويتحدث هذا الفصل عن مغامرة حسيسن الغريبة التي احتفظ بالجزء المهم منها لنفسه حتى لا يثير الأحاسيس الرهيفة وغضب الآخرين، أو بكل بساطة، لأنه خاف من عملية اختطاف مدبرة. كما يروي هذا الفصل قصة وصول دون كيشوت (فاسكيس دي سرفانتيس دالميريا) إلى الأراضي التي زارها جده الأول ميغيل سرفانتيس قبل أن يندثر هذا الأخير ويتحول إلى تربة، وانشداد دون كيشوت الطفولي إلى قصص حنّا، عاشقة الأشواق الأندلسية الضائعة.

I

الـ ... جـ ... زا... ئـــ ... ر

الجزائر، مدينة اللامعنى العظيمة، الطائر الحر. أيتها المومس المعشوقة.

حزين لدرجة المرارة لأن رجلا ممحونا بهذه المدينة، سبقني إلى هذا الكلام الذي تمنيت أن أكون قائله ومع ذلك، فأنا على يقين مطلق بأني لن أسلم من تجريحهم. أولاد الكلبة، سيلصقون بي تهمة هذا القول وهم لا يعرفون أنهم يرتفعون بي إلى عالم سام أكبر مني.

ليكن. هم هكذا، لقد افسدوا أعمارهم ودمهم في انتظار فرص الإساءة.

هـــــــــــــو... رّاه...

الجزائر، أيتها المومس المعشوقة... ها هي ذي الجملة البدئية، الجملة الإسمية الصغيرة الضائعة التي كانت تنقصني للخروج من دائرة البياض. إنها كافية لوحدها لفك عقدة هذه الآلة الكاتبة العتيقة والصدئة التي اقتنيتها بمحض الصدفة، بمناسبة المزاد الذي نظمته وزارة الثقافة ضمن حملة تجديد عتاد العمل التي انتشرت كالريح الساخنة أو كبقعة زيت، لتعويض الآلات القديمة بأجهزة الكومبيوتر المستوردة مؤخرا من طايوان. فرصة لا تُعوَّض، ستقولون؟ اقتناء آلة كاتبة مقابل مبلغ زهيد؟ ليكن. أنا كذلك، على

مستواي البسيط، قبلت أن أغمس رؤوس أصابعي في عسل الجشع اللذيذ الذي شوه أغلب سكان المدينة.

هذه الآلة الكاتبة، هي رفيقي الأوحد. معشوقتي الاستثنائية في هذا القفر المائي الأزرق الذي وجدت نفسي فيه أمارس حياة ليست لي. حياة مستعارة ومؤقتة باستمرار. طقطقاتها وهي تئن تحت أصابعي، تولد لدي الإحساس بالرفقة والحياة وتشي بآلامها المفجعة وأسرارها المدفونة التي ضيعت الاسم والمعنى. مايزال مختوما على جنباتها اسم مالكها الأول، عمي المختار، الذي طحنته كل حروب الأزمنة الحديثة ولم يتوان دقيقة واحدة عن صيانتها. عندما كان يشغّلها، لا يتركها إلا عندما يعصرها كليمونة. تئن وتتلوى مثل المغنية السكرانة أو كغيمة ضائعة، مانحة له الأشواق والروح مقابل رضاه. لم تخدعه أبداً حتى آخر يوم في حياته، عندما وقف عند بوابات الوزارة الخشنة يستجدي عودته إلى العمل الذي أجبر على تركه بسبب التقاعد المسبق الذي فُرض عليه، عله يدفعهم في الأخير إلى التراجع عن القرار المجنون.

صرخ طويلا بدون جدوى: يا هاذ الناس، إفهموني يرحم والديكم. أصابع اليد حطب لا يشيخ ولا يموت. لست آلة، أنا ابن آدم وما في القلب لا يعرفه إلا القلب. لا أريد أن أتقاعد. خذوا مني ما تشاؤون واتركوني لآلتي.

لكن السي وهيب الصلب مثل الخواء وأحجار الوديان الميتة، لايتراجع أبداً عن قراراته.

هذه الآلة الكاتبة هي الحضور الوحيد الذي يملأ هذا الخوف المفجع. *(حتّا على الرغم من حكمتها، كادت ترتكب الحماقة الكبرى عندما نسيت أن تسلم الآلة الكاتبة إلى كريم لودوك. أعتقد أنه بلساني المقطوع وذكري المستأصل لا خيار لي سوى الاستجابة لدعوة الأمواج والزرقة التي تذكرني كل مساء بخلوتي وعزلتي وخوفي المتمادي في العمق كلطخة زيت والارتماء في عمق هذا اليم*

المتعالي الذي بدأ يقلق من صمتي. هذا الصمت الذي يملأني أنا المواطن العادي الذي وعد الملثمين الذين اختطفوه بأن لا يذكر شيئًا مما حدث له. ولكن على الرغم من الفقدان الفجائعي لسعادة اللذة ومتعة القول، ما زلت أملك القدرة على الكتابة. يداي ما تزالان في مكانهما وأصابعي العشرة قادرة على إفشاء كل الأسرار. ومع ذلك سأتفادى الخوض في كل ما يمكن أن يربك حياتي... ماذا قلت؟ حياة؟ مجرد خواء لا اكثر. مع ذلك تظل الحياة هي الحياة حتى في اسوأ صورها، حالة احتمالية جميلة).

* * *

الكتابة... لا شيء سوى رعشة الألم الخفية التي نخبئها عن الآخرين حتى لا يلمسوا حجم المأساة، وجحيم صرخات الكلمات المذبوحة بنصل صدئ.

غارق وسط الجمل المستعصية التي تقاوم لذة الانصياع والسهولة. إنها لحظة الانحدار نحو مدارج الخوف.

لا أسمع الآن إلا الطقطقات اللامتناهية لهذه الآلة العتيقة كالأمطار الشتوية وهي تتشلأ على الأسطح الملساء، وتكسر الكلمات وقرقعة الجمل المتعبة وتمزقات الأمواج المتأتية من مكان قريب وانشقاقات رأسي وهو يفرغ شيئًا فشيئًا من حمئه ومادته الرمادية.

* * *

مسكين يا منحدر المظالم، لم تعد تخيف إلا نفسك.

ومسكينة أيتها السيدة المتوحشة، حارسة الظلال والأساطير. أيتها المنسية. ورقة تدحرجت من سرو متهالك في فراغ ضيع أصداءه.

مسكين أنا، ابن كل الأرياح واللاشيء، الذي أقسم بدون صراخ أنه لو يستعيد ثانية اللسان الذي فقده وذكر اللذة واللعنة، المنزوع ذات مساء مغلق، سيقدم بفرح الساموراي على ارتكاب نفس

الحماقات : الصراخ بأقصى صوت وملء كل فراغات الرغبة المجنونة التى ضاعت بغباء في الحسابات الأخلاقية المبهمة. *(عليكم أن تعذروني في إرباكاتي وتمنعي عن ذكر تفاصيل الاعتداء الذي وقع لي، فأنا مرعوب من اغتيال غادر. المضحك أني رجل ميت ويحفظ الوعود التي قطعها على نفسه! فقد أقسمت للرجل الملثم وللملتحين الذين كانوا برفقته بأن سر حادثتي بتر الذكر واللسان سيموت بين ظلال الروح بدون أن يعلم به أحد. على الأقل خوفا على الرجل الذي راهن على صفائي وقدم عنقه متحملا مسؤولية إطلاق سراحي. لو خرجت كلمة واحدة مني سيقدمون على محوه وتمزيقه. أنا رجل ميت ولكني صاحب كلمة ولا يمكن أن أعرض حياة رجل طيب لمخاطر الموت. لكن؟... واش كان يدير هذا المهبول مع زمرة من القتلة؟ عفوا... ليسوا زمرة قتلة. ليس هذا ما كنت أقصد قوله. مجرد زلة لسان مقطوع، نابعة من رجل ميت. رجل على أبواب انهيار عصبي مجنون).*

* * *

فقدت اللسان والذَّكَر.

لا شيء الآن يزعجني بعد عملية البتر القسري لعضوين زائدين، فائضين عن الحواس: العضلة اللسانية والعضو التناسلي. يحق لي الآن أن أفتخر، فقد استؤصل الضرر المركزي وأصبحت رجلاً صالحا ومواطنا نموذجيا.

* * *

قطرة زيت... قطرتان... ثلاث.

ذراع الآلة الكاتبة أصبح الآن أكثر تحررا وحركية. لا صدأ يعيق انسيابيته.

الكتابة في هذه اللحظات الشاقة هي الشأن الوحيد الذي يهمني بعد الهزائم اللامحدودة في هذه البلاد والتي علمتنا كيف نتعشى كذبا

بدون الإحساس بأدنى حرج، أكثر من هذا كله: أن نصدق ما ننشئ من كذب. العملية تحتاج إلى دربة استثنائية. أفضل للجميع أن لاتسألوني عن مرارتي ولا عن المكان الذي أنوجد فيه الآن ولا عن اسمه. كل ذلك مضيعة للوقت ومخاطرة مجانية. الإحراج يخجلني ولكن لا خيار لدي. الوضعية معقدة وأظل الوحيد العارف بخباياها.

الآن بعد أن غادَرَنا دون كيشوت وأعيد مجبرا إلى وطنه، أستطيع أن أعود إلى قصته التى تبدو في مظهرها غير معقولة ولكنها في العمق ليست كذلك. تستحق أن تُقص بكل تفاصيلها لأنها حتما تختلف عن كل ما حكي لي أو رويته لكم قبل هذا الزمن (قبل أن يُبتر لساني على الأقلّ)، أكثر من ذلك، فهي مرتبطة جوهريا بعائلة الخضر.

- يكفي من الخرطي يرحم والديك. ما هذا الكلام الفارغ؟ من أين خرجت بعائلة الخضر هذه؟ هل هي واحدة من خزعبلاتك التي تنتابك في لحظات الانهيار؟

لا... لا.

لا علاقة لما سأرويه بما سمعتموه ويثقل رؤوسكم. عائلة الخضر مثل الله، لا تشبه إلا نفسها وسلطانها. لا تؤمن إلا بما يصدر عنها ولا يستقيم نظرها إلا برؤية اللون الأخضر الكاكي. اللون الوحيد الذي يستفزني منذ طفولتي الأولى، ويولد لدي الرغبة في التقيؤ والخوف المضمر الذي لم أستطع التغلب عليه رغم تجاوزي سن الأربعين. قصة أخرى يبدو لي صعب الخوض في تفاصيلها، ليس خوفا من فَقْد منصب عملي في وزارة الثقافة كمستشار مكلف بالعلاقات الجزائرية - الإسبانية. من هذه الناحية، فقد قُضي الأمر. لقد عُزلتُ وانتهى كل شيء. الثابت الوحيد هو الخوف من رعشة الاختطاف التي تنتابني كلما تذكرت أصدقائي الذين ابتلعتهم هذه المدينة. لا أحد يستطيع تقدير التبعات. مع أني

كالعادة لم ألمسه. أقول دائما في خاطري، من يحتاجني سيصر حتما على طلبي.

- عادة عبثية. اللامعنى والهبال اللي بلا ميزان. روح يا ولد الناس، بدأتَ تخرّف مثل أجدادك الأوائل. الله يحفظ؟

أعرف مسبقا أنكم ستقولون ذلك. هبال. ليكن. الله غالب أنا هكذا. فالناس لا تحركهم إلا نوازعهم الفردية الأنانية والضيقة. لاأحد يتذكرك إلا عندما تصل الموسى إلى العظم. عندما أمرض لاأحد يسأل عني. أنا كذلك لي أنانيتي الصغيرة، أستطيع أن أعيش قليلا لجنوني ولنفسي وطز في البقية التي لا يرضيها تصرفي.

وأنتم تستمعون إلى آلامي تتساءلون باندهاش :

- هل أنت في وضع طبيعي؟ لماذا كل هذا العبث واللاجدوى؟ وهذه الحالة من التلاشي؟ وما سر وردة الكاسي هذه التي لا تعدو أن تكون وردة عادية.

الأمر بسيط. هذه طقوسي اليومية ولا تعني أحدا غيري في هذا الوسط الذي ضيع كل مبررات وجوده. الكاسي هي وردة كارمن. لاغرابة في الأمر. كارمن هي هذه الروح النائمة بشراستها وهدوئها في الأعماق. الله غالب واش ندير مع ساحرة من ورق هي استنساخ مجنون لامرأة أندلسية أحببتها حتى صارت مرضي المستعصي؟... لا أحد غيري يستطيع ادعاء رؤية وجهها الذي شق علي مرارا خلوتي في الحلم، السفر في جسدها ولثم عينيها المائلتين لدرجة أستطيع معها القول أنها من عائلتي، نشترك معا في رابطة الدم والذاكرة وشيء غامض حار يصعب تحديده.

كارمن هي لحظة من لحظات انخطافي. هي أنا فيّ بلون الدم والضياع، كائن من لحم ودم وبقايا ذعر وخوف. نموذجي المجنون الذي يعذبني باستمرار ويسرق مني اللذة اليومية. هي اللذة نفسها التي تشق علي عزلة المساءات الموحشة. هي قريبتي لأني مثلها منحدر من موريسكي وجد نفسه ذات يوم حزين مجبرا على

ترك أرضه وجنته الأندلسية ومدينته : غرناطة الجريحة. في منفاه، ظل وفيا لأحجاره القديمة الممتلئة بالأنين والتمزقات والانهيارات التي دغدغت طويلا المدينة القديمة، مدينة الفرح والملح والكتب العالية. عيناه التائهتان دوما، ظلتا عالقتين بمحارق محاكم التفتيش المقدس التي مضت بدون توقف، تأكل خزانات الكتب حتى آخر الصفحات، قبل أن يلتجئ إلى الكهف في انتظار قدوم المارانوس الذي وعده بالمساعدة على مغادرة بلد الرماد في سفينة القرصان الإيطالي. عندما استقل السفينة وغطت موجة الفقدان العالية تربته فكر في البكاء لكن العملية بدت له عبثية. البلاد ضاعت. عض على يده طويلا ولم يبرأ من جرحه حتى الموت. حنّا تصر دائما على الحادثة وتحكيها كما يحددها مقام الحكي وشهوة القصّ.

- الخيبة تقتل جَمَلا. عندما يكون الإنسان منفعلا وغاضبا يصبح كل جسده سمّا. وعضة مثل عضته تفعل مفعول لدغة أفعى عمياء.

حنّا تقسم دائما أن كل ما ترويه حقيقة لا يدخلها الزيف مطلقا، ولهذا احتفظت بكل عادات الموريسكي المنفي، أسد الغيم والهجر، الذي لم يكن يحب شيئا مثل حبه لزهرة الكاسي.

حنّا في أيام شبابها، كان يلذ لها أن تطارد بائعي الورود في حي باب الوادي متهمة إياهم صبحا ومساء بقليلي الحياء، بالجشعين وفاقدي الذاكرة :

- سيدكم يا الحلاليف، كان سبعا. لم يأخذ من أرضه إلا لدغة مسمومة حتى لا ينسى أبداً أنه ترك وراءه جرحا يشبه وطنا بناه بروحه ولم يعرف غيره حتى وهو على تربة أخرى، وكتاب السر الكبير الذي كان الوحيد القادر على فك طلاسمه وأسراره، وكيسا صغيرا من الكتان البنفسجي مملوءا بزرّيعة الكاسي الأحمر التى ظل يحلم لها بأرض صالحة قادرة على إحيائها بسرعة. عندما كان بغرناطة، مالكا لسحرها، لم يكن يتوانى في إعطائها مذاق الكاسي

مكتبي في الطابق العلوي. فأنا محظوظ من هذه الناحية. المكتب مفتوح على خليج العاصمة، نصف دائرة من الماء تخضر في الصباح قبل أن تتلاشى ألوانها مع منتصف النهار عندما تصبح الشمس عمودية حارقة. وينفتح كذلك على نصب مقام الشهيد الضخم، كتلة إسمنتية جامدة وخالية من أية روح، إله فقد الأسنان ولا سلطان له إلّا ضخامته وقسوة ملامحه وظلاله الكثيفة السواد.

تتالت الدقات الخجولة على الباب الذي انفتح بهدوء على رأس الجيلالي الذي برقت صلعته تحت الضوء العلوي المنعكس عليها.

ـ سيدي، هو هنا.

ـ شكرا الجيلالي. أدخله.

ودخل.

اجتاحني إحساس غريب. كانت عظام دون كيشوت بارزة من تحت معطفه الأبيض. قامته الطويلة التي تحاذي المترين، تبدو مزعجة له قليلا. ظهره انعكف في الأعلى تحت ثقل الحقيبة الظهرية التي لم تكن مملوءة. بين يديه مصورة معقدة: زاده الأساسي في رحلة تبحث لجنونها عن اسم.

هز رأسه باحترام بعد أن نزع مظل السامبريرو ثم قدم نفسه بلغة فرنسية مكسورة.

ـ أنا... الحقيقة... يسمى، فاسكيس دي سرفانتيس دالميريا... لكن كل الناس يسمون أنا دون كيشوت... هم يجدون شبها كبيرا بيني وبين الشخصية التي ابتدعها جدي الأول ميغيل دي سرفانتيس... بإمكانكم تسمّون أنا دون كيشوت... أسهل.

ـ أهلا وسهلا يا دون كيشوت. تفضل أرجوك. يمكنك أن تتحدّث بالإسبانية، لا يوجد أي مشكل، فهي لغتي الثانية.

ـ Muy bien

أشرقت عيناه ببريق صاف. واصل تقديم نفسه متحررا من

القيود اللغوية التي فرضها في البداية على نفسه. اللغة سكن، ولانتحرر إلا فيه. يمكننا أن نجيد آلاف اللغات ولكن هناك لغة واحدة تملك القدرة على هز جنوننا وأحلامنا من الداخل.

- أنحدر من عائلة الكاتب الكبير ميغيل دي سرفانتيس وأنا هنا في مهمة إنجاز مشروع حياتي مهم. صديقكم بييدرو دي سيفي Pedro de Seville نصحني بضرورة الاتصال بكم من أجل مساعدتي في إنجاز هذا المشروع.

لا أدري حقيقة إذا كنت أستمع إليه بجدية، فقد كنت منشغلا بتفاصيل حركاته وقامته الفارعة النحيفة ورأسه المهتزة باستمرار وملامحه الضائعة. لكن الذي شغلني أكثر، عيناه الصغيرتان اللتان تشبهان عينا ديك. لم أكن قادرا على تصور الشخص الذي كان أمامي، غير دون كيشوت دي لامانشا، في حالة يرثى لها، وهو يئن من جراحات حرب خاضها بدون هوادة ضد خيبات الدنيا وهو يقص على صانشو دي بانصا، أقرب أصدقائه، مأساته اللامتناهية: يا صانشو العزيز، لقد سمعت الناس يقولون دائما، أن من يكرم اللئيم كمن ينثر ماء في البحر، لو كنت استمعت إلى نصائحك لتفاديت اليوم كل المزالق.

ثم قدم لي غلافا فتحته في الحال. كانت به رسالة بييدرو دي سيفي الذي يرجوني أن أبذل مجهودا لمساعدة فاسكيس دي سيرفانتيس دالميريا أحد المنحدرين من عائلة الكاتب الكبير ميغيل دي سرفانتيس.

- Oh si Usted. بييدرو صديق عزيز جدّا. سأحاول أن أكون بجانبك كلّما احتجتني، طبعا في حدود الإمكان. لنرفع الكلفة. اسمي حسن أو إذا شئت حسيسن كما تسمّيني جدّتي حنّا وأصدقاء العمل.

لم يبد عليه أي إرباك. عيناه الصغيرتان اللّتان لا يظهر انفتاحهما، كانتا تفتشان زوايا المكتب وخباياه قبل أن تستقرّا على زهرة الكاسي الحمراء.

وأنا مجبر على الانتهاء من هذا الرهان على سرفانتيس مهما كلفني الأمر. ليس مجرد نزوة ولكنه مشروع حياتي لا يخصني وحدي : وفاء لروح والدي المسكين التي تمنى أن يراني كاتبا كبيرا مثل جدي ولكن للأسف بدون جدوى. في الحقيقة لم أكن مهيئا لمهمة كبيرة تتجاوز إمكاناتي المتواضعة. فقد كانت الصحافة هي هاجسي المركزي. من ثم بدأت أفكر في القيام بعمل مهم لصالح والدي وجدي معا. وكان التحقيق في التفاصيل الحياتية والمدن التي عبرها أو عاش فيها جدي هي موضوع مغامرتي. وعندما توفرت فرصة السفر على متن سفينة سكّر متوجهة إلى مرسيليا ومنها إلى الجزائر العاصمة شددت عليها بأسناني على الرغم من إني أخبرت يوما واحدا قبل السفر. فرصة من ذهب. فالقبطان وأعوانه وبتدخل من بييدرو صديقه كانوا مستعدّين لمساعدتي بالمرور على المنطقة التي وقع فيها جدي في الأسر بعدما ضيع القدرة على استعمال يده اليسرى. كنت قادما من جينوفا، متعبا، ولم يكن أمامي من حل آخر سوى استغلال الفرصة. كنت أعرف مسبقا أن هناك مخاطرة كبرى لكن الذي يؤاسيني هو أن مشروعي المجنون يستحق كل هذا. إنها مشاق المهنة.

ـ أحب رؤيتكم للأشياء. هذا يطمئن على الأقل. أنا في الخدمة متى ما احتجتني.

ـ يسعدني ذلك كثيراً.

الذي أراحني أكثر هو أني استطعت أن أقول له ما كان يملأ قلبي. الجميل في دون كيشوت، هو أنه مستعدّ باستمرار للتصرف بودّ وبساطة.

ـ كما قلت لكم، أنا منحدر من عائلة سرفانتيس ووالدي جعل من المحافظة على ذكرى هذا الشاعر التائه رهانه الحياتي وكان يرى فيّ المنفذ لهذا الرهان بالإصرار المستميت على تحويلي بالقوة إلى أكبر كاتب شعبي في القرن وكأن المسألة مرتبطة فقط بفعل

الإرادة. للأسف بالنسبة للأب ولسعادتي وسعادة القراء ربما، سرت في طريق آخر موصل إلى جدي ولكنه يختلف عن طريق والدي : الصحافة. والدي ظل يصر إلى آخر يوم من حياته بأنه يمكن تجميع الاختصاصين : الصحافة والكتابة. لم يتوقف يوما عن محاولاته اليائسة لإقناعي : المهم أنك تملك مثل جدك البذرة السحرية للكتابة. *ميغيل لم يكن نبيا، لم يمنعه ذلك من أن يكون كاتبا عظيما ومحاربا استثنائيا*. ومنذ سنتين عاد إلي هوسي، فكرة واحدة تسكنني : كيف أجد الطريق إلى ميغيل دون المرور على طريق الوالد. وفي يوم من الأيام صممت أن أعبر كل تفاصيل حياته وقلت في خاطري، أفضل الطرق هي اقتفاء كل خطواته والقيام بنفس السفريات التي قام بها وزيارة كل المدن التي زارها حتى أتقرب بشكل أعمق من أحاسيسه وخوفه وإذا أمكن اكتشاف مفاتيح المدن التي أحبها ووفرت له الحماية والمحنة، التي لمسها في اعز ألوانها.

ـ مهمة صعبة وحساسة ومفيدة كذلك. المدن الكبرى تغيرت رأسا على عقب. تشهد الآن انقلابات كبرى. كيف يمكن لمس ما كان سائدا في القرن السادس عشر؟

ـ الذي خفف علي المشاق هو أن الجريدة التي أعمل بها تبنت معي المشروع بشكل كامل. من ثمة، التفكير وحده في المغامرة كان يسحرني. قبل السفر، قرأت عن كل المدن التي مكث بها سرفانتيس قليلا أو كثيراً. بدءا من قلعة هاناريس، مسقط رأسه، مرورا بمدينة الوليد (Valladolid)، مدريد التي قضى بها فترة من حياته، روما التي بقي بها يبيت خدم الكاردينال أكوافيفا، نيقوسيا التي تشكّل قطعة مهمة من حياته، كان عسكريا هناك في البعثة البحرية الموجّهة ضدّ الأتراك التي كان يقودها جنرال الجيوش مارك أنطوان كولونا قبل أن يمرّ إلى الميناء الإغريقي الصغير ليبانت (Lepante) حيث عطبت يده اليسرى في المعركة البحرية التي كان يقودها دون خوان النمساوي الذي عايش انتصار الشراع الحربي لاماركيز. هذا الميناء الصغير تغيّر اليوم كثيراً. طبعا بدون نسيان المرور بنابولي

وكل ما هو مفيد لفهم هذه التجربة الاستثنائية التي عاشها سرفانتيس...

كنت مدركا للشطط الذي ينتظرني مع دون كيشوت وطبيعة مهمتي في ظروف أمنية أقل ما يقال عنها أنها تسير عكس التيار الذي كنت أسبح فيه. يستحيل علي أن أتخيل نفسي في شوارع العاصمة أتجول مع أجنبي وأساعده على معرفة الأماكن وكأن شيئا لم يكن؟ ولكني على يقين أنه من الضروري، في مثل هذه الظروف تحديدا تجاوز حالة الخوف وأخذ الحالة بشيء من الفانتازيا والجنون لامتلاك القدرة على الأقل على مواصلة الحياة والعمل بشكل مقبول. تعرية المدينة أمام دون كيشوت هي بالنسبة لي كذلك إعادة اكتشاف بعدما ضيعت ملامحها الأساسية. الخوف يبعد الشقة بيننا وبين هذه الملامح. هذا الجنون غير المحسوب قد يمنحني مقاومة داخلية جديدة في وسط من اللامعنى والعبث الذي لا شبيه له على هذه الأرض.

من عينيه اللتين بدأ بريقهما يذبل، تأكدت أن دون كيشوت كان يعاني تعبا من الصعب عليه تحمله. في لحظة من اللحظات شعرت برأفة تجاهه وتجاه جسده الهش الذي حوله السفر في باخرة تجارية إلى خرقة بالية. عيناه اللتان كان يبدو عليهما نوع من الاتقاد في البداية بدأتا تذبلان شيئا فشيئا.

شرب الرشفة الأخيرة، بعد مدة، من كأس الشاي الذي أتى له به لخضر، بواب الطابق الذي كنا فيه.

التفت صوبه:

- يبدو لي أنك في حاجة ماسة لقسط من الراحة. العياء يصرخ على ملامحكم. اذهب إلى النزل. ضع أغراضك هناك ونم قليلا. في المساء سأكلمك ونضبط موعدا لتحديد برنامج تفصيلي لزيارتك ابتداء من الغد، ما دام يصادف عطلتي الأسبوعية سأتفرغ لك.

- لا ... ولكن هناك مشكل صغير يسمم وضعيتي ويحرجني

أمامك. كل النزل التي دخلتها مسجل عند مداخلها: مملوء. في الحقيقة أمر مثل هذا أدهشني قليلا. مع كل المشاكل التي ذكرتها، أتساءل كيف يتجرأ السياح على المغامرة بحياتهم إلى هذا البلد؟ يبدو لي أن الأوروبيين يبالغون كثيراً إذ يصورون وضع البلد منفلتا. عندما نزلت من السفينة استغليت فرصة وجودي على الشرفة البحرية لأكتشف سحر مدينة حية.

ـ نعم ولكنها مجرد مظاهر. أي مجنون في هذا العالم يركب رأسه ويأتي سائحا إلى الجزائر لكي ينتحر؟ الذين شاهدتهم في النزل ليسوا سياحا.

ـ لم أفهم جيداً مقصدك؟

ـ لا أريد أن أرعبك ولكن يجب ان تعرف الحقيقة. النزل مملوءة حتى الفم بالإطارات والأساتذة والمعلمين والمواطنين البسطاء الذين ينهون الشهر بشق الأنفس. سكان محيط العاصمة الذين وجدوا أنفسهم تحت تأثير ضغط الإرهابيين ضائعين وسط مدينة لا تشبه لأي شيء يبحثون عن سقف لهم ولأبنائهم.

ـ ولكن هذا إجرام؟

ـ في هذا البلد المرء ليس مجبرا على احتراف السياسة حتى يقتل. يكفي ان تفكر بشكل مخالف، أن تحب الحياة أن تعشق كالطائر الحر، أن تكون المرأة حلوة وجميلة لتصبح هدفا مفضلا للقتلة الذين يشهرون إسلامهم وشجاعتهم أمام النساء والناس البسطاء. اسمع هذا الخبر الصحفي:

وبحركة آلية قدّمت له الجريدة. قرأ بصوت مسموع وشددت بعده على بعض المقاطع الحساسة: *اغتيلت ذبحاً، السيدة عائشة جليد إمام بناتها الثلاثة. في ليلة الأربعاء إلى الخميس اقتحمت مجموعة مسلحة بيت عائشة البالغة من العمر 37 سنة، أم لثلاث بنات وتعيش مفصولة عن زوجها. كانت إطاراً بالولاية. في حدود الساعة الحادية عشرة ليلا سمعت دقا على الباب مصحوبا بنداء: افتحي،*

الشرطة... الشرطة؟ عندما فتحت، هجم عليها شخصان ملثمان. طلبوا منها تعاونها وسيلا من المعلومات تخص عملها. رفضت. فهددوها بقتل بشع ومؤلم. عندما تأكد لعائشة أنها ميتة لا محالة، طلبت منهم إخراج بناتها من البيت وقتلها بالرصاص بعيدا عنهن. المجرمون الذين كانوا إثني عشرة فردا، قرروا قطع رأسها أمام بناتها ورميه في الشارع. بنتها الكبرى البالغة من العمر 18 سنة تروي: ترجتهم أمي أن لا يذبحوها أمامنا. قبلنا أرجلهم حتى يتركوها. قدحت عينا أحدهم شررا. كانت هيئته مرعبة، هيئة حيوان مفترس. وضع أمي بين ذراعيه العريضتين الموشومتين بالثعابين. جذبها بقوة باتجاه صدره وضغط على رقبتها بكفيه الغليظتين ثم سحب رأسها ضاغطاً بركبته اليمنى على عمودها الفقري فانهارت على ركبتيها. عندما أصبح نحرها بارزا، أخرج سكينة كبيرة. وقبل أن يحز رقبتها صرخت بصعوبة للمرة الأخيرة: أرجوكم أخرجوا البنات، اتقوا الله، لا تفعلوا هذا أمامهم. فجأة احمر وجهها ورقبتها ولباسها ويدا القاتل الذي قبل أن يترك الجسد البارد ينكسر بصمت وبدون صراخ على البلاط، لمعت عيناه للمرة الأخيرة وهو ينظر إلينا. قطع رأس أمي الذي ظل عالقا بالجسم بجلدة رهيفة. أخذه من الشعر ولم ينتبه مطلقا إلى الدم الغزير الذي ظل يسيل منه مكونا خطوطا منكسرة ونقاطا متتالية. ثم أمر قتلته بالانسحاب. عند عتبة الباب، قال: تذكروا وجهي جيداً. ابكوا أنتم كذلك مثلما يبكي أبناء المجاهدين الذين يستشهدون يوميا بسبب الطاغوت. عندما خرجوا وسط الظلمة، جريت وراءهم حتى محطة البنزين. هناك دفنوا رأس أمي في برميل للفضلات. عندما ابتعدوا، سحبته، نظفته ثم قبلته. كنت مثل أختي الصغرى مقتنعة تماماً بأن أمي ستعود إلى الحياة بمجرد وضع الرأس على الجسد من جديد. طوال الليل ونحن نتحدث معها. رجوناها أن تعود ولكن عبثا. فقد ذبلت عيناها وجفت شفتاها. بهذه الضحية، تكون عائلة جليد قد أعطت للجزائر شهيدها الثالث. فبعد امحمّد والبشير الذي اغتيل في 14 فبراير الأخير، جاء دور أختهم لتلحق بهم في أشنع الظروف.

ـ لم تكن أكثر من إطار بسيط في الولاية. جريمتها الكبرى أنها امرأة لم تكن ترى معنى للحياة إلّا في عملها. كانت أختا لإطارين: الأول، باحث مسرحي طحنته ماكنة المرض الساحقة والمنفى بألمانيا الديمقراطية والثاني، عالم اجتماع، ذبحته نفس سكاكين القتلة لأن من سوابقه الخطيرة، الضحك وأخذ الحياة بمنطق السخرية والعبث. هذه الجريمة التي يمكن أن يقتل بسببها الإنسان عندنا.

ـ جنون غير معقول. ليست هي الصورة التي تعطى عندنا عن الإسلاميين. يقدمون دائما كضحايا لنظام سرق منهم حقهم الديموقراطي، في الانتصار والحكم. مع أن توحشا مثل هذا لايمكن قبوله.

ـ يجب أن ننطلق من فكرة بسيطة. هل نستطيع أن نجمع بين الديموقراطية وأيديولوجية العدم ونكران الدولة؟ علي بلحاج، زعيم الحركة الشعبوية الجديدة، الممرن في مدرسة ابتدائية، صرح في فبراير 1989: *لا وجود للديموقراطية، فالمصدر الوحيد للتشريع والحكم هو الله ومن خلال القرآن وليس الشعب. إذا انتخب الشعب ضد القانون الإلهي فلن يكون ذلك إلّا كفرا. وفي هذه الحالة يجب قتل الكافر لأنه أراد تعويض قدرة الله بضعفه هو.* لا يمكن أن نقبل بالإسلاماوية ونرفض أيديولوجيتها، هذا يسمى عند العارفين، بحسابات البقالين الصغيرة. هذه نقطة الضعف في تحليلاتهم على ماأعتقد.

ـ ودور الدولة في كل هذا؟

ـ كل المشكلة هي هنا. غائبة إلى حد أننا نتساءل أحيانا إذا ماكانت بالفعل موجودة أم لا؟ الأفضل أن ننسى كل هذا الآن. ما دامت مشكلة مبيتك معقدة بهذا الشكل، أدعوك للإقامة عندي أو بشكل أدق عند حنّا حتى تجد حلاً. أعيش عندها منذ أكثر من سنة. مثل الآخرين، ذات صباح وجدت في بريدي الشخصي رسالة تهديد

أضحكتني ولم آخذها مأخذ الجد. منذ ذلك التاريخ وأنا أعيش مأساة الافتقاد اليومي للأصدقاء. وفي يوم وجدت عند مدخل البيت طردا، فتحته بدون تفكير وإذا به قنينة عطر يوضع على جسد الأموات عادة وكفن أبيض عليه بقع الدم وورقة مكتوب عليها جملة واحدة: *انتظر دورك أيها الطاغوت*. أضحكتني وأخافتني كلمة طاغوت. قلت في خاطري لو فقط يدرك القتلة أية جريمة يرتكبون ولكنهم لا يدركون. منذ ذلك اليوم أخذت الموضوع بجدية كبيرة وبدت لي لعبة تناسي الخطر لعبة غير مسؤولة. أول شيء قمت به هو تغيير السكن. فذهبت عند حنّا التي لم تكن تنتظر إلا ذلك لترضى علي حتى يرث الله الأرض ومن عليها. هي مزعجة قليلا بثرثراتها وأسئلتها التي لا تتوقف ولكنها في العمق طيبة وممتلئة حبا للناس. حبها الأكبر هو استرجاع قصص أجدادها الأندلسيين الذين سحقهم صمت هذه المدينة الباردة. في الواقع، جدتي موريسكية من الرعيل الأول، لا تتوقف أبداً عن الحديث عن أجدادها الأوائل الذين سيعودون حتما وينشئون المدن التي دمرها الشماليون، كما تقول، والأتراك الهمج الذين لا تشعر حيالهم بأية عاطفة. أنا الوحيد في العائلة الذي يتحمل كل مبالغاتها المتكررة. من هنا تحملها لكل الغلاظات والسخريات التي تصدر مني.

- يسعدني كثيراً أن أتعرف عليها.

كان من الصعب على دون كيشوت أن يخبئ سعادته الطفولية. في العمق لم أكن مرتاحا بتحملي مسؤولية جرجرة إنسان في وقت كنت عاجزا فيه عن توفير حمايتي الخاصة. كنت خائفا عليه ولكن كان علي أن أغمض عيني خصوصا وأنه لم يترك لي خيارات كثيرة. ربما استطعت أن أخفف عليه هيبته التي كنت أراها ترتسم في الأفق عند رؤيته لمغارة سرفانتيس المأساوية التي أصبحت امتدادا لمزبلة حي بلكور. مهمتي صعبة، إذ كيف أنزع عنه أوهامه بدون أن يخسر إمكانية إنهاء مهمته. الشيء الوحيد المؤكد هو أن معلوماته عن

الجزائر ومخاطرها، محدودة جداً. مما يجعل من مهمتي قضية جدية.

ـ ما نستطيع عمله الآن هو على الأقل أن تستغل فرصة وجودك بهذا المكان لاكتشاف معلم قصر الثقافة في انتظار أن انتهي من الشغل الذي بين يدي. بعدها نذهب إلى البيت.

ـ جيد. وهو كذلك.

كلفت لخضر بمهمة التجول به داخل القصر. هناك أشياء كثيرة وجميلة تستحق أن يتوقف المرء عندها داخل هذا الدهليز الأندلسي الموشى بساحة واسعة وممرات متقاطعة تقود نحو فضاءات الفراغ الذي يشبه العدم وأقواسه المنحوتة بصفاء استثنائي بلونها الآجوري وشبكات الزليج المخطوطة بأبجديات كوفية مرسومة بدقة، تتسلق الحيطان باستقامة وانتظام نادرين، تنكسر عليها الأنوار القادمة من شمس تملأ الساحة طوال النهار قبل أن تنسحب في المساء. النافورة التي تحتل وسط الساحة بمائها الذي لا يظهر إلا عندما يكون الوزير موجودا. كلما سمعت انكسار مائها على الأرضية والزليج، أدركت بسرعة أن شيئا ما حدث. ثم أتذكر: ماأغباني؟ العادة هي القانون. المؤكد أن السي وهيب قد عاد من سفره الأخير.

III

لم يكن دون كيشوت دالميريا يعرف الشيء الكثير عن الجزائر العاصمة ولا عن مغارة سرفانتيس التي صارت مزبلة. كل يوم تتسع كالسرطان المزمن لتغطي الهضبة التي تحمل اسم سرفانتيس عن آخرها. لهذا كله، وجب تهييئه لتحمل كل الصعاب المحدقة بمشروعه، بدون تيئيسه.

لكني أخال حنّا بتدخلاتها، لن تسهل من مهمتي. أراها الآن، منذ البداية، تتشمم رائحة الغريب الذي دخل البيت، تستولي عليه كمن يعثر على غنيمة سهلة. بعد وضوئها وتأخير صلاة العشاء، لتتفرغ له الليل كله كما تفعل عادة مع ضيوفي.

هي هكذا، لا شيء بالنسبة لها يساوي حكاية جميلة ترويها على رواق عندما تجد من يستمع إلى نشيجها. خوفي من رد فعلها، اضطرني إلى تأخير قصة المغارة، صورتنا المأساوية، التي كان دون كيشوت متشوقا لسماعها. في العمق كنت متخوفا من جرحه بحقائق باردة لا أدري إذا كان يملك القدرة على تحملها وتصريفها. ثم أن هذه القصة كلما رويتها، تركت في حلقي مذاقا مرا وجراحات عميقة كالخيبة. مع أنها بدأت كأية قصة اعتيادية. في ذلك اليوم الذي كلما تذكرته زادت تكسراتي:

صمم السّي وهيب، وزير الثقافة، وفي آخر دقيقة كعادته، أن يختارني كمترجم خاص له، كما يفعل عادة كلما اضطرته الظروف المحيطة به. لم أكن أعرف الضيف هذه المرة ولكني كنت على يقين

أنه إبيري. بعد نصف ساعة انتظار، نزل الضيف الإسباني على أرضية المطار. في قاعة الانتظار وبعد استراحة خفيفة، اقترح الضيف البشوش أن تدرج ضمن برنامجه، زيارة إلى مغارة سرفانتيس وألح على ذلك. ترجمت إلحاحات الضيف إلى السي وهيب. لم يستطع هذا الأخير أن يخبئ دهشته لأنه لم ينتظر ذلك من وزير للثقافة لبلد محترم وخزر إليّ بشكل استفزازي ظانا بأني لم أفهم كلام الضيف بشكل جيد. فأعدت عليه نفس الرغبة.

- واش تْقعّدْ بي؟ شكون هذا سرفانتيس؟

- ولكن يا سيدي؟...

تغيرت ملامحه نحو شكل رمادي غامق ثم قطع كلامي وهو يقهقه في وجه مستشاره الذي لم يكن إلاّ صهره الأبله، فاتحا فمه الذي أظهر كل أسنانه المخرمة.

- غير معقول؟ مسؤول سام يريد تمريغ أنفه في زوبية (مزبلة) بلكور.

- ولكن يا سيدي، كما تعرفون *(أنا على يقين أنه لم يكن يعرف شيئا)* سرفانتيس هو الأب الروحي لدون كيشوت.

في الحقيقة كنت خجلا من نفسي إذ انتابني خوف ما من أن يكون الضيف قد فهم كل المحاورة، لكن عينيه المدورتين طمأنتاني بعض الشيء، بدون أن يتخلى مثل طفل صغير عن إصراره بضرورة رؤية المكان. المؤكد أنه كان يظن أن المغارة مكان سياحي يحلم عشاق سرفانتيس برؤيته ولو مرة واحدة في العمر.

السي وهيب كان مايزال غارقا في قهقهة لم تنته.

- هؤلاء الغربيون مهابيل. يتقاتلون حتى على الزوبية. قل لي يرحم والديك، عن ماذا يبحثون في مكان متسخ مثل هذا؟ ماذا يشمشمون في قمقم جبل من الفضلات يصعب تسلقه.

أجبته بدون أدنى تفكير:

ـ سيدي الوزير، ضيفكم يريد أن زيارة المكان الذي سجن فيه القراصنة الأتراك أحد أكبر كتاب هذا العصر. ضيفكم يتحدث عن مكان كان من المفترض أن يكون سياحيا ولكن للأسف حول إلى مزبلة. سرفانتيس يا سيدي، كما تعرفون، إسباني. من هنا يمكن تفهم رغبة ضيفكم... إذا شئتم نستطيع أن نجد مخرجا مشرفا لهذا المأزق.

ضرب كفا بكف مثل نساء القرية وهن يقصصن قصة الجارة بمزيد من الإضافات:

ـ والله مليحة هذه؟ ما هذه السخافة؟ أتشك في حق الأتراك في الدفاع عن الإسلام والوطن؟ واش جابو لبلدنا وهذه الأرض العالية؟ الذين تسميهم قراصنة لم يفعلوا أكثر من الدفاع عن أرضهم. بفضلهم نملك اليوم دولة فرضت احترامها على الجميع.

ـ وما هو الحل يا سيدي؟ عذرا ولكن المشكل حقيقي والوقت ضيق.

ـ آه منكم أنتم المثقفين! تعطون قيمة حتى لأتفه الأشياء. طيب سأعطي الأمر لانطلاق حملة تنظيفية سريعة بمساعدة الولاية وأنت تهتم بالبقية. حسيسن، أتّكل على خبرتك. أما أنا فسأتكفل بهذا الضيف الغريب والمعقد.

لم أكن أطلب سوى ذلك.

بينما عاد هو إلى قهقهاته الثقيلة العاجزة عن إضحاك أحد باستثناء مستشاره المعتوه الذي كان يبذل مجهودا مضاعفا للتجاوب معه، بعد أن بعث ضيفه إلى مقر سكناه.

يوم استثنائي من المتاعب والعمل المرهق مع الولاية والبلدية، أعطى لحي سرفانتيس وجها آخر. وجدت متعة كبيرة في تزيين المرتكز الرخامي لتمثال سرفانتيس النصفي الذي أعارته لي بالمناسبة وبصعوبة كبيرة، نورة، مديرة متحف الفنون الجميلة.

قسما كبيرا من المزبلة بقي مخبئا من وراء أشجار الصنوبر والسرو الصغيرة. منذ أكثر من عشر سنوات والعديد من الجمعيات تتقاتل من أجل اعتبار هذه الأماكن تراثا أثريا وطنيا بدون القدرة على تحقيق ذلك وها نحن في ظرف أقل من يوم ومع بعض النفاق نتوصل إلى تغيير المستحيل. يبدو أن بلادنا استثنائية في كل شيء، لا تسير باستقامة إلا تحت الضغط والتهديد.

بدأت زيارة الضيف الإسباني على الساعة الثالثة بعد الظهر. كانت ناجحة كما أرادها الوزير السّي وهيب الذي أخرج ورقة من جيبه وشرع في الكلام. حفظت من تدخله البسملة التى استعملها طولا وعرضا في غير أماكنها، وبعض الجمل التي رنّت في رأسي بقوة: *في هذا الزمن الصعب المليء بالضغينة والأحقاد، وحدها الثقافة تستطيع أن تقرب بين الشعوب... دون كيشوت قام بدوره تجاه الإنسانية وبقي علينا إتمام البقية... صحيح أنه إسباني ولكنه جزائري بشكل ما من الأشكال. ونطالب بحقنا فيه، فقد صار ملكا للإنسانية... التاريخ فرض على سرفانتيس النزول في هذه الأراضي العريقة لحظة الألم وفي زمن الحيرة، ونفس التاريخ أبى إلا أن يرجع له كرامته كما كرم حضوره مدينتنا من خلال كتابه المذهل الذي دمر تقاليد الكتابة المتهالكة: دون كيشوت... أظن أن مدينة الجزائر أثرت بشكل عميق في صديقنا وضيفنا سرفانتيس.*

صعب علي تصديق ما كنت أسمعه. أيعقل أن يكون المتكلم السي وهيب؟ بدا لي الأمر مجرد هلوسات كتلك التي تنتابني في لحظات الخلوة والشطط. صممت أن احتفظ للذكرى بنسخة من تدخله في أرشيفي الشخصي. ومن كثرة إعجاب الضيف وارتياحه بكلامه، اقترح على السّي وهيب ضرورة بناء مركز دولي للأبحاث المتخصصة في سوفانتيس التي يمكنها أن تساهم في ربط العلاقة بين ضفتي المتوسط. في نهاية الزيارة تم التوقيع على بروتوكول ثقافي بين البلدين. اتفاق لن يرى النور أبداً لأن ملف سرفانتيس

سرق من رفوف الوزارة. لا يمكن العثور عليه في أيّ قسم من الأقسام.

الإحساس المرهق المتبقي من هذه الزيارة هو الغضب الذي شوه وجه نورة ومحا ملامحها عندما عرفت أن المجسم الصدري لسرفانتيس قد سرق. بعد ذهاب قافلة الرسميين، كانت أول من زار المكان فلم تجد إلا كومة من الزبالة العالية التي يكون المجسم قد ردم تحت أنقاضها. فالشاحنات التي منعت مؤقتا من تفريغ شحناتها عادت من جديد إلى حركتها الاعتيادية بعد إذن الولاية والبلدية. عندما زارتني بالمكتب كان وجهها مرمدا وذراعاها متسخين من كثرة البحث المجنون. أنبتني كثيراً لأني تركت المسألة مسيبة بين الأيادي الكريهة ولم أحتط بالقدر الكافي للحفاظ على المجسم الثمين من التلف والضياع. لم تكن لدي الشجاعة الكافية لمواجهة ملامحها المنفعلة لأني كنت المسؤول على هذا الضياع وأنا الذي قادها نحو هذه الخسارة. في الوزارة لم يكونوا ينتظرون إلا هذه الفرصة لطردها. بعد احتجاجها، عين مكانها مدير جديد. ولولا مساندة الصحافة لطردت وحوسبت من يومها. كانت الوحيدة التي استطاعت أن تعطي حياة لمتحف الفنون.

على كل بدا لي من الصعب إقناع دون كيشوت بهذه القصة. صممت بعدها على ضرورة الاحتفاظ بها أو تأجيل حكيها إلى فرصة أخرى. أنا على يقين أنه إذا سمع هذه الحماقة لن يبقى لحظة واحدة في الجزائر.

* * *

في البيت، كان على دون كيشوت تحمّل أمرين: التعب الذي كان يملأ عينيه وحضور حنّا القوي وضغط الغد الذي ينتظره في مرتفعات المدينة الذي خططت أن نبدأه من مفرغة (مزبلة) وادي السمار التي هي في واقع الأمر أكثر من مجرد مفرغة تستقبل يوميا

زبالة العاصمة أن ننهيه على المرتفعات، قريبا من مغارة سرفانتيس.

ـ أنا أفضل ذلك. البدء بالحيطان الأثرية لأيكوزيوم Icosium القديمة سيعرفك بشكل أعمق بروح المدينة ذاتها.

ـ حيطان إيكوزيوم، ولمَ لا؟

ـ على كل حال سنقضي يوم الغد كله في المدينة. سنتعرف على الأميرالية لأنها أول مكان استقبل خطوات سرفانتيس عندما حل بالجزائر مصفدا، مرهقا من المعركة البحرية التي خاضها ضد القراصنة. بعدها نمر على القصبة وقصر الدايات قبل إنهاء الزيارة بمغارة سرفانتيس.

ـ هذه المدينة أغرت دائما جدي. فقد خصص لها كراسا صغيرا أو كورديلّو (Cordello)، صنعه بيده على عادة سجناء البحر في ذلك الزمن. حتى رواية دون كيشوت لم تفلت من تأثيرات هذه المدينة الساحرة.

ـ حجزه كان تجربة قاسية ومحنة ولكنها من شروط ومظاهر العصر الذي عاشه الذي كانت خاصيته الحروب الدينية والتقاتل على المجالات البحرية.

ـ نعم. الذي أريد الوصول إليه هو هذا الإحساس العميق من العزلة الذي كان ينخره من الداخل. كيف استطاع تحمل آلام خمس سنوات من الحجز ومشاق التجربة التي جعلت منه ذلك المحارب الكبير والمغامر الذي لا يهمه شيء سوى رضى الملك والكاتب الذي لخص مأساة عصره. أتمنى أن أستطيع، في كتابي عنه، ترتيب كل هذه التفاصيل من جديد.

ملأنا شطط الذاكرة، فصمتنا طويلا.

حنّا كانت ما تزال منشغلة بصلاتها ولم تظهر بعد. سمعت غزغزة باب الصالون ثم رأيت الحجاب الرقيق ينسحب بهدوء مثلما

يحدث عادة في قاعات السنيما في المدينة. حنّا مكفوفة وحركاتها تشبهها. فقد صارت مثل الممارسات الطقسية وهي تفتش عن مكانها بعصاها وكأنها تتحسسها برؤوس أصابعها. جلست بالقرب منا بعد أن وضعت عصاها بجانبها وحجرة الوضوء الزرقاء التي تسميها التيمم والتي لا تغادرها منذ أن فقدت بصرها. فبهذه الحجرة كانت تقيم وضوءها بعد أن تتحسسها بأناملها الملائكية الرقيقة. كانت لا تستعمل الماء إلا للاستنجاء وغسل الوجه. حنّا لا تريد الاتكال على أحد. استقلاليتها تكمن في عصا الزبوج وحجرة التيمم اللتين تغنيانها عن مساعدة الآخرين في علاقتها بالدنيا والآخرة.

تمتمت وهي تسحب الهيدورة نحوها:

- حسيسن وليدي، أنت هنا؟

- نعم يا حنّا. مساء الخير.

- ما أضيق ممرات بنايات اليوم. لقد صارت مثل القبور. في زماننا كانت الدنيا واسعة مثل الجنة.

ثم بدأت تتشمم مثل حيوان أليف المكان الذي كانت فيه. وقبل أن أقدم لها دون كيشوت، سبقتني إلى الغمغمة:

- م... م... م... حسيسن وليدي؟ أشم رائحة غريبة غير الرائحة التي ألفتها في البيت.

- حنّا مساء الخير. معنا ضيف اسبنيولي.

- مرحبا به. وَصّفْه لي.

في رأس حنّا صورة تريد دائما رؤيتها. فجأة طرأت علي فكرة. ثم أطلقت العنان لمخيلتي. حديثي كان بالإسبانية، اللغة التي تتعشقها حنّا وحتى أدخل دون كيشوت في الجو بسهولة أكثر.

- اسبنيولي؟ هه؟ قل. كيفاش داير؟

ـ آه يا حنّا لو كان تشوفيه! من أين أبدأ؟ بنية قوية تحاذي المترين تقريبا ومئة كيلو من العضلات. هيئته مثل هيئة فارس خاض كل حروب جبال البشرات بالأندلس وخرج منتصرا. وجه مشع وعينان مليئتان بالنور والحب، مقرونتان بحاجبين مثل الهلال. قبضة قوية وخفيفة مثل الفولاذ. تنسدل من رأسه ضفيرة طويلة تختلط في النهاية بسبابات لباسه التي تملأ بدلته الأندلسية المذهبة بالحدائق والأنوار وأشجار الجنة. شامة تتوسط خده الأيسر بينما الخد الأيمن لم يشف بعد من جرح غائر أصيب به، بكل تأكيد، في حرب خاضها لوحده ضد أعداء مدينته...

دون كيشوت كان منذهلا من تضخيماتي وأوصافي التي كانت على النقيض من هيئته. كل ما قلته لم تكن له أية علاقة به. كلما أراد الكلام، كنت أضع يدي على فمه مؤشراً له بعيني بعدم التدخل. كثرة إصراره اضطرتني إلى الوشوشة في أذنه وتنبيهه فقط إذا أراد الحديث مع حنّا، أن يناديها: سنيورا، فهذا سيذكرها بالجنة المفقودة. فهي تحب أن يناديها الناس بهذا النعت.

تدخلت حنّا وهي تحاول بصعوبة كتم سعادتها:

ـ مدهش. إنه يشبه جدي الأندلسي التائه بين الأمصار بعدما ضيع أشواقه ومدن النور. إن الدم الذي يجري الآن في عروقي وفي عروق الآخرين، دمه. آه يا سيدي الوالي العالي، يا صاحب القبرين، العالم الذي يحوطك أصغر من أن يحتويك ويمحو سلطانك من الذاكرة.

تساؤلات كثيرة صعب على دون كيشوت فهمها وتفسيرها. بالنسبة لي، لم تكن تدخلات حنّا جديدة على الإطلاق. فكلما زارنا ضيف إلا واستلمته لتخرج له خيباتها المختلفة وحظها عن الزمن الذي عجز على أن يحفظ ذاكرة الأجداد في القلب.

لم يلبث سؤالها المركزي أن خرج.

ـ هل له أوشام على الذراع الأيسر؟

ـ سبحان الله. ما أنفذ بصيرتك يا حنّا، وكأنك ترينه. أرى وردة كاسي سوداء ومفتاحا صغيرا منقوشين بإتقان.

ـ الله يحفظنا من الخراب. وحده القادر على خلق أربعين شبهاً في اللحظة نفسها. إنه نفس المفتاح الذي كان جدي قد رسمه على ذراعه حتى لا ينسى أبداً الأبواب القديمة لمكتبته التي أضرمت فيها النيران على مقربة من عينيه المتعبتين مثل طفل يائس. وقف يومها، على الرغم من انكساره، مثل النخلة يتأمل مشاهد الموت والقيامات المكسوة بنيران العمى والجهل ويلملم رماد الرسائل المحروقة والسير والأبحاث الفلسفية وأدب الرحّالة العرب الذين جابوا الفيافي والقفار بحثا عن الأبجديات التائهة.

ـ أربعون شبها؟

الأرقام بالنسبة لحنّا لا قيمة لها. الأصدقاء الذين قدمتهم لها من هذه الزاوية يتجاوزون الأربعين. اقتربت أكثر من دون كيشوت وهي تأمرني في الوقت نفسه مثل سيدة قصر بأن أسمعه أغنية عبد المجيد مسكود.

ـ يا الله يا حسيسن وليدي، الهوى يطيب الخاطر.

ثم فجأة انبعث صوت شق كل الارتباكات في صدر حنّا ومحا الصمت مثل نافورة ماء قوية.

الجزاير يا العاصمة،

أنت قلبي ديما،

إلى يوم الدين...

من كل جهة جاك غاشي

قولوا لي يا سامعين

ريحة البهجة وين...

مرثية قاسية عن خسران مدينة، كل يوم تزحف نحو الموت

بخطوات حثيثة. حالتي الآن تشبه حالة مسكود: عليه أن يخرج مأساة الروح بمزيد من الشوق واللذة حتى ولو كان هذا البوح يؤذي النفوس الهشة. بعض شطار المدينة لم توصلهم عبقريتهم إلا إلى النداء بمنع أغنية مسكود لأنها تمجد الجهوية وتضر بالوحدة الوطنية. أية وحدة هذه التي تنسفها أغنية أو خطاب؟ في ستين داهية إذا كانت الوحدة مؤسسة على هذه الدرجة من الهشاشة. مسكود لم يقل شيئا سوى أنه غنى مدينته.

تركت حنّا نفسها تندفن في عمق الأغنية وتتهاوى شيئا فشيئا مثل ورقة البلاطان، خفيفة، متمايلة. ثم لم تلبث أن أعادت طرح سؤالها التقليدي.

ـ كيف جئت إلى هذه البلاد يا ابني؟

ارتبك دون كيشوت في البداية ولكن سرعان ما وجد مدخل ذكيا لكلامه. فقد لامس بنفسه نقطة ضعف حنّا وعرف سر اللعبة.

ـ آه يا سنيورة، الرحلة كانت قاسية. الآن وأنا هنا بين يديك الملائكيتين وعرائس القصص، أستطيع أن أقول الحمد لله. كل شيء مرّ بخير.

ـ يحتاج المرء إلى شجاعة كبيرة ليقدم على زيارة الجزائر في هذه الظروف القاسية والصعبة.

ـ هذه المدينة تستحق أن نغامر من أجلها. مدينة ساحرة.

انتبهت حنّا إلى أن الرجل الذي بالقرب منها، رجل قصصها الذي كانت تبحث عنه. فجأة طوت كمّي معطفها الصوفي ليظهر ذراعان حليبيا البياض.

ـ قل لي يا ابني، هل ترى شيئا مرسوما على ذراعي؟

ـ Si Senora.

فجأة احمر خدا حنّا خجلاً رغم ذبول الشيخوخة.

- أرى أوشاما فاتنة وأغصان الأشجار وأوراق الزيتون وبعض النوار.

- إيـــــه يا ابني. الدنيا بنت الكلب التي تغدر بنا فجأة. عندما نفتح أعيننا، نجد كل شيء قد تسرب فجأة ولا تبقى إلا العلامات الصغيرة لزمن يتهاوى كالنجوم. هذه الأوشام هي ميراثي الكبير: شبابي وأحلام مراهقتي. عندما كنت صبية، كنت مثل حفنة الضوء الهارب. لم يستطع أي رجل أن يأسرني بين يديه. كلما ظن أنه وصل إلي، انزلقت بين أصابعه كالماء الصافي. الوشم هو سر المرأة الكبير الذي لا يجد مكانه الطبيعي إلا على زنود الجميلات. وحدها، سيدة المقام العالي تعرف فك غوايات رموزه المبهمة. هو مثل الخانة، إذا لم يجد أرضه الحقيقية يفقد قيمته. للوشّامة شروطها، فإذا لم يكن الزند يشبه الزبدة الطرية لا تشقه. لم أجد صعوبة في العثور على الغجرية التي وضعت ملامسها على لحمي مجسدة بذلك الضوء الداخلي الذي كان يملأني. امرأة تحترف الوشم بلذة متناهية. كنت مع الصبايا، نجتمع على سطيحة الجنينة، شبه عاريات تحت شمس بيضاء ونترك أنفسنا ننساق وراء اللذة المجروحة بمشرط الوشامة. كلهن كن جميلات مثل نجوم الجنة.

- كيف كان يتم التحضير لذلك؟

- أوف يا ابني... قصة طويلة. قبل التوشيم، كانت الصبايا تصعّدْن عشقهن العالي برش العطور المهيجة على أجسادهن لتعميق سحر اللحظة. كن يتعشقن أكثر العطور قوة وعنفا مثل المسك والعنبر وورق الورد والرند والقرنفل ونسغ الخشب. للتخفيف من هياجهن، كان البعض لا يتوانى عن إسماعهن كل الخرافات: حذار، الوشم طريق نحو جهنم. يغضب الله والملائكة. سيلدغ جسد المرأة الموشومة بعدد لسعات الإبرة والمشرط. لكن لذة الألم كانت دائما أقوى من وعد الجنة. في زماننا كانت الوشامات تعددن على رؤوس الأصابع ونادرات جداً. كن يقطعن الفيافي والقفار بحثا عن الدور الكبيرة والعائلات العريقة. كانت لهن شروط قاسية لأنهن كن يشمن

أشواقهن على جسد الأخريات ويتقاسمن معهن اللذة والتواطؤ. تبدأ الوشامة في الأول بتخطيط رسم باهت بريشة مغمسة في المداد العادي، وبواسطة إبرة خياطة سميكة قليلا تبدأ في شق الجسد وحفره حتى ينضح دما، متتبعة الخطوط الباهتة. ثم تعيد الحركة نفسها ثانية. بعدها تغمس قطعة قماش في خليط من التازولت والكحل الذائب في الماء وتمرره على الجرح. على الرغم من الآلام القاسية، الصبايا المترشحات لهذه اللذة كن يزممن الفم لمنع الصراخ من الخروج. ويحدث أن ينعدم المداد، فتغير الوشّامة طقسها كلية: تخطط رسمها بمحروق الخشب الملتصق على قاع القدر أو الطاجين الذي تضعه في الماء. ثم تحفر اللحم الغض بشوك الصنوبر. بعد أن تنتهي، تغطي الجروح بمحروق الخشب وتقي الكل بواسطة قطعة قماش... أتعلم يا ابني أن كل وشم يخبيء وراءه أسراره وأن امتلاك كشف مفاتيح فك الرسومات أمر ضروري: الأيادي، القشّاشتان المدعمتان بخمسة أسنان واقية، القرص المحضون داخل الكفين المرفوعتين يذكر برمز التانيت، جذع النخلة، النول الذي يؤكد على ذكاء النساجة، العقرب الذي يعتبر رمزنا للحماية من العين القاتلة والشرور، والموتيفات الصغيرة والأشكال الهندسية والذبابات والشمس والخطوط المنكسرة التي تتسلق عبر الرقبة تحتاج إلى عين تعرف كيف وماذا تقرأ. لكن الوشم الأعظم هو ما يختبيء بين النهدين وأماكن حميمية أخرى ولا يحق لغير العاشق القريب إلى القلب أن يراه ويمسه. هذا كل ما يبقى من زمن رائع يموت بسرعة كالنجوم الهاربة تاركا وراءه فراغاته اليومية العميقة.

تحدثت حنّا طويلا بدون أن تعير اهتماما كبيرا لفهم دون كيشوت المتعب والذي لم يتوقف لحظة واحدة عن متابعتها باهتمام كبير. كان ملتصقا بحكايتها على الرغم من انتفاخ عينيه من مشاق الرحلة. حنّا هكذا، لا تتغير أبدا.

ولأني أعرف حنّا بما فيه الكفاية، تدخلت لفك الحصار عن دون كيشوت المسكين.

ـ حــ... نــ... ا؟ حنّا؟ صديقنا متعب جداً ويحتاج إلى بعض الراحة لمواجهة مشقات الغد.

لكن دون كيشوت سبقها إلى الرد.

ـ لا... لا... اترك السنيورا تتكلم. ما تقوله مذهل ويهمني كثيراً سماعه.

ـ دبر راسك. أنا متعب من هذا اليوم. سأنام.

قبل انسحابي وتمددي على الصوفا تملعنت على حنا قليلا علها تتركه وعليه عله يتعب ويملّ.

ـ حنّا... حنّا... احكي له عن جنينة المدينة. غدا سنزور أنا وهو مغارة سرفانتيس وسنحاول أن نعرج على الجنينة.

جدّتي لم تكن تنتظر إلا ذلك لتطلق العنان لأشواقها.

ـ آه لو فقط مازلت أملك النظر، لكن الحمد لله الذاكرة لم تمت. ما تزال حية ومتقدة مثل الشعلة.

ـ احك سنيورا، احك من فضلك.

ـ جنينة المدينة هي اسم الفيلّا الأندلسية التي كان والد جدي يقيم بها. بها قضيت نعومة الطفولة محاطة بالنساء الموريسكيات قبل أن يجتاح المدينة سكان الجبال وبنو كلبون الذين محوا بقسوة كل أثر للحياة. فيلّا كبيرة لم يملكها أحد قبلنا. عندما يواجهها المرء يحس بصغره أمام بابها الحديدية الثقيلة التي تشكل دفاعها الأول ضد كل الغرباء. تغطي مدخل الفيلّا، ظليلة من القرميد الأخضر التي تحمي الضيف القادم من بعيد من لسعة الشمس القاسية، في انتظار أن يأذن له سيد البيت بالدخول ليجد نفسه في حديقة جميلة يغمرها النور ويملأ اتساعها أريج النوار الحار. الأقواس المغطاة بالنباتات المتسلقة تكسو الأرضية الآجورية ظلالا. يتلاشى الضيف وهو يتقدم في سحر الحديقة، في قطرات المياه النازلة من نافورة والمتجهة نحو البركة الصغيرة التي ينكسر فيها هسيس الأغصان وبياض

الشمس وصوت القطرات الصغيرة التي سرعان ما تبعثر الظلال وانعكاسات خضرة شجيرات السرو. تتكئ الفيلّا على أعمدة زوجية، تشكل في التئامها مدخلاً مفتوحاً على الجهات الثلاثة للفيلّا. في الطابق العلوي، ينفتح الباب على سقيفة تقود إلى بهو عريض مجرد من كل ديكور. على أطرافه حجر تنفتح بشوق على فضاء مضاء من خلال الكوات الصغيرة المحفورة في أعالي الحيطان المواجهة للمدخل. بقية الشبابيك تطلّ على الحديقة وعلى وسط الدار الغارق في نعومة الضوء والمحاط بأعمدة رخامية رشيقة، معشقة في أعاليها بالسنابل والورق التي توحي بأصلها الموريسكي، تظللها أقواس متقنة تعطي لوسط الدار جماله وسخاءه. معظم الحجر المكونة لصلب الفيلّا طويلة وضيقة قليلا. في وسط إحداها، بعجّ يصعد بالسقف عاليا في شكل دائري، مبرزاً قبة بيضاوية تنفتح من كل زواياها، نوافذ تتسرب منها حزم النور وأمواج الظلال... ماذا تريد يا ابني، هل تكفي الحكاية لردم هوة الخراب الذي خلفه ضياع جنتنا؟ لا أدري ماذا فعل بها بني كلبون، فهم قادرون على كل الفظاعات والرزايا. هل أواصل؟

ـ واصلي يا سنيورا. أمامك طفل لا يمل من قصصك.

ـ ليست مجرد قصص ولكنها روح حية. ماذا يحدث عندما يتوغل الضيف وتواجهه الأدراج؟ تنهض أمامه باب معشقة بالألوان وقطع الزجاج الناعمة والنحاس، تختبئ وراءها حجرة صغيرة: *الدار السخونة* المغطاة بسقف يتعالى كلما أمعنا فيه النظر. قاعة صغيرة، ملمومة على نفسها بإحكام، بفتحة متواضعة تخترق الحائط بذكاء، تسمح لأشعة الشمس بالدخول والانتشار، تتصدر قاعة الراحة بعد تعب الحمام بسريرها الرخامي الذي يتسرسب عبر الحائط كله بنقشه الأندلسي الملفت للنظر. قاعة الراحة واسعة ومغطاة بالدلف والرخام الصقلّي والقاطيفا المنسوجة بأياد ماهرة والحصائر والزرابي ذات النقش السوري والهندسات المتقنة التي تشبه النقش السطايفي والبالمـــي التي تخلط في نسيجها اللونين،

الأحمر والأخضر الجزائريين في تنميق عالي الدلع والغنج... آه ياابني، أنت تثير في مدافن عميقة يصعب ردمها. لو لا حضور وليدي حسيسن الدائم معي، الله يحفظه، لصعب علي تحمل هذا الفراغ الذي يزداد كل يوم اتساعاً.

كانت كلمات حنّا تصلني مثل الحفيف وكأنها تاتي من بعيد، دافئة مثل أمطار العشاق الخفيفة. بدا لي أنها كانت كعادتها، تخلط ما عاشته بما سمعته عن تاريخ المدينة. وجه دون كيشوت كان ينسحب شيئا فشيئا تحت الضوء الخافت مثل غيمة ضائعة. كان يبذل مجهودا كبيرا لفهم لغة حنّا: خليط من الفروسية والإسبانية والعربية. عيناه الضيقتان مثل عيني عصفور بدأتا تنطفئان. في البداية كان غارقا ومع التعب أخرج مسجلة صغيرة وواصل الإنصات. على الرغم من تعبه، كان منذهلاً من القصص التي كانت تخرج من فم حنّا ممتلئة بالحنين والفقد.

مال نحوي قليلا وبهدوء وشوش في أذني:

ـ غدا يجب أن تريني جنينة المدينة. ما تقصه السنيورا ساحر.

سمعته ولم أجبه. لا أدري إذا سألني مرة أخرى عن شيء ما ولا أعلم إذا أنهت حنّا كل قصصها، فقد غرقت فجأة في نوم بدون ألوان ولا أحلام.

الفصل الثاني

خراب الأمكنة

ما وقع لحسيسن ورفيقه في مَفْرغَة وادي السمار والأسرار الخفية التي كشفها لهما شفيق، سارق الآثار المحترف. ويحتوي الفصل كذلك على الرحلة الكاملة التي قام بها دون كيشوت صوب مغارة سرفانتيس التي أكلتها النفايات وفيلاّ عبد اللطيف، قبل أن يقع في الأسر على يدي الرجل الغامض والمتنكر وراء نظارتين سوداوين.

I

استيقظ دون كيشوت مبكرا.

وجدته منحنيا على شرفة الطابق الخامس القديمة، يستمتع بالأدخنة الكثيفة التي بدأت تجتاح، شيئا فشيئا، حي باب الزوار كالعادة. مرتان في الأسبوع: الاثنين والخميس.

انتبه دون كيشوت إلى حضوري بالقرب منه وهو منغمس في التأمل.

التفت نحوي. حاول أن يفرك عينيه الملتهبتين من قلة النوم والأدخنة.

- يبدو أني لم أنم بالشكل الكافي.

- حنّا لا تتغير أبدا. عندما تجد من يستمع إليها، تتمادى في غيها.

- على كل كانت طيبة. تعلمت منها الكثير.

- سفرة مثل سفرة البارحة تحتاج إلى نوم هادئ وليلة كاملة من الراحة.

- أوف... لنا كل الموت لننام. هذا الضباب يعمق الإحساس الرومانسي، لكن يبدو أنه ثقيل بعض الشيء.

- هذه سذاجة. ما تتشرّبه الآن ليس ضبابا ولكنه الدخان الذي يأتي من مفرغة (مزبلة) وادي السمّار. نتحمله مجبرين مرتين في

الأسبوع. سنمرّ على هذه المفرغة لأن اللوحة الرخامية التي تخلد مرور جدك سرفانتيس على أرضنا، هناك، بعد أن سرقت من المغارة.

ـ عمّا تتحدث؟ كأنك تتكلم عن متحف وليس عن مفرغة.

ـ عندما نصل إلى هناك سأشرح لك. إنها قصة طويلة بدون معنى.

ـ عجيب؟

وصلت سيارة الأجرة الصفراء مثل ليمونة مضغوطة. كريم لودوك، سائق الأزمة الذي أحجزه كلما احتجت إليه، زمّر مرّتين، بدون أن ينزل من سيارته. بعد لحظات أعاد العملية من جديد. طيب. فهمت. هكذا الاتفاق مع كريم. إذا لم يزمر للمرة الأخيرة فهذا يعني أن هناك خطرا ما.

انزلقنا داخل السيارة بسرعة وبدون إثارة أي انتباه. أظن أن دون كيشوت لم يكن في حاجة إلى شرح، فقد فهم كل شيء بغريزته الحيوانية. في شرط قاس مثل الذي نعيشه، لا شيء يترك للصدفة. قدم لي كريم لودوك صحيفة الصباح بينما اهتم هو بسيارته ماسحا في الوقت نفسه المكان بعينيه النافذتين كعيني قط. فتحتها بانقباض كالعادة. علاقتنا بالصحف صارت مرضية. نكرهها ولا نستطيع الاستغناء عنها. كل يوم تأتينا بأسلوب جديد للجريمة: *الجمعة صباحا، على الساعة السادسة والنصف، دقّ إرهابيان على باب مسكن عائلة ف... الواقع في حي الشعبية بدائرة بئر توته. فتحت الأم الباب فدخل شخصان بعنف وأخذا حورية، شابة في مقتبل العمر. كان النوم مايزال يملأ عينيها. سحباها بعنف شديد من ذراعها باتجاه سيارة غولف سوداء اللون. في صباح اليوم الموالي وُجدت مذبوحة داخل الحي، مكتّفة اليدين وراء الظهر وغارقة في بركة من الدم. حورية دُفنت البارحة. يقول سكان الشعبية أن لحظة الدفن تغيب الجميع، باستثناء أمها المسكينة ورجل غريب ساعدها على*

حفر القبر قبل أن يطلب مقابلا لمجهوده وينسحب نهائيا في سكينة ولامبالاة.

طويت الصحيفة ثم رميتها ورائي. فقد بدأ قلبي مبكرا ينضغط مثل الإسفنجة.

خلال كل المسافة التي قطعناها، لم يتحدث دون كيشوت عن شيء آخر إلّا عن اللوحة الرخامية المخلدة لسرفانتيس وعن المكان العجيب الذي سيقت إليه. لكن ثرثرة كريم لودوك هي التي كانت تملأ المكان. كريم لا يعرف لغة الصمت. فرصته الكبيرة ليستعرض ثقافته وفهمه للأشياء الصعبة. بسهولة متناهية يمكنه أن ينتقل من فقيه إلى محلل متخصص في القضايا الحساسة للبلد والعالم. لا يشعر بأي إحراج على الإطلاق. لا يتحمل الصمت أبدا.

قال لدون كيشوت بلغة معربسة (عربية ـ فرنسية):

ـ في هذا البلد يا صديقي كل شيء يسير بشكل معكوس. لا أحد في مكانه الطبيعي وإلا لما وصلنا إلى هذا الوباء الذي يزداد كل يوم انتشارا في البلد بكامله. أنا مثلا، أملك شهادة الليسانس في اللغة العربية وأشتغل سائق سيارة بدل أن أكون في مكاني الطبيعي. ابن عمي، أميٌّ بالكامل، مدير شركة وطنية كبيرة. لدي صديق متخرج من كلية الطب بباريس، يشتغل الآن أستاذا للغة الفرنسية في مدرسة صغيرة. هذه أمثلة صغيرة فقط والقائمة طويلة. الظاهر أنه حتى رئاسة الجمهورية في هذا البلد لم تعد تتطلب كفاءات عالية أو حتى متوسطة. لا شيء سوى السلطان حتى ولو كان على كمٍّ لا يضاهى من الخيبات والجهل. لم تعد هناك أية حدود للطمع. حتى القهواجي لا يتوانى عن رؤية نفسه رئيساً لكل الجزائريين. قبل وصولك بأيام، طباخ ذهب ضحية حلمه المجنون، ترشح للرئاسيات فاغتيل بكل بلادة هو ينشط حملته الانتخابية. نصحته مرارا بترك هذا الوباء ولكنه أصرّ. تعرف ماذا كان ردّه؟ *أترشح لإرضاء نفسي ولكن كذلك من أجل كل الذين في وضعيتي. الذين سبقوني لم يكونوا أفضل مني*

في شيء. لماذا إذن أحرم نفسي من سعادة أكيدة؟ أعرف مسبقا أني لن أنجح فاللعبة مغلقة. للمرور نحتاج إلى امتلاك قلاوي (خصيات) من نحاس ونتكئ على حائط حديدي وجزمات عسكرية سوداء وأنا لا أملك لا هذا ولا ذاك. جذع مقطوع من شجرة ماتت منذ زمن بعيد. ولهذا ترشحي وحده يمكن أن يزعجهم في راحتهم الملوكية ويخلط أوراقهم. في الواقع، لم يكن مخطئا مئة بالمئة حتى ولو كان انتحاره مجانيا. بني كلبون لا يلعبون أبداً بالنار عندما يتعلق الأمر بالسلطان.

بدأنا نقترب من المفرغة. كانت الأدخنة المتصاعدة منها خانقة. طلبت من كريم لودوك أن يغلق زجاج السيارة. لم نكن بعيدين عن المطار الجديد الذي كان برجاه يخترقان الأدخنة التي بدأت تعمي مدرجات الهبوط، ليطلّا بخجل من بعيد. هذا المطار الذي ظل كتلة من البيطون العاري لم يستطع أن يستقر على شكل منذ أكثر من أربع سنوات. مثله مثل مترو العاصمة بأفواهه الواسعة ومخارجه التي لا تودي إلى أي شيء. النموذج الرمزي الصارخ لإفلاس سياسة العجز والخراب.

عندما وصلنا إلى المفرغة، فتحت أخيرا زجاج السيارة. الغريب أن روائح الحرق الكريهة زالت. عندما نصير فيها لا نشمها. أنزلنا كريم لودوك عند حواجز المدخل ثم انطفأ ليعود لنا بعد ساعتين، كما اتفقنا معه. لم يكن دون كيشوت قادرا على فهم هذه العبثية الغريبة: كيف تتحول مزبلة إلى متحف يضم اللوحة التذكارية لسرفانتيس؟ رغم صبره، فعيناه كانتا تظهران رغبة واضحة للكشف السريع. فجأة واجهنا حارس لا أدري من أين خرج. في الحقيقة لم أستغرب وجوده. فحساسية المكان تفترض مثل هذا التواجد الاستثنائي. وجّه عصاه القديمة باتجاهنا وهو يتفرسنا بنظرة سوداء.

ـ نعم؟ تبحثون عمّن؟

العلاقات هنا تسير على هذه الشاكلة. يسألونك أولا عن الشخص الذي تريد رؤيته. وإذا لم يكن برأسك اسم ما لا تستطيع أن تمر أبدا.

- آ... آ... إلى المصانع. نحتاج إلى طلب دفعة كبيرة من الأدوية لصيدليتي وبعض قطع الغيار.

أجبته هكذا بعفوية وبدون أدنى تفكير وبدون أن أعرف الوسيلة المفيدة لإقناعه. تمالكت من جديد حتى لا أترك له فرصة طردنا من المكان. يجب أن يعرف أننا مهمين، لأنه لو يركب رأسه لن نمر أبداً. علينا أن لا نوصله إلى القَسَم النهائي: *والله ما تدّخلوا حتى لو كان يجي رايس هذه البلاد*، من الأحسن الانسحاب.

أعاد سؤاله من جديد:

- هل هناك شخص بعينه تريدان رؤيته؟

- السّي شفيق.

- صحّ. انتظروا لحظة حتى ينتهي البحّاثون من تفريغ الحمولة الأخيرة لشاحنات الأدوية غير الصالحة. ممنوع منعا باتا إزعاج البحاثين في عملهم.

- أخشى أن ننتظر طويلا.

- لا. لا. كل شيء صار الآن آليا. وصلتنا آلات تقوم بكل شيء لوحدها في مكان الإنسان وبشكل أكثر دقة. لم يبق للعمال إلا وظيفة الفرز.

بعد نصف ساعة ارتأى الحارس الهرم أن يتلفن ليعلن عن وجودنا ويسمح لنا بتخطي عتبة المدخل. تبعنا طويلا بعينيه قبل أن يفصل بيننا وبينه الحاجز الرملي الذي تلتصق به قطعتا بوابة المدخل الكبير.

نفذ صبر دون كيشوت. كان يريد أن يفهم ما يحيط به.

- يتحدثون عن المصانع وعن البحّاثين، بينما لا أرى إلا مزبلة على مرمى البصر؟

- هذه مفرغة تخبئ وراءها شيئا آخر. أكبر مفرغة في البلد. تشتغل مثل مصنع.

- وهذه الأدخنة؟ ماذا يحرقون إذن إذا لم تكن المواد المستهلكة التي لا تصلح لأي شيء؟

- هذا الجزء الظاهر فقط من الإزبرغ (Isberg). هنا يستعملون كلمة مصنع للإشارة إلى الماكنة السرية التي تشتغل بشكل جيد والتي لا يعرفها أحد.

- ... ...

- أوضح أكثر. هذا المكان سوق مفتوح للتبادل الحر بين كبار موظفي الدولة الذين يحتلون كل الأمكنة. سنرى فيما بعد سلسلة المكاتب التي تستقبل خصيصا الزبائن المتميزين. كل مكتب ينفتح على مخازن ممتلئة جداً بالسلع: قطع غيار، أدوية، مواد البناء، ألبسة وحاجات أخرى. كل شيء يسير بالموازاة مع التخصص. مثلا، في مصنع برليي(هكذا تسمى مقبرة السيارات التي لا تستقبل إلا الآليات الضخمة والباصات المعطوبة) باصات وآليات تابعة لقطاع الدولة وورشات العمل، يقال أنها لم تعد صالحة وأن أحد الخواص المجهولين يشتريها بأسعار رمزية ويعيد تصليحها هنا قبل ان يبيعها من جديد إلى الدولة بأسعار الآليات الجديدة خصوصا مع حالة ندرة الاستيراد التي تعيشها البلاد بعد انهيار أسعار النفط.

- أنت بالفعل تخيفني.

- ليس هذا قصدي. أعطيك مثالا آخر. كل هذه العلب الكبيرة التي تراها، المتأتية عادة من الميناء لا تحتوي دائما على أدوية غير صالحة مهيّأة للحرق في المفرغة ولكن كذلك على أدوية وأجهزة طبية جديدة. فهي تحوط بأشياء قديمة تترك للتلف عمدا حتى تبرر

عملية حرقها الوهمي ولإقناع المراقبين ولجان متابعة الإتلاف بعيدا عن المدينة. إنها الملايين التي تمر عبر هذه الحيلة وربما الملايير. حتى اللجان التي تبعث عادة بشكل فجائي إلى الميناء لم تستطع أن تفعل شيئا مهما، فخبر مجيئها يتسرب قبل وصولها. آخر هذه اللجان قادها مفتش مركزي للجمارك. بعد عمل شاق وشفاف صرح للصحافة الوطنية أنه لا يستطيع أن يقدم بشكل دقيق الكلفة الإجمالية للتجهيزات والمواد التي تترك عمدا للإتلاف والصدأ في ميناء الجزائر ولكن بحسب تخمينات أستاذ في الطب، متخصص في التجهيزات الطبية ومسيّر لعيادة خاصة أنها بمعدل مئة مليون فرنك فرنسي تقريبا. المسؤولون الكبار نفوا القصة من أصلها واعتبروها مجرد لعبة لتشويه التاريخ النضالي للأفراد والوطن. الأمر في الحقيقة لم يكن يحتاج إلى دراية كبيرة لمعرفة سر اللعبة. القراءة وحدها تكفي،على جهاز تصفية البول ذي الألياف المغرّفة المنجز في مختبرات صوران بيومديكا، نقرأ تاريخ طنعه (1986) وتاريخ تلفه (1991). ولم يكن الأمر كذلك يتطلب من المرء أن يكون موظفا في مراقبة الأسعار ليعرف مجموع الربح المحصل إذ يكفيه سعر الوحدة المسجل على العلبة (في حدود 1400 فرنكا فرنسيا تقريبا) مضروب في مجموع الدفعة المستوردة ليعرف ثمن السلعة المتروكة للتلف قبل أن تستلمها الشاحنات لرميها في مفرغة وادي السمار، لترتب ويعاد إدخالها إلى المستشفيات من جديد بدل حرقها كما هو معلن.

هنا يا صديقي كل شيء يشتغل مثل الساعة. يعاد ترتيبه وتنظيمه من طرف البحّاثين الذين في الواقع عبارة عن حطيست (البطالون الملتصقون بالحيطان) القاطنين بالناحية. ما هو غير صالح نهائيا يحرقونه، أما البقية فيتم تعليبها من جديد في المخازن الخاصة والمخابئ الأرضية التي يسمونها مصانع لتبعث بحسب الطلب إلى السوق الوطنية أو إلى المستشفيات بتواطؤ كبير مع أطراف عديدة تبدأ من الميناء والأماكن الخاصة وتنتهي إلى

دوائر السلطة العليا. نفس الشيء يتم تنفيذه في مصانع مواد البناء التي تأتي عادة من المعالم السياحية وكذلك مصانع الألبسة التي يتم اقتناؤها من المزادات التي تنظم بشكل شبه سري في ناحية من المطار. على رأس كل مصنع يوجد مسير، مكانه براكة صغيرة يستقبل فيها الزبائن، ويساعده بائعان يشتغلان كل الوقت بداخل المخازن. البحّاثون لا نراهم إلا بمناسبة وصول حمولات جديدة، يقتفون الشاحنات من أجل تفريغها. لا يُوظفون إلا مؤقتا لعزل ماهو صالح عن بقية الفضلات. معظمهم من أطفال وشباب وادي السمار الذين على الرغم من الإصابة بمرض الربو المزمن، يواصلون العمل بهذه المزبلة الوطنية الكبرى. كانوا في طليعة من انتفضوا ضد الذين طالبوا بتحويل مكان المفرغة من وادي السمار إلى مكان أبعد حفاظا على صحة المواطنين، في مظاهرة عارمة، بشعارات منتقاة بدقة: *لا للجوع. ارفعوا أيديكم عن مزبلتنا. نعم للربو لا للقهر والحقرة...*

كنت أدرك جيداً أن الكثير من التفاصيل كانت تفلت من دون كيشوت. أخرجت قلما من جيبي وخططت له رسما على الورقة. برقق عينيه مثل ديك استيقظ متأخرا ثم قال:

- ومن بعد؟

- الأمر بسيط جدا، أنظر جيداً.

وأريته التخطيط الذي أنجزته والإشارات التي تحيل إلى وظيفة كل واحد:

البحّاثون ـــــ المفرغة.

البائعون ـــــ المخازن.

المسيّر ـــــ المكتب.

- أنت تسخر مني أم ماذا؟ هذه مؤسسة أم مزبلة؟

- بالفعل، الانطباع المظهري عادة هو الغالب.

ـ هؤلاء الناس ماداموا شاطرين إلى هذه الدرجة، لماذا لايشتغلون بشكل معلن كتجار؟ أفترض أن هناك قوانين تسيّر هذا البلد؟

ـ هنا كذلك المسألة ليست بسيطة مثلما يمكن أن نظن. رسمياً، هذا المكان مفرغة لحرق النفايات وليس مكانا لإعادة تصنيع الفضلات. السلع التي تصل إلى هذا المكان لا وجود رسمي لها لأنها قانوناً، يفترض أن تكون قد أحرقت كمادة تالفة. كل شيء ههنا خاضع لنظام مُحكم تسيّره الظلال.

ـ واللوح التذكاري لسرفانتيس، ما محله من الإعراب داخل هذا الخراب؟

ـ اعط لنفسك بعض الوقت وستكتشف لوحدك ما لم تره في حياتك مطلقاً. هذا اللوح المشهور يوجد في أحد هذه المصانع المزعومة المسيّرة من طرف أحد المتخصصين في المواد النادرة والمسروقة من الأماكن الأثرية بواسطة تواطؤات معقدة لأشخاص لايُمسون. الآجر الروماني النادر يباع هنا بأسعار تافهة إذا ماقارناه بقيمته التاريخية الحقيقية. أعمدة بكاملها بيعت مجزّأة. الطين التركي والزليج الأندلسي الذي كان يزين البيوتات القديمة بيع لتزيين فيلّات بني كلبون الجديدة الذين أكلوا الأخضر واليابس بجهلهم.

ـ بلغة أكثر وضوحا هذا يسمى نهبا. إلهي!

كنت أعرف شفيق، مسيّر هذا المصنع، الأمر الذي سهّل لنا عملية الدخول. لم يكن هذا الأخير يجهل وظيفتي في وزارة الثقافة ولهذا كان حذرا في كلامه وكأنه كان خائفا من شيء أو من إفشاء سر ما. عندما رآنا على عتبة المصنع لم يكن بشوشاً أبداً ولكن شيئا ما كان يضطره، ربما خوفه من وظيفتي. حاول عبثا أن يغير من اكفهرار وجهه المضطرب وأن يكون أكثر ليونة على العكس من المداهمات الفجائية التي قامت بها الوزارة في مصنعه ويخرج منها سالماً باستمرار.

ـ هاه السي حسيسن، هل هي شكوك جديدة من الوزارة؟

ـ أبدا. أنت تعرف أنك رجل فوق كل الشبهات. جئتك اليوم بحمامة تنتظر فقط من يريشها.

شعرت أنه لم يفهمني أو أنه تعامى.

كنت أتحدث بالعربية حتى لا أثير انتباه دون كيشوت.

ـ ما فهمتكش مليح.

ـ شوف يا مولاي، هذا الرجل سبنيولي، يريد أن يشتري كل مايتعلق ببلده. في أسوأ الأحوال سينشر كل مشاهداته في الصحافة المتخصصة بالأثريات وهي في كل الظروف دعاية مجانية لك ولمصنعك ستدفع بالمولعين بالقطع الأثرية بزيارتك. فأنت في كل الحالات رابح. أكثر من هذا فهؤلاء المسخوطون، كما تعرف، يدفعون بالدولار.

فجأة بدأت عيناه تشعان ببريق من الفرح. وبدون أن يتملك سعادته، لم ينس أن يبرر وضعه.

ـ أنت تعرف يا صديقي أننا في بلد كل شيء يسير فيه بالمقلوب، فأرجوك لا تحملني تبعات أخطاء الآخرين ولا تلمني إذا اتخذت بعض الاحتياطات اللازمة حتى تجاه أصدقائي. مهنتنا صعبة، وأنت تعرف ذلك جيداً.

ثم بحركة شبه آلية أغلق الباب وطلب منا أن نتبعه وهو يكرر:

ـ أنا كذلك مثلكم إذا لم أعمل سأموت جوعا. الخبزة بنت الكلب. لا أشتري إلا ما يقبل الآخرون بيعه لي.

توغلنا أكثر نحو عمق المخزن. وشوش في آذان البائعين المنتصبين مثل تمثالين من البرونز، صامتين، جامدين بدون حراك. وجه أحدهما كان استفزازيا وعيناه حارقتان. انسحبا بدون تردد أو تعليق. نزلنا شيئا فشيئا الأدراج النصف مضاءة التي انتهت بنا نحو ساحة عريضة مملوءة بالتحف الصغيرة. قادنا شفيق نحو

مرتكز أحد الحيطان التحتية وكشف لنا عن اللوحة التذكارية بمناسبة تدشين مغارة سرفانتيس كمعلم أثري للجالية الإسبانية في الجزائر، التي طلبنا رؤيتها.

ركع دون كيشوت على ركبتيه باندهاش وهو يفرك عينيه لايصدق ما كان يراه. بدأ يفك الكلمات التي كانت ما تزال بارزة على اللوح:

A QUI
SEGUN SE CREE
BUSCO ASILO
CON OTROS TRECE COMPAGNEOS
CERVANTES
AL IMMORTAL AUTOR
DEL DON QUIJOTE
AL INTENTAR LIBERTASE
DEL CAUTIVERIO
DE LOS PIRATAS ARGELINOS

LA COLONIA ESPANOLA
Y SUS OTROS ADMIRADORES DE ARGEL
ERIGEN
ESTE SENCILLO RECUERDO
COMO TRIBUTO DE ADMIRACION
A TAN INSIGNE ESCRITOR
SIENDO
CONSUL GENERAL DE ESPANA.

لم يستطع تصديق ما رأته عيناه. لامس اللوح بحنان كبير وكأنه خائف من كسره أو ليتحقق من أصالته.

وضح لنا شفيق بعض التفاصيل التي كنا نجهلها حتما بدون أن ينسى مرة أخرى أن يذكرنا بوظيفته العلمية الخالصة.

ـ بالرغم من الانشغالات الحياتية القاسية لم أنس أبداً هوايتي

الأساسية. فأنا أنطروبولوجي قبل أن أكون أي شيء آخر وقد وُظِّفت بناء على مهاراتي في هذا الميدان. هنا، في هذا الفضاء الرحب أمارس حريتي الإبداعية الخلاقة أفضل من أي مكتب رسمي آخر. قصة هذا اللوح التذكاري ليست عادية. الجالية الإسبانية رفعت في مغارة سرفانتيس الواقعة على مرتفعات الهضبة المطلة على حديقة التجارب النباتية نصبا تذكاريا نصفيا من الرخام منسوخا عن الأصل الموجود بالمتحف الوطني بمدريد. وتمّ التدشين يوم 24 جوان 1894. هي التكريم الثاني إضافة إلى اللوحة التي سبق أن أهدتها الجالية الإسبانية بسيدي بلعباس وثبتت عند مدخل المغارة بتاريخ 1905 من شهر مارس. وفي 7 ماي من نفس السنة احتفل بنفس المكان وبرئاسة لويس ماريناس قنصل إسبانيا في الجزائر، بمرور المئوية الثالثة على صدور كتاب دون كيشوت. منذ ذلك الزمن أشياء كثيرة تغيرت وبعض الآثار اندثرت والنصب النصفي سُرق وبيع كما يصرح البعض. نملك نسخة قديمة وشبيهة بالأصل المسروق. وهي التي أظهرها لنا. أعرفها جيداً بكل تفاصيلها.

كدت أقول له أنها نسخة طبق الأصل مثل تلك التي كانت بالمتحف الوطني للفنون الجميلة قبل أن تُسرق بعد أن وضع في المغارة من طرف الوزارة بمناسبة زيارة الوفد الإسباني. ولكني أحجمت عن ذلك لأسباب أعرفها جيدا: أولا أتحمل مسؤولية كبرى في ضياعه، ثانيا لم أكن أريد أن أضيع فرصة اكتشاف هذا العالم الجميل الضائع في أعماق هذه المزبلة الوطنية.

في الحقيقة، لم يثرني أي شيء، لأني من خلال تجربتي الخاصة، كنت أعرف أن مسيّري هذه الأماكن يُختارون بدقّة من بين أحسن إطارات الدولة. لنقل يُشترون لتلبية حاجات معيّنة. برجوازيتنا البدائية بدأت تولّف تقاليدها المختلطة بالتقاليد البورجوازية العالمية. منذ سنوات انتشرت موضة شراء المكتبات المزينة بالمصنّفات العربية والكتب المجلدة بمختلف الألوان، التي تمّ اقتناؤها بنصف أثمانها من المعرض الوطني للكتاب: القرآن،

الرسائل، التفسيرات الدينية الكبرى، كتب السنة، وحتى رأس المال لكارل ماركس الذي اشتري عن طريق الخطأ لأنّه بتجليده الأحمر، كان يشبه كتابا دينيا. الآن مع هلوسات الفيلّات، سيطرت موضة حجارة الأماكن الأثرية والآجر الرّوماني، كتلك الموجودة في تيبازة والتي تباع بأسعار مجنونة. سوق جديد بدأ يزدهر في الآونة الأخيرة في أماكن كثيرة.

كان شفيق يبذل مجهودات مضاعفة لإرضائنا حتى ولو كان من الصعب عليه تخبئة بعض القلق الذي كان ينتابه. كان يتمنى لو استطاع الانفصال مع زبونه الجديد ولكن حضوري صعّب عليه المهمّة.

لم يتوان دون كيشوت عن طرح سؤاله المقلق:

- الذي لم أفهمه حتى الآن يا سيّدي كيف انتقل هذا التمثال النصفي إلى هذا المكان.

عدّل شفيق سرواله الذي نزل تحت سرّة بطه المنتفخ وضبّط هندامه قبل أن يردّ بهدوء مفتعل:

- سؤال وجيه ومنطقي. ما سأقوله لكما سيدهشكما بكلّ تأكيد. واحد من البحّاثين المستقلّين هو الذي عثر عليه في مفرغة بلكور. عرضه علينا وعلى غيرنا، أعطاه أفضل سعر فباعه لنا. هكذا بكلّ بساطة. كان النصب متلفا فرمّمناه كما ترون حتى صار تحفة تهمّ المؤرخين وعشّاق النوادرالأثرية. أرجعناه كما كان في الأصل بفضل مساعدة المختصّين الذين يشتغلون على آثار حي القصبة.

إلهي؟ أية جرأة هذه التي تصل حدّ الوقاحة؟ تمنيت أن أصرخ بأعلى صوتي ولكنّي كتمت أنفاسي حتى لا أخرّب مشروع دون كيشوت الذي كان مأخوذا بما كان يراه ويلمسه. شفيق ذهب إلى أبعد من ذلك، فأرانا غنيمته الأخيرة: قوس من الحجارة الرومانية المنحوتة، مرتكز على عمودين رخاميين ناصعي البياض. لو ينس

شفيق بأن يعلمنا بأنه قد بيع لرجل محترف في شراء المعالم الأثرية الرومانية ليزين به فيلّاته الواقعة على حافة البحر.

يا لطيف! ربما كان سارقا من سراق هذه المدينة، رداءة البؤس.

تأمّلنا لحظة قبل أن يقرّر النزول بنا أكثر نحو زاوية مظلمة في نهاية بهو قليل النور ليقدّم لنا لوحا رخاميا كتب عليه:

COMITE DU VIEIL ALGER
A la mémoire du poéte
REGNARD
Qui fut esclave à Alger
de 1678 à 1681

لجنة الجزائر القديمة

ذكرى الشاعر

رينيار

الذي كان أسيرا بالجزائر

من 1678 إلى 1681

ثم حاول أن يشرح لنا وكأنه دليل متخصّص، عن ممتلكاته النادرة:

ـ هذه بقايا اللّوح التذكاري الذي رُفع تكريما لذكرى الشاعر رينيار، العاشق الممحون الذي لا يعلم بوجوده في هذه البلاد المصابة بالأمنيزيا إلّا القليل،

لم أستطع كتم اندهاشي.

ـ حتى رينيار وصل إلى هذا المكان، مش معقول؟

- نعم. رينيار بلحمه ودمه، مجنون إلفير، وكاتب (folies amoureuses ،Légataire universelle)، هو بدوره كان أسيراً لدى القراصنة. يحكي عن أسره في روايته الجميلة لابروفانسال (La provençale)، كان ذلك في 1677. عمر رينيار وقتها لا يتجاوز اثنين وعشرين سنة. أحبّ امرأة من مدينة آرل Arles التي كانت برفقة زوجها السيد دوبراد في رحلة بحرية، ولكن شحنة غيرة الزوج فرقتهما. التقيا من جديد في سفينة أنجليزية. على مشارف مدينة نيس بدأت سفينتان للقراصنة في مطاردتهم حتى تمّ القبض عليهم جميعا وسجنوا من طرف القبطان مصطفى في 1678. وصلت السفينة المحملة بالغنائم في شهر رمضان. قدّم القبطان سباياه لصاحب المقام بابا حسن صهر الدّاي الذي كانت له سلطة كبيرة على هذا الأخير. وبحسب العادة، فقد كان للدّاي ثُمُن الغنائم. اقتيدت إلفير إلى بيت حريم بابا حسن، بينما اقتيد دوبراد ورينيار إلى البادستان (سوق العبيد الذي أصبح اليوم مسمكة) حيث بيعا هناك. رينيار تمّ شراؤه بألف وخمس مئة لفرا (Livres) من طرف رجل موريسكي من أصل طغري Tagarins يسمى عشمت طالم. استطاع أن يكسب بسرعة ثقته بالعمل عنده في الصباغة. لكن هدف رينيار الأساسي كان هو العثور على إلفير التي كانت تعيش في بيت الحريم مع نساء بربريات وأندلسيات وصقلّيات،

- كلّ الحوادث القديمة تلتقي في نفس المسارات، وكأنك تحكي عن قصة جدّي مع الشابة المجنونة جينه.

- القصة لم تنته بعد، ذات يوم التقت إلفير وهي ذاهبة إلى الحمام بصديقها رينيار الذي كان يرتدي قبعة العبيد الحمراء. استطاعت أن تكلّمه:

- آه يا سيّدي، أنا ضائعة. كيف سأتحمل غيابك وبعدك؟

وصمّم الإثنان سرّيا على الهرب إلى مايوركا، ولكن محاولتهما باءت بالفشل إذ سرعان ما أعيدا إلى الجزائر حيث كان ينتظرهما

أسرٌ أكثر قسوة من الأول. وبفضل عائلته التي قَبِلت بمنح الفدية التي تقدّر باثنتي عشرة لفرا، أطلق سراحهما. غادر الجزائر مع عشيقته إلى حيث لا يعرفهما أحد. ذات مرة، بينما كانا يتجوّلان وإذا برجل يتقدم منهما. عرفاه بسرعة. إنه زوج إلفير الذي كان الجميع يظنّ أنه مات. وانهار الحلم الكبير. فصمّم رينيار، بقلب منكسر، أن ينسى إلفير بالمشي حتى المحيط المتجمّد. وعندما وصل إلى مرتفعات ميتافارا Metavara، توقّف وكتب اسم إلفير ومات وحيداً وسط الفراغ الأبيض.

كان دون كيشوت مسحورا بقصة رينيار وإلفير الآسرة التي سمعها للمرّة الأولى، وحزينا لأن قصة مثل هذه لا تروى داخل مزبلة.

ـ ولكن هذا جنونا؟ مدهش. قصص مثل هذه من المفروض أن تجد لها متحفا تُقصّ فيه وليس هنا. خسارة.

ـ ليس لنا حظ مصادفة زبائن رقيقين مثلكم ومستعدين للإنصات. أنا كذلك أجد متعتي الخاصة مثل المستمع. إنها اللحظات الوحيدة التي أتصالح فيها مع نفسي.

في نهاية جولتنا، كشف لنا شفيق عن مكان كان يضع فيه قذائف حجرية منحوتة مثل الكرات كانت توضع في المنجنيق، وقطع ذهبية وزرابي تركية ونسخة من ألف ليلة وليلة، بلبال غير معروفة، اشتراها باحث مستشرق فضّل عدم ذكر اسمه وقطعا زجاجية مسروقة، بكلّ تأكيد، من كنائس قديمة أو من مساجد عتيقة. الكلّ كان منظما ومرقّما ومفيّشا.

عندما هممنا بالخروج، سبقنا شفيق نحو لوحة إتيان ديني. شرح لنا كيف وصلت هذه اللوحة إلى هذا المكان.

ـ الفضل يعود إلى رجل وهراني يبيع ويشتري التحف القديمة، رأى اللّوحة في سوق الحراش المتنقل فاشتراها.

قبل مغادرتنا للطابق الأرضي، اقترح علينا شفيق أن نرتاح قليلا. لم نشعر بالتعب إلاّ عندما غرقنا في نعومة الأريكة الواسعة. غاب لحظة ثم عاد وفي يده مخطوطتين. مدّ الأولى لدون كيشوت وهو يبتسم:

ـ ها هي إحدى العجائب. لم ترها إلاّ في هذا المكان. الكورديلّو الذي دوّنه شطاين.

ـ كورديلّو شطاين؟

ـ إنه شطاين، أسير الجزائر. الرجل المهبول والشجاع الذي، مقابل حريته، كان مستعدا للقيام بكلّ الجنونيات، حتى التحوّل إلى ساحر. في 1625 كان مسافراً من مرسيليا إلى الإسكندرية وكان عسكريا في العشرين من عمره، ذا طباع مرتبكة ومولع باللعب والسخرية. طبيعة مثل هذه لم تكن لتروق لقبطان السفينة الذي ملّ منه فتركه في عرض البحر. فأنقذ من طرف شراع صغير هو بدوره وقع في قبضة الأتراك. هكذا وجد شطاين نفسه أسيرا في الجزائر مع مسافرين آخرين. لمّا كان مسكونا بالجنون، راح يبحث عن أسير أراباشيم: المعلّم جاكوم البندقي المتخصّص في بناء السفن الشراعية وحاول أن يقنعه بامتلاكه لوصفة سحرية موجودة في كتاب قادرة على إنقاذهم جميعا من قيود الأسر ونقْلهم في ليلة واحدة إلى البندقية سالمين. كان من الصعب على المعلم جاكوم تصديقه. انزعج شطاين وترجاه أن يصحبه ذات مساء ليختبر معه خوارق الكتاب الذي يملكه. وعلى الثانية عشرة ليلا، كان المعلم جاكوم في الموعد بصحبة بعض أصدقائه وأعوانه ومعهم شطاين لاختبار التجربة على شاطئ باب عزّون.

خطط شطاين في البداية رسما على الرمال في شكل دائرة، وضع داخلها كلبا كان قد صحبه معه لإثبات صحة كلامه للآخرين. وبعد قراءات متعددة من كتابه مصحوبة بحركات بهلوانية كثيرة، اندثر الكلب فجأة. لا أحد كان قادراً على معرفة الطريقة التي انطفأ

بها الكلب. أول شيء قام به المعلم جاكوم هو أنه اشترى شطاين بثلاث مئة بطاك (Pataques) وخبّأه في كهف واهتم به بشكل جيد. مع حلول فصل الربيع وعودة تفشي وباء الطاعون في البلد، صمم المعلم جاكوم على الهرب واختبار كتاب شطاين للمرة الثانية وهذه المرة في وضح النهار. كان عدد الذين يفترض أن يسافروا اثنين وعشرين فردا. قام شطاين بتصفيفهم الواحد بعد الآخر وكأنهم على متن سفينة وأخذ هو المقدمة مثل القبطان، ورسم حولهم على الرمال، دائرة تشبه السفينة. بقي المساكين اليوم بكامله واقفين، جوعا وعطشا، واقفين بدون حراك تحت شمس حارقة لأنهم كانوا يظنون أن أية حركة يقومون بها تقودهم إلى البحر والغرق. في نهاية اليوم، عندما تأكد لهم فشل التجربة انسحبوا وهم يرددون: لتذهب أنت وكتابك المقدس إلى الجحيم. ووضع في القيد من جديد. وبعد محن كثيرة، تم شراؤه بألف بطاك من طرف القبطان، التاجر الغني، الذي تخلى عنه في المرة الأولى في عرض البحر وظلّ متبوعا من طرف القضاء بسبب هذا التخلّي.

ـ محنة خرافية.

ـ الكتاب الذي بين يديك هو نفسه كتاب شطاين المقدس الذي كاد يهلك صاحبه.

دهشة دون كيشوت من القصة لم تخبئ مطلقا امتعاضه من ضياع كل هذه الذخائر داخل مزبلة. تراءت أمام عينيه صورة جده وهو يحاول أن يقاوم خرابا كان من الصعب زحزحته بوسائل القوة التقليدية، فلم يجد أمامه إلا الجنون والسخرية لتخطي عتبة الانتحار.

التفت شفيق نحونا بزهو وقدم لي مخطوطة أخرى قديمة، صفراء ومغبرّة.

ـ المفترض أن تهم وزارة الثقافة. كنز ثمين علينا أن نحتفظ به في وطننا بدل تركه بين أيدي المستشرقين. تحركوا قبل فوات

الأوان. اقتنوه قبل أن يشتريه الآخرون. الكتاب الموجود بين يدي هو *منامات الوهراني* الذي اندثر منذ زمن بعيد ولم يأت ذكره إلا في كتابات بروكلمان. نصّ ظلّ ممنوعا منذ أكثر من عشرة قرون لأنه دفع باللغة العربية نحو الغواية والتمادي وضياع المعنى. معه سمّت اللغة خوفها بفرح وجنون. عربية التقديس تماهت في اليومي، والممنوع صار خطابا متداولا. من أجل الحصول على هذا النصّ يعطي العارفون بؤبؤ العين. الوهراني قام بما قام به أبو العلاء المعرّي في رسالة الغفران. رأى نفسه ميتا في مواجهة النّور، ومجبراً على الإجابة عن أسئلته التي لم ترُقْ له. فنهض من قبره وتوجّه نحو الله. خلال رحلته الطويلة في العالم العلوي، التقى بشعراء ووجهاء كثيرين، من بينهم الذين عاصروه من الذين صفّى معهم حساباته القديمة. هو من قال في نهاية حياته: عندما انغلقت الدنيا عليّ مثل قوقعة وضيعت كلّ اتّجاه، رميت بنفسي روحاً وجسداً في فم الحياة بدون أن أتساءل، دليلي الوحيد وصديق الرّحلة: جواهر الشّعر.

بدا واضحا أن الذي كان يهمّ شفيق من كلّ هذا المجهود هو أن يجعلنا نعلق بهذه النّفائس. وقد استطاع إلى حدّ كبير. في أعماقي كنت على يقين بأني سأرجع إليه في وقت قريب. من غير المعقول أن يظل كنز كهذا وتراث بكامله بين المزابل. غير مقبول. بل جريمة.

في الأخير وعدناه بالعودة الأكيدة إلى هذا المكان للشراء والإشهار غير المباشر لمصنعه.

عند عتبة الباب، قبل مغادرة المكان وفي شبه سعادة يشوبها انكسار ما وتساؤلات خفية تعلن عن نفسها من خلال نظراتنا، التفتّ نحو دون كيشوت وشفيق يسمع

ـ كأننا داخل متحف وطني. شفيق متخصص كبير في هذه النفائس ويعرف قيمتها، وربّما أحسنهم في هذا البلد. الذين وظّفوه لم يخطئوا، فهم يعرفون قيمته جيّداً. عالم كبير.

أحسست ونحن نغادر المكان، أن شفيق كان غارقا بين الغيوم من فرط سعادته. حمامة للتّرييش، لم يحلم أبداً بذلك. سماع عبارات الشكر، تدغدغ غروره كثيرا، فعزفت على أكثر الأوتار حساسية فيه. مثل هذه الملاحظات تنشطه وتخرجه ولو للحظه من هذه الركامات المزبلية التي يعيش فيها والأرقام التي تملأ رأسه والحسابات التجارية الفخمة التي يستفيد منها غيره. ولهذا كله شعر بردّ الاعتبار له. تضاءل وذاب تحت الكلمات العسلية. هذه طبيعته حتى عندما كان يشتغل معنا في القطاع العام.

نحنح شفيق، رافعاً رأسه عاليا مثل الذي ربح معركة دخلها منذ اللحظة الأولى منكسرا وتفاجأ بأن الأمور تسير على غير ما هي سائرة عليه.

ـ هذا أدنى ما يمكن أن نقوم به. عشقي الدائم، واجبنا الأبدي، نفعل ما نستطيعه للحفاظ على التراث من الضياع الأكيد. على الأقلّ هو هنا ولو داخل مفرغة ولكنه محفوظ من التلف.

كدت أصرخ لولا تمالكي «أيّة حماية توفّر لذاكرة تباع في أكثر الأماكن اتّساخا. هذا تدمير موصوف». بلعت كلماتي كما أفعل في حالات مشابهة حيث الصرخة تصبح ضجيجاً لا معنى له وسط عالم اللعبة فيه مرتّبة سلفا.

عند مغادرتنا المفرغة، تقدّم منّا شخص انغرس كالشجرة اليابسة فجأة في طريقنا. عرفته من عينيه الحارقتين حتى ولو كان متنكرا وراء نظارتين سوداوين. كان أحد البائعين اللذين وشوش شفيق في آذانهم في المخزن قبل أن ينسحبا مع دخولنا مباشرة. واجهنا بسؤال جاف كوجهه:

ـ ماذا كنتما تفعلان بالداخل؟

ـ لاشيء. رأينا ما يهمنا من المعروضات الموجودة بالمخازن لا أكثر ولا أقلّ.

ـ واش تخدموا؟ اقصد... عملكم في الحياة؟

ـ لأجل الإجابة عن هذا السؤال يا سيدي نحتاج حتما إلى معرفة من تكون. هذا يسمى فضولا في اللغة اليومية. في هذا الزمن الذي نعيشه، نحتاج حتما إلى بعض الحذر.

فهم الرجل قصدي مباشرة ولهذا لم يلح كثيراً في أسئلته الثقيلة.

ـ طيب. أظن أنك الرجل الذي يعمل بالوزارة. وهذا المهبول اللي معك شكون؟

ـ دون كيشوت. ربما سمعت بهذا الاسم؟

ـ واش؟ حسبتني مهبولْ؟ دون كيشوت كتاب وكلمات وليس شيئا آخر.

ـ هو أكثر من هذا كله. إنسان طيب يبحث بشكل محموم عن هوية جده الضائعة بين مدن عديدة. يريد أن يشتري المفرغة بكاملها. كل هذه المفرغة بكافة عمّالها. ممحون بكل ما له علاقة بالتراث.

انطفأ الرجل حتى قبل أن أنهي جملتي الأخيرة. دون كيشوت كان عاجزا عن فهم كل ما كان يحدث أمام عينيه. كنت خائفا من ردود فِعله ولكنه استطاع أن يتحكم في غضبه ويظل صامتا.

التفتَ نحوي وهو يحاول أن يكتم رد فعله الساخر.

ـ أنا أشتري كل هذه المزبلة العجيبة! متحف متنكر. يكفي من السخرية.

ـ الرجل كان يختبر جديتنا. فهو لا يتحرك لوحده. بدون هذا الكذب الصغير، لن تصل إلى أي شيء في هذا البلد المستعصي كالوباء. حتى المزبلة تصير من المستحيلات السبعة.

فجأة، كمجنون، غرق في ضحكة عالية لم توقفها إلا محركات

الشاحنات المملوءة بالصناديق الحديدية والمتجهة نحو مصنع الأدوية.

ـ بدأت حركة شاحنات الأدوية.

ـ والصحافة الوطنية، متى تتحرك إذا لم تتحرك في حالة مثل هذه؟ صمتها فيه نوع من التواطؤ. لا يمكن للخوف أن يُسكِت الجميع على شر يراه حتى الأعمى.

ـ ليس من السهل الحكم على وضع مثل الذي نعيشه. كل الذين اقتربوا من موضوع الأدوية قُتلوا. صفقات كبرى تتم هنا، في هذا المكان بالذات. قصة بختي تطن في كل الرؤوس. لا أحد يستطيع أن ينسى ما وقع له. الخوف أعمى جيرانه المواجهين لبيته الذين يقولون أنهم لم يسمعوا شيئا بينما سكان الطوابق العليا يصرّحون أنهم سمعوا صرخات النجدة.

ـ صراحة، الوضعية مخيفة وكأنه لا وجود للدولة.

ـ هذا بدوره مشكل معقد جداً. القتل في ظروف مثل التي نعيشها يرضي أطراف متعددة، التي تريد أن تتخلص من الأصوات المخالفة. الكثير من الأشياء قيلت بعد اغتيال بختي. ذهب البعض إلى درجة الزعم أن مقالاته كانت مدفوعة الثمن من الإرهابيين لتلطيخ سمعة رجال خيرين ونزهاء والمسّ بهيبة الدولة. مع أنه رجل خير رغم اندفاعه الكبير الذي لا يبرره إلا حبه لوطنه. كان يظن حتى يوم موته أنه يستطيع أن أن يستأصل الشر بالكتابة والفضح.

ـ على الدولة أن تتحرك وإلا إذا استمر الوضع على هذا الحال، ستعم الفوضى حتما.

ـ إجابة وزيرنا للاتصال الدائمة كلّما اغتيل صحفي، أصبحت معروفة ومكرورة لدى الجميع: لا نستطيع أن أن نضع شرطيا وراء كلّ صحفي. هي إعلان صريح عن الفشل الذريع. احتفظت بمقالة بختي الأخيرة التي يفضح فيها تلاعبات الأدوية. حفظتها من كثرة

قراءتي لها من أجل فهم ماكينة الموت هذه: «الأدوية؟ مافية منظمة متسربة في كلّ الأجهزة. تتحكم في العصب الأساسي لتوزيع الأدوية، استطعنا أن نتحصّل على قوائم المتعاملين في هذا الحقل الحساس وعلى المتحكمين في خيوط هذه التلاعبات. من البواب البسيط إلى المسؤول الذي يقع فوق كلّ شبهة. الشيء الوحيد المؤكد هو أن القوائم ستُنشر قريبا على أعمدة صحيفتنا وعلى الدولة أن تتحمّل مسؤولياتها القانونية والمدنية كاملة. يومان قبل نشر قائمة المورطين في شبكات الأدوية (ولن تنشر أبدا)، وُجد بختي ميتاً حرقاً في بيته. في اليوم نفسه تمّ تسريب الدعاية التي تقول بأنه بسبب إرباكات نفسية كان يعاني منها، أحرق نفسه تاركا رسالة وراءه يؤكّد فيها مسؤوليته في الانتحار لأنه لم يستطع أن يتحمل وضعية نفسية مثل التي يعيشها والتي لا يستطيع أن يصرّح بتفاصيلها. مبرّرٌ مثل هذا كان عاجزا عن إقناع الناس الذين عرفوا شخصية بختي. بختي لم يكن طفلا يكسو جسده بالنار لأنه هو نفسه كان شعلة. حكيم، يخرج، كتابه في اليد والبصر مرمي باتجاه الأفق اللاّمتناهي. ينزل كلّ صباح من بيته، قاطعا الاثني عشر طابقا التي تكوّن البناية الرمادية التي أحنت ظهره من كثرة الصعود والنزول باحثا عن الكلمات التي يركض وراءها مثل صياد الفراشات، مسحورا بألوانها الجميلة. يعرضها بكلّ فخر. مصرّحا مع ابتسامة صغيرة أنها حصيلته اليومية من الألوان.

كريم لودوك كان قد عاد. لم ننتظر طويلاً. فقد كان في الموعد كما اتفقنا.

غادرنا المكان بدون ندم كبير. القلب منتفخ وغصّة ما تسدّ الحلق.

II

لم يكن من السهل علينا الوصول إلى بقايا بناية حسن رايس. الحرارة القوية لا تطاق. بدأنا نختنق مثل أسماك أُخرجت من الماء. ثقل الرطوبة يسدّ كل الفجوات البحرية التي تهوّي عادة مدينة الجزائر.

اتفقنا أن نمر أولاً على الأميرالية قبل الاندفان في عمق مدينة لا تعطي الانطباع بالطمأنينة، فهي خادعة حتى في اللحظات التي تبدو فيها رائقة. كان المشي وحده في المدينة، بالنسبة لي، نوعا من التحدي الصارخ، أرفعه لمقاومة هذا الموت البطيء والتافه. قطعنا المرسى بدون أن ننتبه للضجيج الذي كان يملأ المكان في مثل هذا الوقت من النهار.

كريم لودوك عندما أنزلنا، عاد بسرعة على أعقابه لاصطياد زبون ضائع.

شرحت لدون كيشوت طبيعة المكان الذي نعبره. نبهته حتى إلى المكان الذي وضع فيه جده لأول مرة أقدامه على أرض هذه المدينة والذي تحول اليوم في مجمله إلى منطقة عسكرية للبحرية، ممنوعة وُضعت تحت حراسة استثنائية منذ أن ذبح الإرهابيون العديد من الحراس في فراش النوم مثل الخرفان بتواطؤ أحد ضباط الصف. الزاوية الوحيدة السياحية المتبقية هي الجهة المفتوحة على البحر.

على طول مرسى الصيادين الصغير، كانت الفلوكات تأتي الواحدة بعد الأخرى لتصطف على الرصيف الصغير، تفرغ حمولتها السمكية قبل أن تعود مرة أخرى إلى الأعماق.

دون كيشوت كان كالعادة مبهورا بسحر المكان والألوان. لم يستطع أن يمنع نفسه من أخذ بعض الصور التذكارية أو الصحفية في غفلة من الحارس الملتفت نحو البحر، يحسب عدد الموجات المتكسرة عند أقدامه. قال بابتسامة ساخرة لم تغادره منذ خروجنا من البيت هذا الصباح:

ـ أرأيت؟ الأمر ليس ممنوعا إلى هذه الدرجة؟

ـ حتى الآن أنت محظوظ. لو رآك، لن يغفر لك مطلقا وفي أكثر الأحوال تفهما سيحجز منك آلة التصوير.

ـ أفهم من هذا الكلام أنه يجب استغلال فرصة التصوير قبل أن يتفطن لنا هذا الحارس العاشق للبحر؟

ـ الأفضل أن تلملم آلتك وتكتفي بما أخذت.

ـ ... ...

ـ تعرف يا دون كيشوت، جدك عندما وصل إلى هذا المكان كان متعبا ولهذا عند النزول، كما يقول بعض الوراقين، أُخْلط بالسراق الذين كانوا يملأون هذا الميناء الصغير وبالمواشي قبل أن يدرك القراصنة مكانته ويطالبون بفدية من أجل إطلاق سراحه حتى أن حسين داي فكر بإرساله إلى القسطنطينية لإقناع الوسطاء بينه وبين أهله بجدية التهديدات. هذه الأهمية الفجائية حسنت من وضعيته الحياتية.

ـ وهل تملك التفاصيل الكافية عن هذا الموضوع؟

ـ قليل جداً. الكثير من التفاصيل اندثرت. ما هو مؤكد هو أن

سرفانتيس أول ما نزل، نزل بهذا المكان لأن كل سفن الرايس حسن، كانت ترسو هنا. هذا الميناء القديم، هو المكان الوحيد الذي حافظ على وجوده التارخي، البقية حطمت ليتم بناء مرآب كبير للسيارات مكانها. عندما بدأت البلدية والولاية في تجديد وجه المدينة، قاموا بطلي الأعمدة الرخامية لقصر الداي الذي نفذ بأعجوبة من عملية التهديم، باللون الأبيض. الجنون عندما يتكاتف مع الجهل واللامعنى. كل المجهودات التي قامت بها جمعية عشاق الجزائر للدفاع عما تبقى من المدينة القديمة باءت بالفشل الذريع. والأفظع من هذا كله هو أن جماعة مجهولة الهوية هددت أعضاء الجمعية بالتصفية الجسدية إذا واصلوا حشر أنوفهم فيما لا يعنيهم. لم يفهموا جيداً مرامي هذه التهديدات. مع الزمن أتضح أنه وراء مشروع المرآب الكبير كان البعض يحرك خيوط المصلحة من بعيد.

- يعني؟

- ببساطة، المكان استراتيجي لأنه كان يُجهز لاستقبال كل السيارات السياحية القادمة من فرنسا أو العائدة إليها وهذا بلغة الأرقام معناه ملايير الدينارات. الأكثر من هذا كله، فالمكان بأكمله اشتُري من طرف شخصية معروفة لها يد طويلة في أجهزة الدولة. ولهذا بقي المشروع تحت غطاء مصلحة العمران الولائية لتسهيل تمريره. نسيت أن أذكر لك تفصيلاً مهماً، رئيس جمعية عشاق الجزائر اغتيل مباشرة بعد فضح قصة تدمير الميناء القديم والتواطؤات الإدارية الولائية المرتبطة بذلك. في وسط العنف والموت، المدينة القديمة تموت ومحبّوها كذلك ليتركوا المجال لكائن هجين بدون ملامح حقيقية. حداثة معطوبة، بدون أي مرتكز. أتذكر بعض الجمل من المنشور الذي وزعته الجمعية: الحداثة مثل الحقل المغناطيسي، نشعر بقوة جاذبيته ولكن يجب أن نحذر لأنه باقترابنا الكبير يمكننا أن نتعرض للاحتراق.

ـ لا أعتقد أن ذلك يسعد تاريخ هذه المدينة ولا جدي لو كتب له أن يراها على هذه الحال. المدينة هي الملامح التي تكتسبها عبر رحلتها التاريخية. خسارة كبيرة لا تعوض، لأن الخمس سنوات التي عاشها سرفانتيس هنا صارت أبداً ملكا للمدينة ومحوها معناه محو جزء من ذاكرتها.

الغضب كان باديا على وجه دون كيشوت. شعرت به مرهقا ومنهارا. لم يكن قادرا على فهم عملية الهدم المنظمة. عندما وصلنا إلى قصر الداي الذي يأوي الولاية، مكان صعب الدخول، شعرت بعينيه تتضاءلان وبتعب ما يعلو ملامحه مثل المريض.

لم يكن ذلك كله مهما لأن الأساسي بالنسبة لنا كان زيارة مغارة سرفانتيس. هذه كلها مناطق عبور ثانوية حتى ولو كان انهيارها صعب التحمل. رغم حالة الاندثار الواضحة، كنت في أعماقي أسمع خطوات سرفانتيس وهي تتهاوى على الأرض بغير اتزان مختلطة بصرخات الأسرى والحيوانات والباعة والصيادين وأوامر رياس البحر، وخفقات الخوف. ههنا على هذه اليابسة وضع أقدامه المرتعشة قبل أن يبحث له عن ملجأ لتحضير عملية هروبه بصحبة أصدقائه وأخيه رودريغو.

تجاوزنا واجهة البحر لنجد أنفسنا بعد مشي متعب أمام بناية اتحاد العمال الضخمة قبل دخولنا إلى حي بلكور الذي كان يعج بالناس. سرنا باتجاه حديقة التجارب النباتية. في زمن قريب، كانت تربة هذا المكان تحضن آلاف النباتات والزهور القادمة من كل الأصقاع. أصبح اليوم خاليا من كل حياة وحزينا. أشجاره ونباتاته ذابلة. شاخ قبل الأوان.

في هذا المحيط المعادي للحياة تجاورت كل الأمراض لتكوّن كيانا قائما بذاته: الرطوبة ونقص الماء واللامعنى.

عبرنا الحديقة بكاملها، بالرغم من التلف الذي تعرضت

وتتعرض له. كان جمالها مايزال قائما. توقف دون كيشوت أمام تمثال كبير لامرأة حُطم حوضها وأُغلق بالإسمنت الأسود بشكل همجي. كانت بيضاء وجسدها مسالم. نظر إليها طويلا قبل أن يتساءل:

ـ لماذا كُسر حوضها وأُغلق بالإسمنت؟

ـ قصة بشعة أخرى للعقلية الرعوية التي لا ترتاح إلا إذا دمرت كل شهوة في المدينة. لولا تدخل وزارة الثقافة لأتت البلدية الإسلامية على الأخضر واليابس بتحطيم كل التماثيل العارية، النسائية خصوصا. رئيس البلدية ونوابه وحاشيته دخلوا الحديقة يومها مصممين على عدم التراجع مهما كان الثمن. وجدوا الحيلة التي بواسطتها يتفادون تدخل الوزارة من جديد. التحطيم وغلق كل المناطق الجنسية للأجساد بالإسمنت ومحو الأعضاء أو ما يوحي بالفتنة. في الأسبوع الذي تلا، اتجه الجميع إلى متحف الفنون ولكنهم اصدموا بقوة مقاومة المديرة التي لم يحسبوا حسابها أبداً. لم يخفها عددهم على الإطلاق، على العكس من الكثير من المسؤولين الثقافيين الذين انصاعوا لأوامر رئيس بلدية إسلامي أضعف من أن يقنع طفلاً صغيراً. منعته بصرامة من تخطي عتبة المتحف. هددها بكل العقوبات وشتمها ملصقا بها كل التهم الأخلاقية والنعوت السلبية الممكنة ولكنه لم يتخط عتبة مدخل المتحف. قالت نوارة وهي تواجهه بصرامة:

ـ شوف يا ولد الناس، أنا ما نعّرفكش. بيننا القانون.

ـ ما كانش قانون فوق قانون الله.

ـ الله مش مهبول حتى يدخل هكذا على ناس آمنين.

ـ والله تتْعلّقي من عينيك في دار الله.

ـ هذا واش تعرفوا. ليست دار الله اللي تتكلم عليها ولكنها دارك.

لم تكن من النوع الذي يتراجع تحت التهديد والتخويف بسهولة. عندما سمعت بقدومهم، جندت كل عمال المتحف للدفاع عن هذه الفضاء التاريخي والثقافي وعن قوت أبنائهم. إغلاق المتحف معناه بالضرورة رميهم في الشوارع. وبهذه الطريقة تم إفشال عملية الاختراق التي حاول البعض ممارستها من الداخل. فجأة عوى رئيس البلدية مثل الكلب المكلوب الذي رمي على رأسه ماء، صارخا بأعلى صوته.

ـ بئس لأمة تحكمها أفخاذ النساء.

ـ اذهب وإلا نطلقْ عليك العمال ياكلوكْ.

وحتى يخبئ هزيمته، نزل مباشرة إلى حديقة التجارب النباتية ساحبا وراءه جماعته المأخوذة بالصرخات المحمومة: الله أكبر. الله أكبر. ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. عليها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله. كانت التماثيل البيضاء التي بقيت واقفة من الحملة الأولى، هي أولى الضحايا، فراحوا يلبسونها التبابين والأقمشة البيضاء ويغطون أحواضها المغلقة بالإسمنت الأسود بالشاش الأبيض حفاظا على أخلاق المدينة. لكن في اليوم الموالي تدخلت مصالح الوزارة ونزعت كل هذا الكرنفال المضحك مهددة برفع قضية ضد البلدية بتهمة إتلاف أملاك عمومية.

ـ مش معقول. هذا جنون مرضي.

ـ ثقافة العدم والهلاك التي يريدون فرضها على المجتمع. هذا التمثال الذي ينتصب أمامك هو من القلة القليلة التي تم إنقاذها من التحطيم قبل أن تتدخل الوزارة.

لم يعلق دون كيشوت على كلامي كعادته.

غادرنا الحديقة في صمت جنائزي ثم بدأنا في تسلق المرتفعات التي تقود إلى مغارة سرفانتيس. مررنا ونحن نتجاوز مخابر مركز باستور ببقايا العين المائية الموريسكية ومقهى

البلاطان اللذان تركت رؤية حالتهما المريضة الكثير من القتامة الداخلية. كانا مثل قبرين معزولين في قفر لولا اللوح التذكاري الصغير الذي يغطيه ويمحو كلماته، ظل التليفريك الذي ينتشر بقتامة ظلاله كلما مر فوق هضبة *الحامة* المؤدية إلى *مقام الشهيد*. قرأنا الكلمات التذكارية المكتوبة بالأسود على مساحة بيضاء والتي بدأت تمّحي بفعل الزمن:

عين يعود تاريخها إلى العهد العثماني.

ربطت بطريق الحامة في المكان المسمى: البلاطان.

هذا المكان صُنف كمَعْلم تاريخي:

يوم 20 فبراير 1911.

تم ترميمه من طرف المندوبية التنفيذية لبلدية بلوزداد (بلكور سابقا) يوم: أول نوفمبر 1994، تحت رعاية الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم التاريخية.

تجهيز عيون الماء في الطريق من طرف الميسورين لإرواء ظمأ المسافرين، عادة إسلامية قديمة. مدينة الجزائر لم تشذ عن هذا السخاء. فقد كانت بعيونها الكثيرة المجهزة بالزليج الموريسكي مثل الحمامات الصغيرة وقصعاتها الرخامية وهندستها الرشيقة، توفر للعابرين الراحة والماء والظل خصوصا في أوقات القيظ التي كثيراً ما تجتاح المدينة.

ـ كان هنا كذلك مقهى. أنا متأكد أن جدك ارتوى منه على الأقل مرة واحدة قبل أن يندفن في مغارته.

مرافقي كان مأخوذاً بهذا المحيط الذي يقول آلامه بالصمت والسكون الخادع. تأمل طويلا بقايا حائط متهالك دمرته الحرب التي لا اسم لها.

ـ هذه فيلّا سيساني.

ـ لم أفهم؟

ـ هي واحدة من أملاك سيساني الكبرى. تأمل جيدا، هذا مثلا الطابق الأرضي الذي كان في القديم يشكل مدخلا يقود إلى الساحة الشرفية التي لا يلتقي فيها إلا أعيان المدينة التي تؤدي هي بدورها إلى عمق الدار المدهش. كثافة الأوراق التي تظلل الحديقة الصغيرة التي تنهض في وسطها نافورة يتزربع ماؤها عاليا مثل الدرر كلما كان الضغط قويا. تحت الظليلة الخشبية يظهر الصالون الموريسكي المكسو بالحرير والذهب. بعيدا عن هذا كله وعبر النباتات الكثيفة، يتسرسب الخط الأفقي اللازوردي مثل جنة سائلة: البحر الأبيض المتوسط بنعومته وهدوئه.

ـ من ضمن كل ما ذكرته لا أرى إلا البحر فقط.

ـ حنّا المسكينة هي الوحيدة التي تعتقد بوجود معالم اندثرت منذ زمن. هي لا تعرف أن كل ما تتحدث عنه بشوق لم يعد موجودا على الإطلاق. كلما رأيت الصور التي أنجزها أوتث (Otith) وكوردوان (Courdouan) عن الجزائر القديمة لا ألبث أن أتفهم قناعات حنّا التي تحقد بمرارة على الذين أهملوا المدينة القديمة ونهبوا ملامحها.

ـ والفيلاّ التي لم تتوقف حنّا عن الحديث عنها؟

ـ حنّا؟ الله يكون في عونها. هل ترى تلك البناية العالية؟ تسمى الجوهرة: كتلة لا معنى لها من البيطون. فيلاّ حنا توجد مدفونة تحتها. العقلية الرعوية لا تلد إلا الخراب والجوع والعطش. الله غالب يا صاحبي. هذا ما تبقى من عقارات الرايس حسن: كتلة من الحجارة وبعض الخوف وكثير من الأبجديات المغلقة.

دون كيشوت كان يملك طاقة تحمّل هذه الخسارات. حضّرته بحيث لا يفاجئه أي منظر لأن ما كان ينتظره أفدح من كل ما رأيناه.

عندما بدأت أكوام الزبالة تطل علينا من هنا وهناك، على هضبة بلكور، لم يستطع دون كيشوت أن يكتم قهقهته:

ـ غير معقول؟ مزبلة أخرى؟

لم أسأله مطلقا عن ضحكته الانفجارية فقد كانت مشحونة بالإجابات. كنت على يقين أنه تذكر قصة وزير الثقافة وهو يتساءل عن جدوى زيارة وزير الثقافة الإسباني لمزبلة، التي حكيتها له ونحن في الطريق لتحضيره لتحمل هذا الجو الكافكاوي.

مزبلة بلكور المبعثرة هنا وهناك لم تكن أقل حضوراً من غيرها. كانت تستر جنباتها غابة صغيرة مطلة على زرقة البحر، تعمق الإحساس الرومنتيكي الخادع بالراحة والحب.

ومثل محرك معطل، توقف دون كيسوت عن الضحك.

ـ ها قد وصلنا أخيرا. الحقيقة المرة التي علينا تحملها ومواجهتها.

ـ وأين هي المغارة؟ إلهي، نفائس ترمى هكذا في بحر الإهمال والنسيان.

ـ قل هذا لمن له آذان وعيون ترى. هؤلاء الناس ماتوا. أتساءل إذا كانت الدولة، هذا على افتراض وجودها، واعية بخطر الإهمال. على الأمد القريب والمتوسط، سيفاجأون بإنسان يخرج من صلب هذه المدينة يسعد لحرقها وتدميرها لأنها بالنسبة له ليست أكثر من حجارة متراصة مفرغة من كل ذاكرة. مؤخرا أحد المسؤولين الكبار في هذا البلد لم يتوان عن إهداء لوحة نادرة لدولاكروا من أملاك المتحف الوطني للفنون، إلى ضيفه الأجنبي الذي وقف باهتا أمام الهدية ثم قال له: تأكد يا سيدي أن هديتكم الغالية والتي لا تقدر بثمن ستجد مكانها في المتحف الوطني لبلدي.

ـ غباء. غباء.

لم يستطع دون كيشوت أن يكتم انفعاله.

كنا قد بدأنا نصعد الهضبة الخضراء الملطخة بالزبالة. كانت

إلى وقت قريب ملقى لعشاق سرفانتيس. الانكسارات الجبلية كانت صعبة ومع ذلك لم نتوقف. فالمغارة لم تكن بعيدة عنا.

عندما وصلنا، وقف دون كيشوت مشدوها ثم ما لبث أن أخرج من جيبه صورة قديمة لمغارة سرفانتيس عندما تم تدشينها للمرة الأولى من طرف الجالية الإسبانية المقيمة بالجزائر وحولت إلى مكان سياحي تخليداً للكاتب. بدأ يقارن بينها وبين ما كان يراه أمامه.

بعد لحظات ترك يده تنزل بارتخاء ونسي الصورة تماما. شعرت بثقل ما كان يملأه من الداخل. كانت قصة سرفانتيس تخترقه لحظة لحظة مثل الشعلة.

في هذا المكان اختبأ سرفانتيس تحضيرا لهروبه المحتمل. بعد أن حطم الرايس أرناؤوط مامي سفينته في 6 سبتمبر 1575، بيع كأسير إلى القرصان دالي مامي الملقب بالأعرج. منذ أن وطئ هذه الأرض لم يتوقف عن التفكير في الهرب. محاولته الأولى مع بعض رفقائه باتجاه وهران، باءت بالفشل. وعلى الرغم من المحاولات العائلية لإطلاق سراحه لم يتحصلوا إلا على تحرير أخيه رودريغو الذي وعده قبل المغادرة بإرسال فرقاطة حربية لإخراجه من مخبئه في أقرب الآجال. عندما علم سرفانتيس باقتراب وصول الفرقاطة الموعودة، حضّر في شهر فبراير 1577 مع ثلاثة عشر أسيراً، مخططاً للهرب. كانوا مخبئين عند القايد حسن عدة أيام في مغارة حفرها رجل يدعى خوان من أصل نفري (De Navarre) وأحد أسرى القايد حسن. في النهار كان هو يحرس جنبات المكان بينما كُلّف أحد الخدم المدعو درور، بتوفير الغذاء للأسرى. لكن كل شيء ذهب مع الريح فجأة، إذ سقطت الفرقاطة المنتظرة بين أيدي القراصنة وأسر بحارتها وقبطانها وتم إخراج سرفانتيس وأصدقائه من مخبئهم كالفئران ليقادوا هذه المرة إلى الأشغال الشاقة في سجن حسين داي - آغا ولم يطلق سراحه في النهاية إلا في سنة 1580 مقابل فدية قدرها خمس مئة إيكو ذهبية،إسبانية.

ـ منذ ذلك التاريخ سميت هذه المغارة بمغارة سرفانتيس.

كان دون كيشوت يصغي إلي بانتباه كبير بدون أن يحرك عينيه عن حالة الإهمال المأساوية التي وصلت إليها المغارة التي أكلتها الأيادي البشرية وقسوة الرطوبة والنسيان. لم يبق الشيء الكثير الذي يستحق أن يُكتشف. الحجارة المنحوتة وأعمدة الاتكاء الصخرية كلها تآكلت مثل جذوع النخيل المخرومة من الداخل. الشجيرات القزمة الملتصقة بحيطان المغارة، تتشبث بيأس بجذورها على الأحجار التي تعرت بفعل هواء البحر الليلي والرياح الشتوية. الساحة الصغيرة التي كان السياح يتقاسمون فيها بعض أشواقهم وسحر اكتشافاتهم وقصص سرفانتيس، أصبحت خالية من كل روح. لم يبق بها شيء واقف إلا المسلة المتآكلة التي اخترقتها الكتابات التي خطها *الفيس F.I.S (الجبهة الإسلامية للإنقاذ)، علامة رمزية على عبور القتلة للمكان. بجانب المسلّة، متكأ تمثال سرفانتيس النصفي الذي سرق وبيع، يعطي الانطباع بتمثال بدون رأس. عند مدخل المغارة، لوحتان خطت عليهما بعض الكتابات التذكارية، الأولى، الرخامية، حطمت في وسطها ولم تبق إلّا الثانية، الفولاذية، بصدئها والمقاومة لأزمنة الموت المتعاقبة.*

اقترب دون كيشوت أكثر وبدأ يفك الأبجدية المتداخلة بالتشوّهات التي خلفتها كتابات أطفال الحي، من أنصار *الفيس F.I.S*، بالطلاء الأبيض. برقق عينيه أكثر وبدأ يقرأ بصوت عال:

CUEVA REFUGE
ANO 1577 QUE FUE D'EL AUTOR D'EL QUIJOTE
RECUERDO QUE A SU MEMORIA DEDICARON
EL AMIRAUTE JEFES Y OFICIALIES
DE UNE ESCUADRA ESPANOLA
A SU PASO POR ARGEL
SIENDO CONSUL GENERAL
EL MARQUES DE GONZALES ANO 1887

ركز نظره من جديد على الصورة التي كانت ما تزال في يده وبدأ يقارن. الاندهاش كان يُقرأ في عينيه بسهولة. قلت له للتخفيف من حيرته:

ـ لا علاقة لما تراه بما في الصورة. كل المعالم الأساسية اندثرت. الإهمال دمر كل شيء. بعض اللوحات الرخامية خُربت بقصد النهب. جزء مما تراه على الصورة موجود تحت الزبالة التي راكمها السكارى الذين يقضون لياليهم في هذا المكان. لا توجد مقارنة على الإطلاق.

وضع الصورة في جيبه ثم اختلط بالأطفال الذين بدأوا يتحلقون حولنا بفعل الفضول ويراقبون حركاتنا بعيونهم الطفولية الضائعة. اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة، أولاها عدم الظهور بمظهر الصحفي الذي يتقصى الحقائق ولا سياح أجانب الذي يمكن أن يتحول إلى مصدر للشر. هذا المكان المفرغ من كل حياة لا يورث الطمأنينة أبدا.

كان الأطفال مايزالون مشدوهين في حركاتنا المتكررة والضائعة. لم يكونوا لا مزعجين ولا مريحين.

اقترب دون كيشوت من أحدهم، أكبرهم سنا وأكثرهم اندهاشا. دخل معه في حوار اضطررت أن أتحول معه إلى مترجم.

ـ قل لي، هل يعجبك المكان؟

ـ شويه. تحب تشري علي ورود الرمال؟

ـ طبعا. أريني ماذا عندك.

قدم له الطفل كيسا أسود سرعان ما فتحه دون كيشوت. أعجبه شكل الوردات الثلاثة. دفع ثمنها آليا ثم التفت من جديد إليه بسؤاله الأول. الطفل ظل مشدوها في حركات دون كيشوت الآلية.

ـ ماذا تفعل في هذا المكان أنت وأصدقاؤك؟

أجاب الطفل بدون أدنى تردد.

- نأتي إلى سرفانتيس لنلعب الغمّايضة. لا توجد تسلية أخرى في بلكور. أو نبيع أزهار الرمال التي يأتي بها أخي كلما عاد من عمله من الجنوب. لكنها تباع بصعوبة كبيرة. لقد انقرض السياح من البلد.

- لماذا سيرفانتس؟ هل يعني لك الاسم شيئا؟

كتم الطفل ضحكته الساخرة بصعوبة وكأنه كان يريد أن يخفي غباء السائل

- سرفانتيس. كل الناس يعرفونه. حي فقير خال من الحياة، مغارة... مزبلة صغيرة... زوبيا متواضعة... توفر لنا فرصة للعب، عندما تتضخم بها النفايات ندخل الأيدي والأرجل ونتقاتل من أجل الكنوز المختبئة. السكارى والضائعون الذين يبيتون هناك يتركون وراءهم الأكل وبعض الدراهم.

- فهمت. ولكن أنا أتحدث عن الاسم. اسم سيرفانتيس؟ ألا يعني لك شيئا؟

- واش تحب يعني لي؟ لا شيء سوى أنه اسم لحينا وللغابة... يقولون كذلك أنه إسم لكافر جاء من بعيد ليسرق كنوز هذه البلاد وليمسّح الناس، هذا هو على ما أعتقد.

- لا. أنا أتكلم عن سر... فان.. تيس.

- اسم واحد رومي. أنا أتساءل وعلاش باقي حتى الآن؟ كلّ أسماء الروامة عُوّضت بأسماء الشهداء. حتى اسم حي بلكور صار بلوزداد. بكلّ تأكيد سيغيرونه.

بدا لدون كيشوت أنه يطلب المستحيل ولكن ألحّ أكثر بدون أن يصل إلى ما كان يريده.

- سيرفانتيس كاتب مثلا؟

تبادل الأطفال نظرات متواطئة. قهقهوا ثمّ تفرّقوا مجموعات مجموعات مع ما حملت أيديهم من كنوز المغارة. تأملهم دون كيشوت وهم ينطفئون داخل الغابة.

اتجهت نحو فيلّا ميدسيس التي كنت أريد لدون كيشوت أن يكتشفها حتى ينسى خيبته. شرحت له بأن الدار التي تختبئ وراء الغابة الصغيرة والتي برمجنا زيارتها، وراءها قصة طويلة. مالكها الأول المعروف هو محمد آغا. بعده باعها ابنه علي لابن محمد الصباغ. ثم عصمان رئيس الجناينية (البستانيون) لتنتهي بعد ذلك بين يدي أحد الإنكشاريين. في سنة 1790 اشتراها حاج محمد خوجا مدير مخازن المرفأ. لتكتسب بعدها اسم فيلّا عبد اللّطيف عندما اشترتها تاصفر زوجة أحد الأتراك الأغنياء من عائلة عبد اللطيف قبل أن تعلن ملكا للحبوس، إجراء يحرّم بموجبه تداول بيعها. وبعد احتلال الجزائر حُوّلت إلى مستشفى للجنود الفرنسيين. وفي 1846 كُريت للوكالة المزرعية لحديقة التجارب النباتية حتى سنة 1905 التي تصادف تمليكها للحاكم العام. رُممت وأصبحت دارا للفنانين التي شهدت مرور رسامين كبار من أمثال: دولاكروا، فرومونتان، روش، غروس وديني، وغيرهم من الذين عكسوا غوايات زرقة البحر والسماء في هذه المدينة وشموخ جبالها. اختار لها الحاكم العام جونار اسم *نزل الفنون الجميلة*. هذه الفيلّا هي البناية المجاورة لمغارة سيرفانتيس. حتى وهي مخربة بقيت واقفة متحدية الزمن وأيدي الموت. بقايا معالمها المكونة من الحجارة المنحوتة والقرميد الأخضر والحيطان البيضاء تتداعى بنعومة نحو فتحة البحر.

دون كيشوت كان يستمع بانتباه كبير. في ذهنه كانت تتزاحم

الصور والأسئلة. بعد أن أخذ صورا عديدة للفيلّا أدخل آلة التصوير في حقيبته وسلّمها لي مكتفيا بحمل الكيس الذي كانت به ورود الرمال حتى يسهل عليه تسجيل بعض الملاحظات في كناشه الذي لم يغادره طوال الرحلة.

ـ من فضلك خذ، فالحصاد كبير وأحتاج إلى تحرير كلّي ليدي.

ـ قصص المدن الكبيرة هكذا، ومساراتها التراجيدية لا يمكن فهمها إلا بعملية الحفر تحت الخيبة والخسارات.

ـ أظن أني في هذا المكان، أحسست بشكل أعمق بدون كيشوت. فالمغارة... حتى وهي في هذه الحالة من التلف، عرّفتني بآلام الأسر وعذابات العزلة والرغبة المحمومة في الهرب. بدأت أفهم الآن لماذا كتب بعد أكثر من عشرين سنة دون كيشوت عندما أطلق سراحه.

تأمل البحر والسماء طويلا. فتح عينيه وأذنيه مثل طفل صغير يكتشف للمرة الأولى أسرار الحياة. كان يصغي وسط هذا القلق وهذه الخيبة إلى تفاصيل الصمت الأزرق والأخضر وصوت جدّه الذي اختلط بصخب الأمواج التي كانت تتكسر على حواجز السفن الحديدية الصدئة والحجارة السوداء وبقايا حصن البنيون (Penon).

على الرغم من الحرارة التي تبدأ عادة منذ الصباح، كان نسيم خفيف يرطب الجوّ قليلا.

بدأ المساء يكسو المكان بغمامة رمادية.

أخذنا طريقا مختصرا يقود مباشرة إلى مركز باستور تحت ظلال الكتلة الإسمنتية الضخمة والباردة لمقام الشهيد التي تواجه البحر وجزءا كبيرا من المدينة الساجدة عند قدميه.

حتى البنايتان اللتان تحملان اسم الجوهرة تبدوان صغيرتين أمام هيبته الرمزية.

بدأنا ننحدر شيئا فشيئا. ظل دون كيشوت صامتا. ومن حين لآخر يسجل ملاحظاته الصغيرة في كناشه. تفاصيل بكاملها كان يحولها إلى مجرد رموز وحده كان قادرا على تأويلها وفهمها.

انتبهنا فجأة أن الوقت صار متأخرا. الطريق المختصر الذي سلكناه بدأ يسودّ من جرّاء الظلال التي كانت تملأ المكان. لقد أدركتنا الظلمة. حساباتي الزمنية لم تكن ذكية. مع هذا الوضع الخطير كان يجب الاحتياط أكثر.

ضوء السيارة التي كانت وراءنا كان يساعدنا على الإحساس ببعض الطمأنينة في هذا المكان الخالي، لكن حالة الخوف الدفينة لم أستطع التخلص منها في وقت لم يبدُ فيه على دون كيشوت المنهمك في البحث عن صفحاته وكلماته أي اضطراب أو قلق. كان يسجل تفاصيله الصغيرة، مستغلاً ضوء السيارة التي كانت تقترب منا أكثر فأكثر. عندما أصبحت بمحاذاتنا، فتحنا لها الطريق. توقفت بالقرب منا غالقة في الوقت نفسه الطريق أمامنا. كان على متنها أربعة أفراد. عرفت أحدهم عندما همّ بفتح زجاج السيارة. أحد معاوني شفيق في مفرغة وادي السمار. كان مايزال يغطي عينيه بنظارتين سوداوين رغم بدء الظلمة. فجأة تذكرت أني رأيت ظله الذي ظل يتبعنا طوال تنقلاتنا داخل المدينة حتى المغارة حتى خلت نفسي أني رأيته في الأميرالية ومقهى البلاطان.

وجوه الرجال الأربعة كانت باردة كقطع معدنية. رجل المفرغة كان هو أوّل من تحدث بدون أن يكلف نفسه عناء النزول. طلب منا أوراقنا. قدّمناها له بدون أسئلة. أرجع لي أوراقي بينما احتفظ بجواز سفر دون كيشوت. وبعد أن ورّقه صفحة صفحة تحت ضوء السيارة الدّاخلي سأله:

- متى دخلت إلى الجزائر يا سيّد فاسكيس دي سيرفانتيس دالميريا؟

ـ البارحة فقط يا سيدي.

ـ لا توجد أية إشارة لدخولكم الجزائر.

ـ لم أفهم قصدكم يا سيدي؟

ـ هل على وجهي ملامح إنسان يتمسخر؟ هيّا اركب معنا نوضّح أمرك في الكوميسارية.

تدخلت لإجلاء الغموض، لكن صاحب النظارتين السوداوين قطع كلامي في منتصفه.

ـ ولكن يا سيدي دون كيشوت...

ـ أنت من الأفضل لك ألاّ تتدخل.

رفرفت عينا دون كيشوت بنوع من العجز. حاولت أن أجد تفسيرا لوضعيته لكن عبثاً.

ـ ولكن إلى أين تذهبون به؟

ـ المعلم يريد رؤيته.

ـ شكون هذا المعلّم؟

بشكل استفزازي أجاب الرجل ذو النظارتين السوداوين:

ـ هذا الشخص في وضعية غير قانونية وعليه أن يبرر وضعيته أمام السلطة المختصة.

ـ ولكنكم تبالغون يا سيدي. أنتم تعرفوننا. لقد التقينا في المفرغة. لا يمكن أن تتصرّفوا بهذا الشكل في دولة من المفترض أن تكون دولة القانون.

ـ هل أنت متأكد أنك تعرفني؟

ـ طبعا. وجهكم لا يمرّ دون أن يثير الانتباه.

ـ يبدو أن لسانك طويل.

- لم أقل ما يثير غضبكم. رأيتكم وأعرفكم. هذا كل ما في الأمر. رأيتكم في مخازن المفرغة. كنتما إثنان في وادي السمّار.

- لو لم تكن موظّفاً بوزارة الثقافة لكنت استعملت معك لغة أخرى. أرجوك إذن أن لا تزعجنا وأنصحك أن لا تلعب بالنار. لاتعطّل عملنا من فضلك.

- هل يمكنني أن أحصل على رقم البطاقة le matricule من فضلكم.

لم يكن باستطاعته أن يرفض لأنه كان يظن أني على قدر من الأهمية. وأملك القدرة على طرح المشاكل. بانفعال، أراني بطاقته الوظيفية للحظة كانت كافية للتأكد من رقمه ثم أعادها إلى جيبه وهو يطلب من دون كيشوت أن يركب معهم.

ركب بدون أية مقاومة ولكن بمرارة في الحلق.

أراد رفيقي أن يسلمني الكيس الصغير الذي يحتوي على وردات الرمال الثلاثة التي اشتراها من الأطفال في المغارة ولكن رجل المفرغة تدخل بشكل حاسم.

- ماذا عندك في الكيس؟

- ثلاث زهرات رملية.

- احتفظ بها.

لم يناقش دون كيشوت أمر الرجل. كان مستاء ولم يفهم الشيء الكثير. لم أقبل بهذه الوضعية العدمية المفروضة. لكن رد فعلي كان فارغا لأنه لم يغير شيئا في الوضع العام لدون كيشوت.

- سأتبعك يا دون كيشوت. مجرّد سوء تفاهم. سأعمل المستحيل لإطلاق سراحك.

قلتها هكذا، لأنه كان عليّ أن أفعل أيّ شيء. لم أكن على يقين، والظروف هذه، أن تكون المسألة مجرّد سوء تفاهم. لكن من يدري؟

انسحبت سيارة الغولف السوداء بين الأشجار باتجاه معهد باستور ثم غابت نهائيا في شارع العناصر الكبير المؤدي حتما إلى الطريق السريع لتتوجّه بعدها إلى مقر الأمن المركزي لمدينة الجزائر.

كنت حائرا. لا يعقل أن ينتهي يوم غني، على الأقل في محتوياته، بهذه الطريقة. حاولت أن أتمالك نفسي. تلفنت لصديق شرطي في الأمن المركزي كان مايزال في عمله. أعطيته كلّ التفاصيل الخاصة بالرجل الذي اختطفَ دون كيشوت. استعملت كلمة اختطاف متعمّداً. طلب مني أن أمرّ عليه بسرعة بدون أن ينسى أن يذكّرني.

ـ أنت تعرف جيداً ظروف العمل القاسية. الزملاء لم يقوموا إلّا بواجبهم الذي يحتم عليهم حماية البلد من كلّ المفاجآت.

ـ أعرف هذا جيداً وأتفهمه. ولكني أشعر أن هناك سوء تفاهم يمكن أن يحل بسهولة. فعل مثل هذا قد يشوّه صورة وطننا في عين الآخرين. لا تنس أنه صحفي ويكتب في أكبر جريدة إسبانية. صورتنا الآن ليست مشرقة. فهذا الشخص لا علاقة له بمشاكلنا، فهو هنا في إطار عمل ثقافي.

ـ تعال ونرى ماذا نستطيع أن نفعل من أجله. هؤلاء الأجانب أتعبونا بحضورهم في ظروف سيئة مثل هذه وعندما يُغتالون نتحمل نحن التبعة وأننا لم نقم بواجب الحراسة تجاههم. مجنون من يمشي الآن في بلكور. فهو يقدم نفسه هدية رخيصة للإرهاب. مع أنك لست غريبا عن البلاد وتعرف ظروفنا القاسية. يبدو أن هناك بالفعل نقصاً لدى المثقفين في تقدير درجة الخطر المحدق بهم.

لم أسعد لسماع دروسه لكنني مع ذلك تظاهرت بالاقتناع لأن أيّ تدخّل قد يعقّد وضعية دون كيشوت المعقدة أصلا.

ركبت في أول سيارة تاكسي صادفتها واتجهت نحو مقرّ الأمن المركزي للجزائر الوسطى. لم أتمالك غضبي. كنت في داخلي أغلي مثل القدر.

- هذا ليس عملا مسؤولا، هذا زبل وبلادة لا معنى لها.

سائق التاكسي التفت نحوي بعينين مدوّرتين ثم واصل توغّله، بدون كلام، في أعماق المدينة التي لم تكن مطلقاً تشبه المدينة.

الفصل الثالث

ناس من تبن

قصة حسيسن وهو يكتشف جنساً بشرياً من نوع جديد، ناس من خيش وتبن، يشعلون النار ويخافون من حرائقها، وضياعه الكبير داخل دهاليز الخوف والموت.

I

التعب كان قد أرهقني. بدأ الحريق الداخلي ينشر حموضته المؤذية في كامل الجسد الذي أصبح رخوا وثقيلا.

لقد ركضت طويلا في الفراغ. سائق السيارة نفسه لم يكن طيبا معي. لم يجد أمامه أفضل من تركي بعيدا عن محافظة الشرطة. عندما ألححت عليه أن يتقدّم قليلا على الأقلّ لأن المسافة الفاصلة بيني وبين المحافظة كانت ما تزال بعيدة.

- يا خو(يا أخ) راكْ تْشوفْ. ما زالت بعيدة. قرّبني شويّه على الأقلّ!

ردّ بدون تفكير ولا تردد:.

- حسبتني مهبولْ؟ أنا إنسان صاحب عائلة ولست مستعداً للانتحار المبكّر. لو كان يشوفوني توقفت عند الكوميسارية، سيذبحونني. سيعتبرونني خائنا وأحد أتباع الدولة الكفار.

- من هم هؤلاء الناس؟ الخونة؟ الكفّار؟ مع من وضدّ من أنت؟

- تتمهبل عليّ وإلاّ كفاش؟ ترضع أصبعك. أنت راك عارف قصدي مليح. أعتقد أنك من ساكني هذه الأرض ولم تأت من المرّيخ.

- ولكنّ التقدم بالسيارة قليلا لا يكلّفك كثيراً.

- ضع نفسك في مكاني. فكّر في الأولاد؟ خطوة واحدة قد تكلفني حياتي.

كان مصمّما على عدم التنازل. اعتبرني مجرّد أحد مهابيل المدينة وأني اعتبرته رجلا بدون عقل عندما طلبت منه التقدّم بعض الشيء ربحا لقليل الوقت.

أعطيته دراهم الرحلة وتركته بدون أن ألتفت ورائي. يكون حتما قد انزعج لأني أعطيته مثلما هو مسجّل على العدّاد بالملّيم وبدون زيادة. المسافة التي كانت تفصلني عنه اتّسعت. شعرت في عينيه بشيء من الخديعة والقبح. في الحقيقة منذ اللحظة الأولى، عندما ركبت معه وأنا أشعر بعدم الارتياح. أحسست بنوع من التقزّز منه ولم أكلمه طوال الرحلة. كان يريد أن يعرف كلّ التفاصيل التي دفعت بي إلى النرفزة. وعندما تحدثت عن الكوميسارية لم أسمع من فمه إلّا كلمة الطاغوت التي ظلّ يرددها بدون ملل كلما تحدثت عن قصة دون كيشوت وسوء التفاهم الحاصل. نظر إليّ بنوع من الحقد والكراهية. أسكت المسجل وعوّض صوت فيروز بقراءات عبد الباسط عبد الصمد. كان يريد أن يتخلّص من حضوري المزعج. كنت شأنا ثقيلا بالنسبة له، حملا لا يُطاق.

عندما التفتُ نحوه للمرة الأخيرة، كان قد انطفأ داخل شارع من الشوارع.

عند مدخل محافظة أمن العاصمة، لم يسألني أحد. كلّ شيء مرّ بشكل طبيعي. اسمي كان قد سلّم لحرّاس المدخل قبل وصولي.

وجدته في مكانه المعتاد وراء مكتب جميل من خشب الأكَجُو، يكاد لا يظهر إلّا رأسه. دعاني للجلوس بأدب ثمّ سألني بشكل مباشر.

- الذي أدهشني هو هذه السذاجة الكبيرة التي يتصف بها صديقك بذهابه مع أشخاص لا يعرفهم. بلدنا بلد مخاطر. لم يعد الأمر سرّاً ولهذا فالإنسان مضطر لأخذ حدّ أدنى من الاحتياطات ليحافظ على حياته.

ـ وهل كان بإمكانه أن يفعل غير ما فعل. أعتقد أن بدائله كانت منعدمة.

ـ ولكن لا نمشي مع أوّل إنسان يرغمنا نحو مغامرة. من حظّه أنه وقع بين أيدي الشرطة وليس الإرهابيين، فمنطقة بلكور تعجّ بهم، كان عليه أن يأخذ حداً أدنى من الحذر.

ـ أعرف أن الحواجز المزيفة كثيرة هناك. وأتساءل ماذا كنتُ سأفعل لو وجدتُ نفسي في وضعه.

ـ على كلّ بحسب ما وصلني، صديقك ارتكب مخالفة قانونية. أوراقه لم تكن مضبوطة، وهو لم يظلم إلّا نفسه من هذه الناحية. لم تكن في جوازه أية إشارة توحي بأنه دخل إلى البلد بشكل قانوني.

ـ لم أفهم؟ أنا متأكّد بأنه دخل إلى البلد بشكل قانوني.

ـ عليه أن يبرهن على ذلك.

ـ أنا متأكّد أن هناك خطأ ما ارتكب. دون كيشوت فنان، الحياة بالنسبة له لا تساوي جناح بعوضة ولكن ليس إلى درجة اختراق قوانين بلد هو ضيفه.

ـ تهاون مربك. المشكل أنه صحفي، ليس أي شخص بسيط آخر.

تساءلت في أعماقي إذا لم أكن قد أخطأت بمجيئي إلى هذا المكان. بدل أن يساعدني، يجد متعة في تسويد وضعية تافهة. فطريقته الآمرة والمفخّمة في الكلام لم تطمئنّي على الإطلاق. سكت قليلا. تناول الهاتف وكلّم شخصا أجهل هويته. تكلما كثيراً عن دون كيشوت وعن خليط من المعلومات التي لم أستطع فكّها. لم أفهم من المكالمة إلّا بعض العناصر التي لم تكن كافية لفهم عام.

نعم.. نعم.. حاول أن تفعل شيئا. غير معقول؟.. المسألة خطيرة إلى هذه الدرجة؟ مأزق قبيح.. أعرف.. يجب على الإنسان أن يكون متفطنا.. التهاون والتراخي فَتَح الأبواب لكلّ الانهيارات.. حتى

الاستعمار.. أعرف جيّداً.. إلهي؟؟ جاسوس.. هاه..أعرفها.. رائعة.. سأفعل المستحيل.. لا؟ أعوذ باللّه كيف أنساك؟ مستحيل..

تحدّثنا طويلا عن أشياء كثيرة تهمّ وضعية البلد، عن حضوري، الأماكن، ما يجب القيام به، وما يجب تركه وأشياء أخرى مرمزة قصداً والتي لم تكن تهمّني.

التفتَ نحوي واضعا الهاتف في مكانه بهدوء.

ـ كما سمعت، يبدو أن وضعية صديقك أكثر تعقيدا. فهو متّهم بالجوسسة.

ـ وحقّ ربّي هذا هبال؟ فالرجل أبسط من حبة رمل أو قطرة ماء، حشيشة طالبة معيشة لا أكثر ولا أقلّ.

ـ أنا أصدقك. ولكن يجب إيجاد الكلمات لإقناع الآخرين. بالنسبة لشخص يقطع الحدود بدون أن يسجّل اسمه عند الأمن، مسألة حساسة، إضافة إلى كونه استفاد من تواطؤات كثيرة في الميناء.

ـ واش من تواطؤات؟ قلت لك إنّه لا يعرف أحدا هنا. دخل مع أصدقاء بحّارة ساعدوه وسهّلوا مهمّته. كلّ حلمه كان يتمثّل في معرفة المكان الذي تمّ فيه اعتقال جدّه ليس أكثر.

ـ أعتقد أنّ كلّ بحارة سفينة السكّر، في الحبس. لو فقط كانت معه بطاقته الصحفية، لكانت مساعدته أسهل. كان بإمكانه أن يثبت للأمن أنه لا علاقة له بالمجموعة المتهمة.

ـ بإمكاني أن أحضرها، فهي في حقيبته.

ـ الأفضل أن تأتيني بها وبدون أي تأخّر.

ـ هل سيطلق سراحه؟

ـ اليوم. أشكّ في ذلك. ولكن في أقرب فرصة إن شاء الله. عد غداً. على مستواي، هذا كلّ ما أستطيع فعله من أجل صديقك.

ـ هل يمكنني أن آتيك ببطاقته الآن إذا كنتَ ما تزال هنا؟

ـ الوقت متأخر، ولكن بسرعة، سأنتظرك.

تلفنت من عنده لكريم لودوك ثم خرجت بعد أن شكرته.

في الخارج، كان الليل قد بدأ يُسوّدُ الشوارع ووجه المدينة يتهاوى داخل الظلمة. انتظرت كريم بقلق كبير. نسيت الخوف تماماً أمام هذه الحالة من اللاجدوى. الشيء الوحيد الذي ظل يطنّ في رأسي هو الذهاب إلى البيت والعودة بأقصى سرعة ممكنة.

كانت هذه أوّل ليلة يقضيها دون كيشوت في الأسر.

II

انطلقت سيارة كريم لودوك مثل السهم مخلفة وراءها ضجيجا كبيرا وبعض الأدخنة الرمادية التي لا تطاق. ماسور طرد الأدخنة tuyau d'échappement كان مخرّما وصدئا. كريم عادة لايتوقّف عن التشكّي لانعدام قطع الغيار وعندما توجد فسعرها يتجاوز إلى حدّ كبير إمكانات المواطن البسيط مثله. هذه المرّة لم يقل شيئا. خلال كلّ الرحلة الفاصلة ما بين حي باب الزّوار ووسط المدينة، ظلّ نظره مرشوقاً على المرآة العاكسة وعلى السيارات التي كانت تتجاوزه أو التي كان يتجاوزها.

مساءات هذه المدينة مخيفة.

أوّل شيء قمت به وأنا أدخل إلى البيت هو البحث بدون تضييع للوقت، البحث داخل فوضى دون كيشوت عن بطاقته الصحفية. نسيت حتى تقبيل رأس حنّا كما هي العادة. كانت تحتج من داخل مكتبي حيث تقيم صلاتها عادة أمام لوحة سالفادور دالي التي يعرض فيها صاحبها، غالا Gala عارية الجسد، أمام بحر غاضب وشمس صباحية خجولة. حنا تحبّ كثيراً هذه اللوحة. بالرّغم من أنها لم ترها في حياتها، لأن دالي كان من ذويها الأندلسيين. بينما الميناء الذي وصفتُه لها في اللوحة، تعتقد أنه ميناء ألميريا بدون شكّ، الذي خرج من خلاله الأجداد عندما ضيعوا جنتهم.

ـ حسيسن كنت قلقة عليك. خير إن شاء الله. هل حصل مكروه؟

أجبتها وأنا أواصل البحث عن البطاقة:

ـ حنا! السبنيولي متمشكل.

ـ يا وخضي؟؟ مسكين وعلاش؟؟

ـ سأشرح لك عند العودة. كريم لودوك ينتظرني عند مدخل البناية.

سمعتها تغمغم بدون أن أفهم ما كانت تريد قوله.

بطاقته المهنية كانت بين صفحات كتابه «Traité d'Alger» لسرفانتيس. خرجت بسرعة. لم أكن أريد أن أترك كريم ينتظرني كثيراً في أسفل هذه البناية القديمة. بقاؤه هناك يشكّل عليه خطراً.

في محافظة الأمن المركزي للعاصمة، وجدت صديقي الشّرطي في انتظاري. سلمته البطاقة ووعدني بتسليمها للسلطات المختصّة وحثّني مع ذلك، لتسريع إطلاق سراح دون كيشوت، على رؤية السيد زكي الذي يشتغل في الطابق الأول من محافظة الأمن، صباحاً باكراً.

عندما عدت إلى البيت، لم تتوقّف حنّا من محاصرتي بالأسئلة. كانت تريد أن تعرف تفاصيل الواقعة. كان عليّ نسيان قلقي وحزني وأقصّ عليها كلّ ما يمرّ برأسي، أيّ شيء يعجبها ويهزّها.

ـ آه لو تعرفين يا حنّا ماذا حدث! شجاعته لا توصف. لم يستسلم أبدا، فقد دافع عن نفسه مثل أمير. استطاع أن يجرّد خمسة من أفراد الأمن من أسلحتهم ثم أرجعها لهم وهو يردّد: لست مجرما ولكن فارسا أندلسيا. أنا هنا سمة للأمل وليس للجريمة. أنتم تريدونني، ها أنذا أسلّم نفسي برضاي، أرافقكم بدون قيد ولا إهانة.

أستسلمَ بدونِ مقاومة تحت دهشة مفرزة الشرطة التي استجابت لطلباته. آه لو رأيت ما حدث يا حنّا؟ كان يمشي باستقامة كرمح، فارس أندلسي مثل فرسان الأزمنة الضائعة. كل سكان الحي كانوا يرشقونه بالورود تعبيرا عن تعاطفهم وحبهم.

ـ قلتها لك. هذا السبنيولي ليس إلّا واحدا منا. ولكن، كيف قبل أن يوضع في السجن هكذا.

ـ تريدين الحقيقة؟

في الحقيقة كان فكري بعيدا عن المكان، كنت أريد أن أوقف هذا اللعب لكن حنّا أدخلتني في الشرك الذي وضعته لنفسي.

ـ كلّ الحقيقة بتفاصيلها حتى الصغيرة منها. مع الفرسان، كل حركة لها معنى. أنا على يقين أنه هنا كعلامة خير، حامل لرسالة الحب. احك يا إبني، احك:

ـ ها... السجن... نعم... نعم... فهو لا يشبه لأي سجن. قصر كبير، الأرضية مغطاة بالزّرابي الفارسية والتلمسانية. الحيطان مغطاة بالأقمشة السمرقندية والبوخارية والأندلسية. باقات زهور كبيرة ومشكّلة بالورود البُليْدية المختلفة الألوان، تملأ الزّوايا الحميمية للقصر. مدهش، ولكنه هو، بقي متواضعا وطيبا. من الصعب وصفه لك وهو جالس على صوفا مغطاة بالحرير منتظرا أن يتشجع أحد الحاضرين ويتجرّأ على محادثته. فجأة، انحنى مدير السجن وركع عند ركبتيه مقدّما اعتذارات أصدقائه، ثم دعاه ليبقى ضيفا استثنائيا عليهم لمدّة أسبوع. ووضع رهن إشارته مفرزة الشرطة التي أخطأت في حقه وأوقفته هو حامل الخير، لتخدمه وتسهر على راحته. تدخّل لصالحها أمام مدير السجن.

احتجت حنا بعنف.

ـ الله غالب. أغبياء لا يعرفون قيمة الرجال.

ـ لكن يا حنّا، ليس هذا ما كنت أريد قوله؟ مساكين، فهم مجرّد منفذين لأوامر مؤسسة تتجاوز إرادتهم. ولكن هو بالمقابل، فقد كان كبيرا إذ فكّر أوّل الأمر في أبنائهم. شكره مدير السجن على عفوه للشرطة. الكثير من العارفين يقولون بأن الأمير رفض مغادرة السجن بمحض إرادته. يريد أن يعطي المثال عن مجابهة الضرر

بالخير. كلّ الذين كانوا حاضرين في ذلك اليوم حفظوا عن ظهر قلب، كلامه: الشرّ شجرة جافّة، النار تنتشر فيها بسرعة. الخير شجرة خضراء وحية، وحتى تبقى كذلك، نضطرّ إلى التدخّل باستمرار. هذا هو الاختلاف بين الخير والشرّ.

داخليا كنت منكسرا بينما كانت حنا غارقة في السحب العالية. لا أتذكر جيداً ما حكيته لها طوال الجزء الأول من الليل ولكني بالتأكيد، كشفت عن محدودية إمكاناتي الخيالية وأحلامي وهو ماساعدني فيما بعد على النوم.

حنّا ظلت تردّد بدون انقطاع:

- تعرف يا حسيسن يا وليدي، عندما يعتمد الإنسان على ولي صالح مثل سيدي عبد الرحمن الثعالبي بكل طيبته، وسخائه وعظمته، فلا مكان للخوف في قلبه. سيدي عبد الرحمن يغفر كلّ شيء إلاّ الإهانة.

حنا لم تكن تعرف أن مقام سيدي عبد الرحمن قد أُحرق منذ سنة على الأقلّ، من طرف هوايش (حيوانات خرافية) من نوع جديد بدون روح ولا ذاكرة. لم أحك لها مطلقا قصة الحرق هذه. حنا بكل براءة طفولية، بقيت متثبّتة مثل الصورة على عالم مدهش اندثر منذ زمن بعيد ولا أريد مطلقا إخراجها منه.

وحتى لا أبقى مكتوف الأيدي، استغليت فرصة انشغال حنا بصلاتها لأتلفن إلى الملحق الثقافي في السفارة الإسبانية. رجل أعرفه منذ سنتين بسبب طبيعة العمل. أخبرته بقصة دون كيشوت حتى يتخذ الإجراءات اللاّزمة.

* * *

في الحقيقة، لقد كاد هذا المسكين، دون كيشوت، أن يورّطني في عالمه المجنون لأني منذ ذلك اليوم، عرفت بدقة أن شيئا مهمّاً داخل هذا البلد كان مرتبكا ولم يكن على ما يرام. وجدت نفسي فجأة

أمام غياب فادح للدّولة. لا تسألوا كثيراً، يطول شرح ذلك. خصوصاً وأن كلّ ما أقوم به محسوب ضدّي لتجريمي أكثر، ويعطيهم كلّ المبرّرات الكافية لاستئصال لساني وذَكَري. مع أني لا أعرف بالضبط في أي شيء يمكن أن يزعجهم ذَكَرُ إنسان. تلك مسألة أخرى، معقدة جداً، لا أستطيع الخوض فيها الآن على الأقل.

III

كان مقر الأمن المركزي للجزائر الوسطى مايزال مغلقا.

كنت أغلي.

ما هذا العبث؟ كأننا في جوّ حنّا غولة الخرافي: إذا بكيت ناكلك وإذا ضحكت ناكلك. إضحك، إبك، بالاكْ تعيش؟ للأسف لا توجد منطقة وسطى للهرب من حالة العبث. لم أجد كلماتي. كانت كلها تنكسر في الأعماق مثل الأشجار التي أفرغها التآكل.

غمرني إحساس عميق بالعجز.

كنت أحسد حنا التي استطاعت أن تعيش حلمها على طريقتها. أما أنا فلم يكن أمامي شيء أتشعنق به، حتى الحد الأدنى الذي يربطني بالحياة.

ومع ذلك كان علي أن أتمسك بالحياة.

لم يستقبلني زكي إلّا على الساعة التاسعة والنصف. كان غارقا في أوراقه.

لا تظهر إلا صلعته التي كان ينكسر عليها الضوء العمودي النازل من السقف. لا أفهم لماذا قصيرو القامة يصرون دائما على المكاتب التي تتجاوزهم.

حاولت أن أشعره بحضوري، فقدمت له نفسي:

ـ أنا...

ـ أعرف. أنا على علم بمجيئك. أنت هنا من أجل الإسباني أليس كذلك؟

ـ نعم سيدي.

ـ قمت بما استطعت من أجله، بعثت بطاقته الصحفية إلى المديرية العامة للأمن الوطني (La D.G.S.N.).

ـ أتمنى أن يُصلح الخطأ بسرعة. دون كيشوت إنسان طيب، لايريد أيّ أذى لبلدنا.

ـ أنا مقتنع بكلامك. وأعرف كذلك أنه يقتفي آثار أحد أجداده. وهذا شيء نبيل حقيقة. لكن البحث عن كلّ ذلك في مفرغة، فهذا أمر مريب.

ـ أنتم تعرفون أني أعمل بوزارة الثقافة وللأسف، الكثير من معالمنا مدفونة هناك.

ـ هذا أمر جديد لا أعرفه.

شعرت في لحظة من اللحظات أني أقدمت على ارتكاب حماقة غير محسوبة.

ـ ليس هذا ما كنت أقصده، ولكن جده مرّ من تلك الأماكن التي لم تكن وقتها مفرغة. قصدي... منذ قرون.

ـ ولكن هذا يشوّه صورة البلد.

وكأن هناك صورة باقية للبلد؟

حتى أعيده إلى موضوعنا، سألته عما يجب أن أفعله.

فردّ.

ـ المشكل في الحقيقة أصبح أكثر تعقيدا. في المديرية العامة للأمن الوطني، يحاولون الآن أن يضعوا اليد على كلّ الشبكة، إذا كانت هذه الشبكة موجودة، من يقف وراءها؟ من بعث بها؟ لماذا اختارت أن تدخل البلد عن طريق باخرة تجارية؟ وإذا كان اسم صاحبك غير موجود على فيشات الدخول عند أمن المطار، هناك

حتما من تقصّد تغطية دخوله؟ لماذا؟ من يكون؟ الأهداف التي تتخفّى من وراء ذلك؟...

ـ أصدقاؤه الذين ساعدوه لم يكونوا حذرين. هو كذلك مسؤول عن تصرفاته أمام القانون. لكن دون كيشوت كما أتخيله، لم يفتح حتى جوازه ليتحقّق أن الكل على ما يرام. كان مكتفيا بالفيزا ليشعر نفسه أنه في وضعية قانونية.

ـ أنا متفهم تماماً ولكن يجب إقناع المديرية العامة للأمن الوطني. أنصحك بالمناسبة أن تذهب اليوم إلى هناك، سأعلمهم بمجيئك. أطلب السيد مقدّم. أنا متأسف لصديقك، فمشكلته بدأت تتشابك لتصبح قضية تمسّ أمن الدولة. أنت تعرف أن بلدنا منظم بشكل لا يسمح بأي تسرّب. قمنا بما كان علينا القيام به عندما تلقينا إشاراة من مفرغة وادي السمّار تعلمنا بوجود موضوع غريب في المكان. ولهذا تحركنا حتى نستوضح الأمر.

ـ ولكن الأمر لم يكن يستحق كل ذلك..

ـ أن نذهب بعيدا أفضل من التهاون عن التفاصيل الخطيرة، أنصحك أن تفعل ما قلت لك. سأخبرهم حالاً بمجيئك. إلى اللقاء وحظا سعيدا. أرجوك لا تفعل أي شيء يمكن أن يزيد وضعيته تعقيدا.

ـ إلى اللقاء يا سيدي.

بدون أن ألتفت نحوه، شعرت بأن جملته الأخيرة كانت تهديداً مبطّناً.

انتابتني رغبة كبيرة للتقيّؤ وإخراج أحشائي دفعة واحدة. من غير المعقول، أن تتحوّل زيارة بسيطة إلى هذا البلد من متعة اكتشاف إلى كابوس يكبر كلما تكوّر، مثل كرة ثلجية.

شيء ما كان يسدّ حلقي.

في الخارج كان الهواء الصباحي ثقيلاً على غير العادة. تمشيت قليلا في شارع الكلية باتجاه الجامعة في انتظار كريم لودوك الذي

اتفقت معه على اللقاء هناك. تأمّلت طويلا بناية الجامعة المركزية. ما تزال تحافظ على عظمتها وجمالها، مع أنها كادت في يوم من الأيام أن تتحوّل إلى مقر جديد للمديرية العامة للأمن الوطني لو لم يتحرّك الطلبة والأساتذة وأصدقاء مدينة الجزائر القديمة. أحداث أكتوبر 1988 أبعدت تماماً هذه المحاولة. ربما لكان اليوم جزء من تاريخ المدينة قد اغتصب ومحي. فالمافيا التي فرضت نفسها على البلاد لتأكل الأخضر واليابس، منذ الثلاثين سنة الأخيرة، كل الأملاك العقارية الجامعية تعرضت لهجوم مجنون. المسكن القديم لمدير الجامعة تمّ الاستيلاء عليه من طرف شخص ليتحوّل إلى ملكيته الخاصة. نفس المصير تعرضت له بنايات الجامعة المطلّة على شارع ديدوش مراد. المطاعم، مقاهي الجامعة، نادي عبد الرحمن طالب، المكتبة... كلها فقدت خاصيتها الثقافية لتصبح بيتزيريا ووكالات سياحية تشرف على سفر الحجاج الخ... نهب؟ آخر الضحايا، مقهى الجامعة الكبير «اللّوتس» الذي تحوّل فجأة إلى محلّ لبيع الأقمشة المستوردة من طايوان وسوريا ومن محلاّت طاطي والصين. باختصار لقد صار المقهى القديم مجمعا دوليا لكل الخرق البالية والنفايات.

الغريب في كل هذا أن الأسقف والسطوح ما تزال ملكية للجامعة وهي عبارة عن حدائق ومساحات لتوقف السيارات أو قاعات للدروس. آخر مكان مايزال حيّا هو ديوان المطبوعات الجامعية، الذي دوّن على قائمة النهب الممكن، يفتح شهراً ثمّ يغلق لمدة شهرين من أجل التصليحات. يعاد فتحه وغلقه هكذا حتى يغير نشاطه ومسيره. هي الإستراتيجية المستعملة منذ زمن وحتى الآن. حيّ الجامعة تمّ نخره في الصمت والتواطؤ وأحيانا بالإهمال والرداءة الثقافية المستشرية.

كريم لودوك تأخر كثيراً. كان علي تغيير المكان. فالبقاء مسمّراً في مكان واحد ليس أمراً جيداً. صعدت باتجاه مدخل الجامعة الكبير.

IV

مدخل المديرية العامة للأمن الوطني كان مخيفا بضخامته وصمته وبرودة حديده: أبواب حديدية ضخمة، لم تتآكل على الرغم من الرطوبة والبحر الهائج دوما مقابل البنايات التي أكلتها الأملاح البحرية وشوّهها الصدأ.

قدمت نفسي للبوّاب الذي كان عند المدخل.

ـ حسيسن مستشار بوزارة الثقافة.

ألححت أكثر على وظيفتي. في بلادنا الأمر يسير هكذا بشكل أفضل. وإلّا لما أعطاني البواب أية قيمة ولما استمع إلي. كلّ هذا لم يمنعه من طلب معلومات أكثر.

ـ مستشار، يعني واش؟

ـ مسؤول مكلف بالعلاقات الدولية في الوزارة.

لم يبد عليه الاقتناع بتاتا. طلب مني ملء فيشة صغيرة مع التركيز على الغرض المرجو من وراء الزيارة.

ـ تريد رؤية من؟

ـ السيد مقدّم

ـ تعرفه شخصيا أم تأتي من طرف شخص معيّن؟

ـ من طرف السي زكي.

ـ م... م... المسألة جدّية.

ـ جدّية وخطيرة.

ـ تهمّك شخصيا؟

ـ لا. تهمّ أمن الدولة.

ـ الله أكبر؟

لم أنتظر طويلا. طلّ علينا من باب مكتبه، رجل بقامة طويلة وشعر أبيض في يده اليمنى غليون منتفخ والورقة الصغيرة التي ملأتها.

توجّه إليّ مباشرة.

ـ أنت ال... قصة الجاسوس الإسباني؟

ـ نعم يا سيدي اسمي حسيسن.

ـ تفضّل.

تبعته حتى نهاية البهو لأجد نفسي داخل مكتب واسع وعميق ومثير للشبهة.

ـ نعم.. تكلم.. أنا معك.

ـ نعم.. على كلّ..

وحكيت له القصة بكاملها بدون أن يقاطعني في أية لحظة من اللحظات. الذي أربكني هو أني بعد كلّ هذا المجهود الذي بذلته لم يبد عليه أنه اقتنع بما قلته له. ثم فجأة ركّز نظره في عيني. عيناه الفسفوريتان كانتا تلمعان كعيني قط وسط هذا الديكور العميق والمغلق.

كنت معلّقا على شفتيه.

بعد لحظة صمت طرح عليّ سؤالا بعيدا وكأنه لم يكن يستمع إليّ.

ـ هل انتهيت؟

ـ نعم سيّدي.

ـ وتعتبر هذه القصة جدّية وخطيرة؟

ـ حياة إنسان بريء في خطر.

ـ من يقول أنه بريء؟

ـ أنا على يقين من ذلك. مجرم محترف لا يتصرّف بهذه الطريقة المكشوفة.

ـ إذن أريني كيف يتصرّف المجرم؟

بكلّ غباء زدت في إغراق نفسي. حاصرني بأسئلته.

ـ يستطيع أن يفعل ما يريد ولكن بسرية وبدون إثارة الانتباه.

ـ ولكنه صحفي بسيط يا سيدي، منقاد باندفاعاته وغرائزه الصحفية. من سوء حظه أنه وجد نفسه في هذا البلد؟

ـ أنت موظف عند الدولة وتعرف ما معنى المسؤولية الوطنية، هؤلاء الصحفيون الأجانب يعرفون الزبالة التي نعيش فيها ويتمادون في إرهاقنا. كلهم مجانين ويبحثون عن شيء آخر غير الخبر الصحفي. بسببهم، كدت مرّة أن أقتل في حاجز مزيّف. من حسن حظي أن وحدات الجيش الوطني الشعبي لم تكن بعيدة عن مكان الهجوم.

ـ يمكن. ولكن دون كيشوت...

ـ هذا الرجل حتى اسمه ليس أمرا بديهيا. لماذا تصرّ على تسميته دون كيشوت بينما اسمه الحقيقي فاسكيس دي سرفانتيس دالميريا؟

ـ كما لا يخفى عليكم يا سيدي أن دون كيشوت هو إسم رواية كتبها جدّه. وهذا يفسّر لماذا يناديه أصدقاؤه بهذا الاسم. هو مهبول شويّة. كلّ حلمه هو أن يعيش الحالات العميقة التي عاشها

جدّه. لهذا اختار السفر بالسفينة. أعتقد أن هذا الجنون يبرّر كل تصرفاته التي تبدو غامضة. هناك خلل ما في التقييم يجب تسويته.

ـ لا، إذا كانت الشرطة قد أخذته، هذا يعني أن هناك سبباً مقبولاً. المعلّم نفسه مقتنع بهذه الفرضية. عندما نصل إلى هذه الوضعية يصبح من الصعب، بل من المستحيل تغيير شيء مهم في الوضع.

ـ من هو المعلّم؟ ربما أستطيع إقناعه ببراءة دون كيشوت.

ـ أنت تطلب الكثير. إذا أردت أن تخرج صديقك من الحفرة، من الأفضل لك أن تسير خطوة خطوة.

تساءلت في أعماقي إذا لم أكن بصدد الغرق بكلّ براءة في الرمال المبتلعة.

منذ أربعين سنة وأنا أعيش في هذا البلد ولم أكتشف وجهه الحقيقي إلّا الآن. تساءلت هذا الصباح. هذا اليوم لم يكن لي على الإطلاق. منذ البارحة وأنا أدور في حلقة مفرغة.

حاولت من جديد أن أقنع السيد مقدّم.

ـ هل أستطيع على الأقل رؤية دون كيشوت؟ وهل هو هنا؟

ـ لا. المسألة تتعلق بأمن الدولة. هو الآن في قبضة المصالح المعنية.

ـ وفي هذه الحالة بماذا تنصحني؟

ـ تعرف أنه في الحقيقة يُمنع علي استقبالك إلّا عن طريق الجهة الوصية، وزارة الثقافة. غضضت الطرف لأنك جئتني من طرف صديق عزيز لا أستطيع أن أرفض له أيّ شيء. مع ذلك أطرح عليك هذا السؤال...

ـ تفضل يا سيدي أرجوك. أنا في الاستماع.

ـ بعملك هذا، هل فكّرت بمستقبلك؟ هذا الطريق الذي تسير فيه مسدود. وإذا أصررت فهذا المستقبل سيصبح على منقار عفريت.

- أنا مقتنع فقط يا سيدي أنه يجب الاّ نترك سوء الفهم هذا يتحوّل إلى حقيقة حتى ولو كنت، مع ظروف البلد الاستثنائية، أتفهم ما حدث لدون كيشوت.

بذلت مجهودا كبيرا حتى أتمالك أعصابي ولكي لا أصرخ مثل مجنون: كارثة؟ كارثة؟ هذا عبث... هذا هبال بكل بساطة. أي مستقبل عندما ترهن الحياة والألوان والحقيقة ويتحوّل كلّ شيء إلى رماد مطّاط محروق، عندما يصبح بلد بأكمله مجنونا لسبب تافه ويصمت عندما يتعلق الأمر بالفظاعات المتكرّرة؟

في الحقيقة كل ما استطعت فعله هو أني كتمت أنفاسي. في وضعية حساسة مثل هذه كلّ شيء فيها محسوب بدقّة، يستحيل فيها التأمل، الأفضل أن نضع ماء باردا على القلب وأن نتوقّف عند هذا الحد قبل تعقيد الوضعية.

وصمتّ.

كان يجب أن لا أتمادى.

قمت من مكاني.

راقبني بعينيه ثم قام بدوره وسار ورائي حتى عتبة مكتبه وقال:

- أستطيع على الأقلّ أن أوجهك. ابحث عن السبنيولي ناحية وزارة الداخلية.

- اليوم الجمعة ولن يستقبلني أحد.

- بسيط. هناك وطنيون صحاح لا يثني عزيمتهم أي يوم. أطلب السي مقدّم.

- أشكرك يا سيدي. الله يكثر خيرك.

خرجت بسرعة بدون أن ألتفت ورائي وبدون أن أحيّي حارس المدخل الذي ظل منغرسا في مكانه، مسمرا كالخروبة اليابسة. نظر

إلي بعينين مدورتين مثل الصولدي المخروق (الدرهم الذي لا قيمة له) ثم سألني:

ـ قل يرحم والديك، هل زالت أخطار التهديد على البلد!

ـ نعم. الحمد لله. كل شيء على ما يرام، منذ أن بلغتهم بالأخطار المحدقة بأرضنا الطاهرة.

ـ الله ينصرك ويحفظك ذخرا للأمة التي خُلقت لتكون مجيدة وعالية.

ثم فجأة بدأ ينشد بصوت عال نشيد الجبال والزبد يملأ طرفي شفتيه:

من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال،

استقلال وطننا.

تضحيتنا للوطن

خير من الحـــ ... ـــيـــ ... ـــاة...

وتركته يمدد كلمة حياة كما يشاء بينما واصلت انزلاقي باتجاه الشارع وأنا أتمنى أن لا أعود مطلقا إلى هذه الأمكنة الباردة التي دفعتني إلى الرغبة الكبيرة في تقيّء كل أحشائي.

V

كنت على يقين أن مهمتي في وزارة الداخلية لن تكون لا أسهل ولا أفضل. ولكني كنت مقتنعاً أن المغامرة التي بداتها يجب أن أنهيها. فقد وصلت إلى حد جعل اختيارات التراجع أمراً مستحيلاً.

ـ حررت كريم لودوك الذي كانت لديه ارتباطات ضرورية مع زبائن آخرين. بعد انتظار ساعة، استطعت أن أتحصل على سيارة أجرة.

قلت للسائق الشاب عن وجهتي قبل حتى أن أركب.

ـ وزارة الداخلية يرحم والديك.

ـ صحّ يا خو (طيب يا أخي). تفضل.

ردّ فعله كان طيباً وهو ما جعلني أطمئن أكثر. سائق التاكسي كان ثرثارا ولكن شابا يقظا وهو الذي أدخلني في حوار معه.

ـ وزارة الداخلية؟ أتمنى أن لا يكون الأمر خطيرا.

ـ تعرف أنه في بلادنا لا شيء خطير ولا شيء أقلّ خطورة.

ـ معك حق. الوقت اللي رانا فيه بنادم يتخيّل كل شيء.

الاكتظاظ المعتاد في مركز العاصمة جعلنا نتأخر قليلا ولكن هذا التأخر سمح بإفراغ كل ما كان في جعبتي للشاب الذي ظل يستمع إلي بكل انتباه. وعندما انتهيت من الكلام تنهد بعمق وبيأس.

ـ تعرف يا خو؟ كذبة كبيرة؟ ما كاين والو وما راح يكون والو.

صحيح أنها حياة ما تسواش ملّيم. لم يتركوا لنا شيئا. إنّما أفضل من هذا الفراغ. ولكن إذا استمرت الوضعية على ما هي عليه الآن سيصعد كلّ الشباب إلى الغابة. إنهم يدفعون بالكل نحو الخراب. أنا أقاوم بسيارة أمي، هذا الإرث الثمين مقابل استشهاد زوجها. في المرة الماضية زاروني لأخذ السيارة مني. من حظي أني تلك الليلة تركتها في المرآب لتغيير بعض قطع الغيار. في البداية لم يصدقوني. كانوا أربعة مدججين بالأسلحة: كلاش وبنادق الصيد. بعدما فتشوا الدار بكاملها خرجوا بهدوء تام من الباب الذي دخلوا منه بدون خوف أو قلق. تعرف؟ ماذا نتمنى في حالات العجز التام مثل هذه، كلاش، فقط. عندما طلبت منهم سلاحاً للدفاع عن نفسي، هل تعرف بماذا أجابوني؟ هناك دولة تدافع عن الجميع. الحقرة يا خو؟ الدولة لا تعرف مطلقاً أني موجود وأني كائن يعيش بشطط ويتنفس بصعوبة.

ـ وكيف تعيش الآن؟

ـ الآن؟ أفعل ما يفعله الجميع من أجل غريزة البقاء. نعيش عند جدتي بباب الوادي. حي صعب وخطير ولكنه أفضل من باش جراح بكثير، حيث كنا نعيش. أوصلك إلى الوزارة وبعدها أذهب لأتغذى عند صديق. سألعب معه الشطرنج، دورة أو دورتين ريثما تنتهي صلاة الجمعة لأعود إلى عملي ثانية. سنبذل المستحيل لنسيان هذا الخراب حتى لا نسقط في اليأس. واش تحب هكذا هي الدنيا.

أوف. الدنيا تستحق أن تعاش. لم تنغلق على نفسها بعد. لأول مرة لاأشعر بانقباض منذ البارحة. عثرت على البساطة التي افتقدتها، الحياة اليومية، والحلم الذي على الرغم من المشاكل، مايزال عالقاً في الحنجرة ويكاد يخنقنا مثل أسماك أخرجت من مائها.

في أسفل بناية وزارة الداخلية الكبيرة، نزل قبلي. نزع العلامة المميزة للتاكسي ثم عاد إلى مكانه. أرجع لي الفكّة ثم اعتذر بأدب:

- أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك بقصصي الطفولية.

- أبدا. كلنا في حاجة إلى الحديث إلى بعضنا البعض.

- ربما كنت صغير السن، لا تجربة كبيرة لي ولكن شقاوة الحياة علمتني أن أقرأ بدون خطأ وجوه زبائني. بعض الأحيان يحدث معي أن لا أنطق بكلمة واحدة وفي أحيان أخرى لا أوقف مطلقا ثرثرتي وكأني بلعت راديو. معك، أحسست بهذه الرغبة. أرجوك لا تؤاخذني كثيراً. الأسى أخو الجنون. أتمنى لك حظا سعيدا في مواجهة هذه البناية المغلقة بالصمت والنسيان. مع السلامة. تهلاّ في روحك؟

- مع السلامة. حتى أنت تهلاّ في روحك.

البناية كانت فعلاً ضخمة. لم تكن تشبه شيئاً محدداً. قديمة، مملوءة بالرطوبة والخوف. ثقيلة مثل يوم الجمعة هذا الذي كان يفتقد إلى معنى. كل شيء كان خاليا ما عدا رجال الأمن بألبستهم الزرقاء الذين يحرسون بشكل دائم هذه الأمكنة المهمة، مسمرين باحتكام في الأرض مثل الأوتاد. عرّفت بنفسي وقدمت لهم بطاقتي الوظيفية. تلفنوا إلى المعني بالأمر بعدما سمحوا لي بالدخول. استقبلني الرجل بدون بروتوكول. عندما رآني واقفا دعاني إلى الجلوس.

- تفضل.

- شكرا سيدي.

جلست ثم بدأت أتأمله بعينين مدورتين.

توفيق رجل قصير، قصير على جسمه المدور والممتلئ. على كتفيه العريضين يستقرّ رأس يشبه بطيخة أو كرة رجبي (Rugby) غير منفوخة بشكل جيد. عيناه تشبهان عينا ذئب، صفراوان، غارقتان في بياض غير صاف. قطع علي لحظة التأمل.

- أهلا بمثقفنا العزيز.

شعرت في كلامه نوعا من التعالي.

ـ كيف هو حال ثقافتنا الوطنية؟

ـ مثل القطاعات الأخرى. الصعوبات ولكن الكثير من القدرات التي يجب أن تستغل بشكل جيد، والكثير من الأمل.

ـ نتكل عليكم. أنتم الشباب مستقبل هذه الأمة. وطن بدون ثقافة. وطن ميت.

كان يتكلم من فوق. كنت بالنسبة له حشرة صغيرة.

في مثل هذه الحالات تعلمت أن ألزم الأرض ولكن في الوقت نفسه عدم إظهار نقاط الضعف. الظهور بمظهر التعالي. هكذا إدارتنا. عندما يتواضع المرء كثيرا، يستهان به. السلطة الصغيرة التي نرفعها من حين لآخر في وجه محاورنا تستطيع أن تساعدنا على فتح الأبواب المغلقة بإحكام وحلّ الوضعيات الأكثر تعقيدا؟

ـ نعم، بدون ثقافة، الكارثة. السي وهيب لا يتوقف أبداً عن تكرار ذلك. آخر مرّة عندما التقينا تحدثنا بعمق عن هذه الإشكالية التي تدفعنا إلى التساؤل الدائم. لا نستطيع أن نقاوم ظاهرة الأصولية التي هي في الأصل ظاهرة ثقافية، بالأسلحة التقليدية فقط.

ـ ماذا تعني بالأصولية؟ لم أفهمك جيداً.

ـ الإسلاميون. لا يؤمنون بأي شيء آخر غير ما يرونه هم.

ـ ها؟ أنتم الشباب؟ تنفصلون بسهولة عن تراثكم. كلنا إسلاميون يا ابني. ما دام مرجعنا الثقافي هو الإسلام فنحن أصوليون. أما الآخرون، من الأحسن تسميتهم باسمهم الحقيقي: مجرمون، لا أكثر ولا أقلّ.

ـ ولكن يا سيدي هذا يتجاوز الجريمة. هذا فعل مؤسس على أيديولوجية العدم والموت ويسير وفق خطة منظمة، لتدمير الدولة كمؤسسات.

ـ المجرم كذلك يستطيع الإخلال بالنظام ومؤسسات الدولة. لاالإسلام الجزائري شيء آخر. إسلام للمودة والإخاء والتسامح. يجب عدم السقوط في فخ التشبيهات مع الإسلام الإيراني والأفغاني والسوداني أو ما يحدث عند الآخرين. الإسقاط هو عين الخطأ. شتان ما بين إسلامهم الرجعي وإسلامنا الثوري دائما ضد الظلم. مثال ثورتنا مايزال ماثلا في الأذهان.

ـ الأزمنة تبدلت يا سيدي والرؤى كذلك. أربعون سنة تفصلنا عن الثورة. هناك جيل لا يعرف حتى أسماء الشهداء الذين يملأون حيطان الشوارع وواجهات المؤسسات. الشهداء في أذهان الشباب ليسوا أكثر من صورة مبهمة. لكنهم بالمقابل يعرفون جيداً بؤسهم اليومي. مجتمع يحكمه اللاتسامح لا تتولد عنه إلا الكراهية المتبادلة.

ـ يا ابني أنت في صلب الخطأ. الثورة حية في قلب كل الناس. شعلة سلمها جيلنا إلى من يعرف كيف يحافظ عليها. الحمد لله، الغيورون في هذا البلد كثيرون. الحمد لله. قل لي يرحم والديك، على حسب علمي أنت هنا من أجل السبنيولي؟

ـ نعم سيدي.

ردّ فعله كان جليديا وقاصحاً. هم هكذا، يثيرون النقاش عندما يكون في صالحهم ولكن عندما يخرج من أياديهم يتراجعون ويقلبون الحديث إلى موضوع آخر.

ـ المهم. أستطيع من هذه الناحية أن أطمئنك. لقد تحصلت على معلومات هامة تخصّ وضعيته. فهو بين أيد أمينة. أقول لك هذا على الرغم من سريته، حتى لا تقول عنا بأن اختلاف الرأي جعلنا غير ديموقراطيين.

ـ لا يا سيدي لم يمر هذا مطلقا بذهني *(كنت على يقين أن علاقته بالديموقراطية مثل علاقتي بعلوم الذرة)* هو مجرد نقاش لاأكثر.

ـ بكل صراحة كنت خائفا عندما علمت بالأمر أن يكون صديقك قد اختُطف من طرف الإرهابيين لكن الحمد لله. كل شيء على ما يرام.

ـ لكن يا سيدي هذه المعلومات أعرفها جيداً. فقد أُخذ من طرف رجال الأمن وأملك حتى رقم البطاقة الرسمية للرجل الذي طلب منه أن يركب السيارة معهم.

ـ كيف ركب بهذه السهولة. الكثير من المواطنين فقدوا حياتهم بسبب حماقات مثل هذه.

ـ لكن الأمر لا ينطبق على هذه الحالة. الشرطي الذي أخذه معروف ويعمل بمصلحة الأمن بمصنع وادي السمار. على كل أظن...

ـ إنّ بعض الظنّ إثم. أنت راسك قاصح. لازم تكون علي يقين. الشك سيّد المآسي.

ـ على كل لا أدري بالضبط ماذا كان يفعل في المفرغة. أقسم لك يا سيدي بحياتي أني رأيته وحادثته. لا بد أن يكون من الأمن. لاأشك في ذلك مطلقا.

ـ بربك قل لي واش كنتوا ديروا في زوبيا(مزبلة)؟

ـ كل الالتباس يكمن هنا. القصة تكاد تكون مفتعلة. دون كيشوت أبسط من كل هذه التعقيدات كلها. رجل بكل بساطة يحلم بكتابة نص عن جده المعروف عالميا. ميغيل سرفانتيس.

ـ وشكون هذا السيد؟

ـ ميغيل سرفانتيس.

ـ حتى هو كان معكم في المفرغة؟

ـ أنت تمزح يا سيدي. الرجل مات منذ أربعة قرون على الأقل.

ـ هـ ... هـ ... هـ ... يا سيدي وتقلبهاش جنازة، خلّينا نضحك

شوية. الضحك هو الحل الوحيد لمواجهة هذه التأزمات اليومية المحيطة بنا.

ثم تظاهر بانغماسه في التأملات والتذكر والإستعادات مثبتا شاهده على أحد صدغيه وعلى رأسه المُغَرّف كالبطيخة.

ـ إيه... إيه... تذكرته... سرفانتيس... طبعا. وشكون مايعرفش هذاك الرجل الزين؟ إيه ومن بعد ماذا حدث؟

ـ البقية تعرفونها يا سيدي. دون كيشوت أُخذ عن طريق الخطأ. منذ ذلك اليوم لم أنم. أشعر بظلم. إننا نُكَرّه الناس في بلادنا.

ـ تعرفه مليح؟

ـ في الحقيقة بُعث لي عن طريق صديق مشترك بيننا. الملحق الثقافي الإسباني السابق.

ـ شوف. اسمعني مليح. اليوم هو يوم جمعة. الناس كلها في راحة. لو لم تكن المسألة تهم سلامة الوطن ما بقيت دقيقة واحدة داخل هذه العزلة. مع ذلك أنا متفهم لأحاسيسك وانشغالاتك. لكن أقول لك بصراحة، قضية دون كيشوت خرجت من يدي وهي الآن بين أيدي مصالح الأمن والسفارة الإسبانية. والمشكل سيجد حله في هذا الإطار الرسمي. لا تفكر كثيرا، خذ حماما سخناً ونم براحتك، صديقك بخير *(يتحدث عن الحمام ببساطة. هو لا يعرف على الإطلاق أني لم أر قطرة ماء في هذا البيت منذ أكثر من عشرة أيام. الحنفيات تصدأت. للشرب علينا أن نغامر خارج البيوت باتجاه أسفل البناية للتزود بالماء من الحنفية الجماعية).*

ـ أعدك بالحمام يا سيدي.

ـ حذار من الأفكار التدميرية المستوردة. أفكارهم مبنية أساسا على الكراهية ضد حضارتنا. ليسوا ملائكة كما تتصور. كل ما يلمع ليس ذهبا بالضرورة.

لم يعد هناك مبرر لبقائي في مكتبه. خرجت.

كانت الرطوبة المسائية تجعل من التنفس أمرا صعبا.

تَرَكْتُني أتدحرج بثقل في المدينة قبل أن يتوقف سائق تاكسي بكل أدب عند قدمي ويأخذني بصحبة ركاب آخرين وهو يقول:

ـ ممنوع Le jumelage ومع ذلك في وجه الأحباب كل شيء يهون. اركب والحافظ ربي.

ـ يكثر خيرك.

شكرته وصمتّ.

كانت الرائحة داخل السيارة تشبه رائحة البخور.

عندما وصلت وأردت أن أدفع له ثمن الرحلة، سألته:

ـ كم من فضلك؟

ـ قد ما تحب. وإذا ما عندكش الله يسامح.

ـ لا يا سيدي، الحمد لله. الخير موجود.

حيرني. الرقم الذي سجله العداد: مئة دينار ولكنه كان قد أخذ من الراكبين الآخرين أكثر من مئة دينار لأنه في الأصل ليس طاكسي جماعي. قسمت الثمن إلى اثنين وسلمت له ورقة الخمسين دينارا.

ضحك بنوع من السخرية حتى برزت أسنانه الأمامية المكسورة وأطلّ بينها رأس لسان رقيق كلسان الأفعى.

ـ ما تعرفش تقرا الكونتور(العدّاد)؟

ـ للأسف، أعرف فوق اللازم.

أعطيته ما أراد ولم أقل شيئا. حتى رغبة الاحتجاج ماتت فيّ.

كنت فارغا من الداخل.

تأكّد لي مرة أخرى أننا نعيش وسط دغل من الخواء والخوف والنهب. كل واحد يبذل مجهوده من أجل أن يأكل الآخر بشكل أكثر جرأة وذكاء أو بأكثر بشاعة وعنفاً.

عندما صعدت الأدراج باتجاه الطابق الخامس، كنت أفكر في ما يمكنني أن أقوله لحَنًا عن فارسها السبنيولي ولكن الخبر الأول الذي قرأته في الجريدة أدخلني داخل حالة يائسة من الخوف والتساؤل: نفّذ القتلة وعيدهم بعد انتهاء الأجل الذي بموجبه يُفرض على الأجانب مغادرة التراب الوطني. فقد اغتيل صبيحة البارحة رجل أعمال إسباني في مكان يقع على بعد 85 كلم جنوب الجزائر العاصمة.

الفصل الرابع

العــــودة

ويتناول عودة حسيسن إلى مقرّ عمله منهكاً وخائباً، والأخبار المتضاربة عن الأسير دون كيشوت، وتفاصيل قصته مع سيّدة الأنفاق: زُرَيْد الشيقة التى رواها له صديقه كبابيرّو. كما يتناول الفصل بالذكر، قصة زكية، السكرتيرة الخاصة لوزير الثقافة، التي لا تتوقف أبداً عن تحريك لسانها الحاد في كل الاتجاهات داخل الجروح المفتوحة والمدماة.

I

تنفست بعمق الهواء القليل المتسرب من غابة قصر الثقافة الصغيرة.

صحيح أني لم أقم بالشيء الكثير من أجل إخراج دون كيشوت من سرداب هذه المدينة ولكني كنت أشعر في أعماقي بنوع من الرضى لأني على الأقل تأكدت بشكل قاطع أنه في صحة جيدة وأن مسؤولا في سفارة بلاده عوضني في حركتي اليومية وربما بشكل أكثر فاعلية. فقد استلم الأمر شخصيا. ومن خلال كباييرو استطعت أن أبعث له رسالة تعاطف، وعدني بتسليمها له باليد في أول فرصة.

لا أدري كيف انتشرت الأخبار في هذا المكان المغلق الذي لاتكفي جمالياته الهندسية للطمأنة. فقد اشتعلت مثل البارود بحيث صعبت السيطرة عليها. كل الفترة الصباحية لم أسمع على الأفواه إلا القصة المضخمة لجاسوس إسباني يعمل لمصلحة الإرهابيين الذي استطاع، بفضل تواطؤات كثيرة، أن يمرر أطنانا من القنابل في باخرة السكر. القبض عليه وعلى العصابة يشكل ضربة معلم أنقذت البلد من خراب أكيد.

فتحت النافذة التي تشرف مباشرة على النافورة. وجدت متعة خاصة في تأمل سكونها. كانت متوقفة. ساكنة وهادئة مثل ميت. استخلصت مباشرة أن الوزير غائب في مهمة خارج البلد. سمعت في البهو وقع خطوات زكية السكرتيرة. خلتها وهي تترنح كالعادة، نهداها الممتلئان مضغوطان بعشرات الملفات التي لم ولن يُكتب لها

أبداً أن تُدرس أو حتى أن تُفتح أو تُنظم على الأقل، تُرمى مباشرة بعد فصل ملفات الأصدقاء والأقرباء.

عندما تصادف زكية صديقتها الحميمية، سكرتيرة وزير الاتصال، ذات العيون الثعلبية والقامة العالية والمنحوتة كراقصة باليه، جزء كبير من الفترة الصباحية يتلاشى في القيل والقال. تتقاسمان الأخبار الجديدة في البهو المعطر والمكيف باستمرار. الأبهية ومكتب الوزير وحاشيته المباشرة، هي الأمكنة الوحيدة التي تشتغل فيها المكيفات بشكل دائم.

في الحقيقة كنت أتمنّى أن أخصص هذا اليوم لدون كيشوت ولكني فجأة استسلمت لخوف غامض. تصورت أن قضاء يوم آخر داخل غابة البيطون هذه التي يسمونها مدينة لن يُجدي نفعا.

إضافة إلى اختياري الطريق الأسلم أي عدم إحراج السفارة للقيام بمهمتها تجاه مواطن إسباني. وعدم تسهيل المهمة لإدارتنا التي هي في حالة تفسخ مستمر منذ أن اختارت حل طرد العمال لتسوية مشاكلها المادية المستعصية. بالمناسبة هناك قائمة أولية للمطرودين بدأ الناس يتداولونها في سرية تامة. إمكانات المناورة وحدودها كانت ضيقة.

وعلى عادتي التقليدية، بعدما حضرت زهرة الكاسي في إنائها المعتاد، تفرغت مباشرة لدراسة ملفاتي المتراكمة باذلا مجهودا مضاعفا لنسيان ما سمعته بقصر الثقافة عن المسكين دون كيشوت الذي تحول من ضحية إلى جاسوس. الملف الأول كان يخص التحضير للقاء غرناطة الكبير والمشاركة الوطنية في هذا الحدث الثقافي الاستثنائي. فيما يتعلق بالفنون البلاستيكية والفلكلور والأغنية والصناعات التقليدية، لم ينطرح أي إشكال على الإطلاق. المعضلة الوحيدة التي صعب حلها هي تلك المتعلقة بالمحاضرين اللذين تم اختيارهما من أجل المشاركة في ندوة: *الفن والكتابة في الأندلس*. الاختيارات في مثل هذه الحالات محكومة بشكل دائم

بمنطق الزبونية والصداقة. أراد بعضهم أن يفرض علي أشخاصا لاعلاقة لهم بما كنا نهدف إلى تحقيقه من تمثيل حقيقي للوطن. بكل بساطة رفضتُ التوقيع على قائمة تمت فبركتها.

اتصالاتي الخاصة لإيجاد أناس حقيقيين قادتني إلى الجامعة المركزية التي على الرغم من ابتئاسها تبقى المكان الأكثر ضمانا لإيجاد متخصصين. كان برأسي أستاذان متخصصان في الأدب والحضارة الأندلسية إضافة إلى أنهما يتقنان اللغة الإسبانية. اللغة والتخصص كانا من بين الشروط الأساسية لأي اختيار. عندما شرحت لمدير الجامعة جدوى ومقصد اللقاء ودقة اختيار الأستاذين لم يتوان مطلقا من أن يقترح علي اسمه واسم نادية، سكرتيرته الخاصة لتذهب إلى غرناطة التي، كما قال، سبق وأن اشتغلت على ملفات قريبة من هذا الموضوع... ثم ركز أكثر على علاقته بالسي وهيب، وزير الثقافة وأخذ بحضوري موعدا معه. تساءلت في أعماقي عما يمكن أن يقوله في ندوة متخصصة جداً وتكوينه كيميائي، متخرج من الجامعات الأمريكية؟ وأكثر من هذا كله، بأي لغة سيتحدّث؟ حتى الإنجليزية التي أنجز بها بحثا، لا يتقنها *(بعضهم يقولون أنه تغيب سنة وعندما عاد إلى البلد كان حاملا لشهادة P.H.D بدون حتى أن يعرف الحديث باللغة الأنجليزية، لغة بحثه)*..من منصب معيد قفز بشكل فجائي إلى سلك أستاذ بدون أن يملك القدرة الدنيا على إعطاء درس جامعي. منذ البداية كانت الريبة هي سيدة الموقف. بالنسبة لنادية، فضلتُ الصمت لأني فتحتُ فجوة من الصعب غلقها. صداقات السي وهيب ومكتبه الخاص مع الجامعة لم تكن في صالحي أبداً ولا في مصلحة تمثيل وطني حقيقي في مثل هذه الندوات.

أصلا، علاقتي مع السي وهيب لم تكن على ما يرام منذ أن قدّمت له ملف البؤس: الملف الخاص بالجمعيات الثقافية الممولة من طرف ميزانية الدولة. أكثر من 900 جمعية بمحافظة الجزائر الكبرى وحدها كانت حلقة وصل تابعة لـ «الفيس». تعيش على ظهر الدولة.

جيش جرار متخف واستراتيجي، يملك كل الأسلحة الحديثة الفتاكة التي مسخت جزءا كبيرا من المجتمع. عندما عرضت المشكل على السيد الوزير الذي سبق وأن ألح على معرفة رأيي حول الموضوع، جنّ وصار مثل المكلوب وكأني ارتكبت كبيرة لا تُغتفر. احتج علي بكل عنف:

ـ خلوّه هذه! أنت تْورّيني واش نْدير؟ الفلّوس يعلم أباه كيفاش ينقب الحَب؟ والله ما بقاش. لم أطلب منك أن تعطيني دروسا في السياسة ولكن وجهة نظر. لا أعلم في الحقيقة لماذا سلمت لك هذا الملف الذي يتجاوز قدراتك الفكرية التي لا تخرج عن العلاقات الثقافية بيننا وبين إسبانيا. اطلب لي زكية واذهب لتنام في جنتك الأندلسية.

لا يقبل أبداً لأن يُناقش في مسلماته.

كل شيء كان يسير بشكل معاكس. مع الامتدادات التي أخذتها قصة دون كيشوت، فضلت أن أظل ضمن حدودي الضيقة بدون الاستسلام النهائي. بالنسبة لملف غرناطة، قدمت مقترحاتي وتركت للسي وهيب حرية الاختيار. من موجة الأساتذة الذين مرّوا علي لم أحتفظ إلا باسمي المتخصصين في الأندلس. اختيار قمت به وأنا صاح مع ضميري المهني. لم يكن هناك أي مبرر للتنازل مهما كان الأمر حتى ولو كنت على يقين أن الذين يسافرون عادة للتمثيل يأتون من فوق وأسماؤهم غير موجودة في أية قائمة. أسماء تقذف هكذا من فوق: التقليد العزيز الذي لا يستطيع أن يحيد عنه وزيرنا العزيز.

انتهيت من تنظيم الملف وضبطه. سلّمته لزكية التي لا تنتظر إلا مثل هذه الفرص لتتدخل أو بكل بساطة لتثرثر بدون معنى.

II

- صباح الخير زكية. كل شيء جاهز. ملف غرناطة صار منجزاً ولم تبق إلا موافقة السيد الوزير.

- يبدو عليك نوع من الارتباك، واش بك؟

- شكون مليح في هذا المحيط من الرعب؟ صرنا نخاف من كل شيء، حتى من ظلنا.

- مع ذلك أنت لست في يومك.

- في هذه البلاد عندما يكون المرء طبيعياً معناه أن هناك شيئا ما غير طبيعي في رأسه.

- جلول لفهايمي! ولكنك لم تجب عن سؤالي.

حاسة الشم هذه المرة كذلك لم تخدعني. كنت أعرف مسبقاً أن هناك شيئا ما يحرق شفتيها. تريد أن تتكلم وأن تعرف.

- كل شي عادي. ولكن هذا الملف أرهقني كثيراً. المرشحون للذهاب كثيرون ومنهم نختار إثنين فقط. تخيلي درجة الإحراج.

- ما تكسّرْشْ راسك. احرقْ لهم ربهم وخلاص.

- المسألة ليست بهذه البساطة.

- وصديقك الإسباني، كيف أحواله؟

أخيراً أخرجت ما كان يملأ فراغاتها. تريد معرفة التفاصيل لإشاعتها. هكذا هي.

ـ في الحقيقة لا أدري كيف ستنتهي هذه القضية، وكأن البلاد تحتاج إلى مزيد من القصص التافهة.

ـ ولكن يا حسيسن خويا! لا يوجد دخان بدون نار. كل الناس يجمعون أنه جاسوس.

ـ ما يظنه الناس دخاناً هو غبار يعمي الأبصار. أغرب ماسمعته في حياتي. إذا كانت إسبانيا تبعث جواسيس مثل دون كيشوت، إقرئي عليها الفاتحة. دون كيشوت يصلح لكل شيء إلا للجوسسة. ثم يتجوسس على ماذا في بلد عورته في الهواء الطلق. دون كيشوت فنان مجنون، منقاد بحاسته التي لا يستطيع منطق هؤلاء الفاشي فهمها.

كنت أعرف مسبقاً أن إقناع فضول زكية أمر مستحيل. تتشمم قصص الآخرين مثل نملة وعندما تنقصها التفاصيل تتخيلها. مسكين من وجد نفسه بين يديها. تضع لسانها الحاد كلسان أفعى في جرحه وتمتص دمه حتى نخاع العظم. حاسة شمها تدفعها دائما نحو أكثر القصص إثارة. تقسم برأس الأولياء وأهلها أن مصدر القصص صحيح، فقد عرفته من إنسان خير صادفته في عرس أو في جنازة شخص عزيز.

قصة المسكين دون كيشوت ستكبر مثل كرة ثلجية وتتضخم على لسان زكية حتى تصبح قضية معقدة، الأمم المتحدة نفسها ستخفق في حلها.

حاولت أن تبرئ نفسها كالعادة من مصدر الخبر، لا لتعتذر ولكن لتعطي مزيداً من المصداقية لقصتها.

ـ أنت تعرفني خويا حسيسن، أنا لا أقول إلا ما أسمعه. لأضيف ولا كلمة واحدة من عندي. فعقاب الكذابين عند الله شديد.

(يا زكية؟! الله يهديك. إذا كان الله موجوداً سيشكرك من بعيد لأن أول كلمة تنطقين بها في حضرته ستكون كذبة كبيرة، خلاصة

حياتك. فرصتك لإقناع الله أن ما تقولينه هو الحقيقة ولا شيء آخر سوى الحقيقة. الفرصة الأولى والأخيرة، فنحن لا نرى الله إلا مرة واحدة في الحياة والموت. يكفي من الخرطي الله يرضى عليك).

- سترين يا زكية. سيصحح الخطأ ويطلق سراح دون كيشوت قريبا. انا متأكّد من ذلك.

- الله يجيب الخير. الظلم يرفضه الله وعباده.

- ها هو ذا الملف. قدّميه للسيد الوزير.

- طيب. ما يكون غي خاطرك. مجهودك سيسُرُ السيد الوزير.

غادرتْ مكتبها بسرعة.

كنت على يقين أنها هي بدورها كانت تنتظر خروجي بفارغ الصبر لتذهب مباشرة إلى سكرتيرة وزير الاتصال ذات العيون الثعلبية لتفرغ أمامها كل جديدها الذي تصر أن تكون السباقة فيه. فتحت مكتبي. فاجأتني حرارة الصيف القاتلة. نسيت أن قصر الثقافة لم يكن مكيفا باستثناء البهو ومكاتب الوزير وحاشيته.

الحرارة الجهنمية لا تطاق ومع ذلك استغليت فرصة هذا الفراغ الجزئي لأتلفن إلى كبابيرّو أستفسر عن حالة دون كيشوت. أفادني بأن تهمة الجوسسة بدأوا يتراجعون عنها بعدما تأكدوا بالفعل أن دون كيشوت ليس أكثر من صحفي بسيط مأخوذ بقصة جده وأنه بالفعل لا يعرف أحداً في البلد. أما قصة التورط في ما سمي بباخرة السكر، ستجد حلها حتما. كانت هذه هي الأخبار السارّة الوحيدة ليوم السبت الذي انتهى تحت ثقل خطوات زكية التي لم تتوقف عن الذهاب والإياب في أبهية قصر الثقافة.

III

طوال يوم الأحد لم أقم بشيء مهم سوى التفكير في الطريقة التي يمكنني أن أقنع بها حنّا التي كانت تنتظر بفارغ الصبر عودتي إلى البيت لأقص لها حكاية الأمير الأندلسي. يبدو أن قصة أخرى كانت ترى النور داخل خرابات الذاكرة. حنّا كالطفل، فقد صممت بعناد كبير على معرفة قصة ذلك الإسباني، الشبل الأندلسي الذي جاء من بعيد ليشيع الحب والطيبة في زمن بدون إنسانية ولا قيم ولا أساطير.

تفصيل صغير: في صباح هذا الأحد، عندما فتحت النافذة التي تشرف مباشرة على ساحة قصر الثقافة، رأيت النافورة وهي تسيل بماء صاف مثل الدرر بشكل منتظم وفي هدوء تام.

الأمر واضح. لقد عاد السّي وهيب من سفرته.

IV

نهار الاثنين كان زاخرا بالمفاجآت في قضية دون كيشوت.

استطاعت السفارة أن تتحصل على إذن الزيارة حتى ولو كان ذلك لفترة وجيزة. الصحف الوطنية جددت حديثها عن فضيحة صفقة باخرة السكر التي اتضح أن المتورطين فيها كانوا من الجزائريين والإسبانيين بدون أن تذكر التفاصيل. لا أدري إذا كان لهذه الفضيحة علاقة بالقصة المفتعلة ضد دون كيشوت أو أنها مجرد مصادفة. حدسي كان يقول لي بأن الإسباني ليس سوى مطية لتغطية الفضيحة على أعلى المستويات، التي أصبحت على كل لسان. نفس الشعور بالمرارة كان يملأ كابييرو الذي سلمني ظهر اليوم غلافا كبيرا من طرف دون كيشوت.

كابييرّو انسحب بسرعة بعد أن طمأنني مؤكدا بأن دون كيشوت سيطلق سراحه عمّا قريب. خرج بعد أن وعدني بأنه سيطلعني على الأمر إذا جد جديد.

فتحت الغلاف. كان يحتوي على رسالة وكورديلّو Cordello صغير.

في الرسالة، كان الفارس ذي الوجه الحزين يتحدث عن السجن كما يتحدث عن جولة فلسفية وعاطفية. استغربت الأمر لأن الظاهر أن انشغالي على وضعيته كان مبالغاً فيه، إذ لم يبد عليه لا الخوف من التهم المسلطة عليه والتي قد تقوده إلى الإعدام ولا الانشغال بما

يقال عنه خارج الأسوار. ولكني طمأنت نفسي لأني لو لم أقم بذلك قد يُنسى بالسجن حتى يأتي من يتذكره فترمي كل جهة المسؤولية على الأخرى ويضيع هو في زحمة السجال العقيم.

دون كيشوت كان عنيداً. قرأت رسالته للمرة الثانية. كانت مكتوبة بالإسبانية:

عزيزي حسيسن.

كنت احلم برؤية مدينة، ولكني رأيت مدينة بكاملها تزحف نحوي بورود الكاسي والنوار وبعطرها وبعاداتها وقصصها ولكن كذلك بخليطها الغامض من الروائح الكريهة التي تشبه رائحة الجثث المتفسخة. مدينة أخرى تنشأ الآن في داخلي وربما في أعماقنا جميعا، داخل هذه الحالة من اللاجدوى والعبث. لم أُردْ أن أكون وجعا للرأس الذي تسبب لك في الكثير من الأذى. كباييرو أخبرني بكل التفاصيل. أشكرك كثيراً على رسالتك وانشغالاتك من أجلي. إنها تراجيديا الحياة القاسية التي تعصف بنا بالرغم منا في حمأة الغباء. أنا سجين للمرة الثانية في حياتي. الأولى حدثت عندما اتهمت بشكل همجي بالتعاون مع مجموعة من الاستقلاليين الكاطالان. أسبوع بعد إيقافي في المطار، انتبهوا إلى أن اسمي يشبه اسم أحد الإرهابيين الكاطالانيين، هكذا قالوا لي بكل برودة أعصاب. يا الله مع السلامة. لكن الخراب قد يقودنا أحيانا إلى معرفة أنفسنا بعمق أكثر. ستجد كل شيء مفصلاً في نسخة الكورديلّو التي سيسلمها لك كباييرو بصحبة هذه الرسالة. البارحة عرفت من مايا، السيدة النبيلة التي لقبتها زُرَيْد، من أنهم سيطلقون سراحي. امرأة لا تعرف الكذب أبداً. استقامتها لا يمكن تصورها. لقد حدثتك عنها باستفاضة في الكورديلّو. خمسة أيام لا تساوي الشيء الكثير أمام الخمس سنوات التي قضاها جدي. ولكن يبدو لي أني كنت أوفر حظاً منه، فقد رأيت ما لم يستطع هو رؤيته في سنوات. الدين يُعمي. يبدو أني سأطرد بعد أيام من تراب هذه البلاد العظيمة باستعجال لأني خطر على أمن الدولة. تصور! ما يحزنني

الآن بالذات هو أني لن أستطيع رؤيتك ثانية أنت وحنّا العظيمة. الرسالة التي بعثتها مع كباييرو والقصص التي رويتها لحنّا أفرحتني كثيراً وأشعرتني أني لست وحيدا. سفري سيخفف على عاتقك المسؤولية ويسمح لك بإتمام قصتك وسردك المغري. فأنا أعرف شهية حنّا من هذه الناحية وعليك أن تتصالح معها مثلما تصالحت هي مع أندلسها التي بنتها كما تشتهي. أعتقد أنه من وراء هذه الفصول الأخيرة من حكايتنا وهذه الشبكة من الأحداث، هناك قاصان سيملأ صيتهما الدنيا: أنت وأنا. لا تأخذ كلامي مأخذ الجدية، فأنا أمزح. بلغ سلامي الكبير لحنّا. قل لها إن الفارس الأندلسي يفكر الآن في سبل العودة إلى هذه الأرض وهذه المرة ليعيش فيها أبدا.

مكثت لحظات وأنا أضحك من فرط سخرية دون كيشوت الرقيقة. نسيت حتى حضور زكية التي ظلت منغرسة كالشجرة اليابسة أمامي، تتأملني ببلادة.

ـ منذ متى وأنتِ هنا؟

ـ سمعت قهقهاتك فقلت لا بد أن يكون هناك شيء طريف.

ـ لا. بركاي من التمسخير! عندك حاجة أخرى.

ـ تحب تعرف. مبروك عليك. الوزير يحب يشوفك بعد الظهر على الساعة الثانية. بدون شك يكون فرحانا بالعمل الذي قمتَ به. يبدو سعيدا جداً.

ـ سلّمت له الملف؟

ـ طبعا مباشرة بعد عودته.

ـ شكرا. يكثر خيرك.

كنت أريدها أن تخرج. رغبتي لقراءة كورديلّو دون كيشوت كانت شديدة. ولكن زكية بقيت مسمرة بدون حراك قبل أن تطرح سؤالها المعتاد:

ـ وصديقك الإسباني، كيف أحواله؟

ـ رسالته هي التي جعلتني أضحك بهذا الشكل الهستيري. أنا سعيد جداً لأنه سيخرج قريبا.

ـ جيد. الحمد لله.

كانت الساعة تقريبا منتصف النهار.

انزلقت زكية عبر البهو مباشرة باتجاه السكرتيرة الثانية لترشدها بآخر المستجدّات مضخمة ومعدّلة كثيراً.

أغلقت باب مكتبي، عدّلت زهرة الكاسي من جديد ثم تمددت على كرسي الجديد الذي عوّض الكرسي القديم في إطار حملة التجديد التي تبناها وزير الثقافة السي وهيب: كان يهدف إلى تغيير العادات القديمة بتوفير الشروط المثالية للعمل لإطارات الوزارة ولكن الظاهر أن الكراسي الجديدة ستوقظ حتما عادات الراحة والرغبة في الكسل الكامنة في أعماقنا بكثافة. فهي مريحة جداً.

فتحت الكورديلّو على وسعه. عددت أوراقه الرهيفة. خمسون صفحة. بدأت في القراءة والغرق بين تفاصيله المجنونة بلذة. فجأة ابتلعني هذا العبث الجميل المتأتي من جنونيات دون كيشوت، فاسكيس دي سرفانتيس دالميريا.

الفصل الخامس

كوزْديلّو دون كيشوت

رحلة دون كيشوت (فاسكيس دي سرفانتيس دالميريا) الخطيرة باتجاه مدينة الجزائر، مدينة الرماد والخوف وأزاهير الرمل وما وقع له من الأهوال والمصائب إبان سفرته البحرية واكتشافه، في أعماق الموج المتلاطم، للمكان المسمى: زفرة سرفانتيس الأخيرة، الذي أَسَرَ فيه ريّاس البحر جدّه: الكاتب ميغيل دي سرفانتيس.

مدينة الجزائر، داخل نفق ما، يوم الخميس.

الآن تبدأ إقامتي الإجبارية داخل أنفاق هذه المدينة.

هي ليلتي الأولى داخل هذا الفراغ الذي لا اسم له إلا الخطأ والبلادة. قضيت جزءا كبيرا من الليلة في تحضير كورديلّو أدون فيه، على عادة الأجداد، ما حدث ويحدث لي في هذه المدينة. سوّيته بطريقتي الخاصة كما كان يفعل الأسرى المثقفين القدامى. مهمتي كانت أسهل. فقد قبل المشرفون إعطائي الأوراق التي طلبتها للكتابة. تذكرت وأنا أصنع الكورديلّو، جدّي سرفانتيس عندما أراد أن يؤلّف كتاب الجزائر «Le Traité d'Alger». وكذلك البرتغالي ماسكارينهاس Mascarenhas الذي أُسر قرناً بعد جدي. كتب كتابه: أسير في الجزائر. فولهتوس Folhetos (كتاب) من مئة صفحة يحكي فيه كيف هجمت البحرية البرباريسكية على الكونثيشاو Conceiço العائدة من الهند باتجاه البرتغال عند مدخل التاج. لقد حجزوا مني كراستي التي سجلت بها ملاحظاتي منذ بداية رحلتي إلى هذه الأرض ورسوماتي. سأحاول أن أتذكرها واحدة، واحدة. فذاكرتي ما تزال مشتعلة.

ما زلت مقتنعا بفرضية الخطأ لأني لم أخطئ في حق هذا البلد مطلقا.

الميريا، يوم السبت.

الشمس لا تطاق في هذه المدينة. البحر كان مضطربا. أشعر بنفسي خفيفا مثل ريشة الطاووس المشعة الألوان. فرصة الحياة التي لا تُعوض، والتي لا تمنح إلّا مرة واحدة.

الميناء كان فارغا تقريبا. اجتاحني إحساس غريب لم أعهده فيّ من قبل: كنت، أنا الرجل الذي أخفق في الاستجابة لرغبة والده، كأني أستعد لخوض معركة كبرى ضد أعداء بعيدين بدون استعداد نفسي للمعركة. لا أملك شيئا للقيام بهذه الرحلة إلا كراستي الصغيرة وبعض الوريقات البيضاء وكتيب سرفانتيس: *كتاب الجزائر* وآلتي التصورية والسومبريرو للرقاية من شمس إفريقيا القاسية وأثوابي الضرورية ووثائقي الإدارية. في ظرف وجيز استطعت أن أجمع كل ضروريات السفر. وقتي كان محدودا. كنت عائدا من جنوفا، المرحلة الرابعة من رحلتي، بعد نيقوسيا واليونان ونابل وبالرمو ومسّينا.

عندما طلبني صديقي بيدرو دي سفيي Piedro de Seville وأخبرني بالإقلاع القريب لباخرة السكر *لا سانتا كروث* Santa - cruz التي كان قبطانها أحد أصدقائه، لم يكن أمامي إلا القبول. فمساعدته لا تُعوض لاكتشاف المكان الذي تمّ فيه اختطاف سرفانتيس في عرض البحر. التردد لم يكن في صالحي على الإطلاق. من أجل ذلك كان عليّ تحمل سفر مارسيليا لمدة يومين أو ثلاثة ما دامت الباخرة مجبرة على المرور من هناك لاستلام كميات السكر الذي يسوّق عادة إلى الجزائر.

كنت منهكا وميتا من التعب ولكن لم يكن أمامي خيار آخر. فرصتي التي لم أحلم بها أبدا. مع ذلك، شيء من الخوف لم أعرف مصدره، كان يحركني من الأعماق ويؤذيني.

ها أنذا أمام مغامرة جديدة.

مع التمزق الذي كان يدمر الجزائر بعنف، الكثير من الأصدقاء

نصحوني بالتريث وحتى هناك من طلب مني بكل بساطة إلغاء الرحلة نهائيا. فالمخاطر كانت كبيرة والمغامرة غير مأمونة. لكن بنزعتي الفوضوية والمغامراتية فقد أحتفظت بحقي في الأنانية. لا يمكنني أن أتصور كتابا عن دون كيشوت بدون الحديث عن محطة الجزائر والأماكن التي نهبت من حياته خمس سنوات. حتما سأكون حذرا قدر المستطاع وسأتخذ بعض الاحتياطات ولكني أومن أن قبول مهنة الصحفي معناه التسليم بالمعاناة والمخاطر. كل الذين التقيت بهم صوروا لي الجزائر في شكل مجزرة: أجانب مذبوحين عند بوابات المطار، أجساد مسيحيين مقطعة وممزقة بشكل متوحّش في كل المدن تقريبا. أعرف أن هناك مخاطر حقيقية ولكن هناك كذلك مبالغات كبيرة وحالة هستيريا تتلبس كل من يريد الحديث عن الجزائر. ولهذا يجب أن أقوم بهذه السفرة مهما كلف الأمر. الجزائر صارت مرضي ورهاني الكبير.

وركبت رأسي وسافرت.

السفر داخل هذا القفر الأزرق حماقة لا يمكن تفاديها.

مارسيليا، يوم الاثنين.

لم نبق زمنا طويلا بمارسيليا. في يوم ونصف استطعنا أن نشحن السكر في الباخرة. الكمية لم تكن بالضخامة التي تصورتها. عدم اختناق الميناء بالسلع ساعدنا كثيراً.

في عرض البحر، يوم الثلاثاء.

في مساء اليوم الثاني غادرت الباخرة رصيف الميناء القديم.

شيء ما ظل يشغل بالي: لماذا تضطر باخرة إسبانية للقيام برحلة طويلة من ألميريا إلى مارسيليا لأخذ السكر إلى الجزائر؟ في الأمر شيء من الغرابة.

الباخرة *لا سنتا* كروث كان لها شكل يشبه أي شيء إلّا شكل سفينة عادية. كتلة من الحديد الصدئ ما تزال تتحرك لا ندري كيف؟ خليط من بقايا السفن التجارية والحربية. عندما نجانبها نراها فرقاطة، جزء من أرمادة ملحومة ومعادة الترقيع بعد المعارك العنيفة. وعندما نواجهها تتحول إلى باخرة لنقل المسافرين...

كانت الساعة السادسة هذا الصباح عندما أيقظني رئيس السفينة وسبقني إلى السطح وهو يردد:

ـ قم بسرعة قبل فوات الأوان، لقد وصلنا إلى المكان الذي تشتهي رؤيته: *زفرة سرفانتيس الأخيرة*.

قمت بسرعة وسرت وراءه. كان الجو جميلا. مع أن الليل كله لم تتوقف الأمواج عن التلاطم والتمزق على جنبات السفينة الهرمة التي لم تكفّ عن التدحرج بعنف.

ـ *زفرة سرفانتيس الأخيرة*! لا أرى المكان؟

ـ أنظر، هي هناك. هل ترى أسراب النوارس التي لا تغادر هذه الأمكنة لا صيفا ولا شتاء؟ بهذا المكان اعترض القراصنة الأتراك سفينة *لو صولاي* (الشمس) Le Soleil التي كان جدك على متنها.

البحر كان هادئا وأملس وأمواجه المتعانقة تكاد لا ترى من كثرة هدوئها وانكماشها على ذاتها. لونها أزرق غامق، قريب من السواد ومرقط بالبياض الناصع والمرتبك. لأول مرة ومنذ زمن قديم أجد نفسي أمام هذا اللون الآسر الذي اربكني وذكرني بطفولة غامضة وزئبقية أكلتها سواحل المارية. انتابتني رغبة مجنونة وغير واقعية للنزول باتجاه البحر والمشي بهدوء وطمأنينة على الماء الساكن. بدأت ألمس شيئا فشيئا وجوه ركاب *لو صولاي* في ذالك اليوم الخريفي الحزين: 26 سبتمبر 1575. تساءلت في أعماقي بحنين: كم كان عددهم؟ كيف واجهوا هجوم القراصنة المباغت؟ هاأنذا أراهم يمرون أمام عيني واحدا واحدا، أسارى الخوف،

متعبين، مجردين من أسلحة الدفاع الذاتي ومشدوهين في سفن القراصنة التي بدأت تكون حولهم حلقات من النار، إما الاستسلام أو الموت حرقا. أرى الآن رأس السفينة *لو صولاي* هو يستسلم وينحرف باتجاه الجزائر حفاظا على الأحياء. كيف كان البحر يومها، هادئا هدوءا مريبا مثل اليوم أم عنيفا ومجنونا؟ لا بد أن يكون أسود وأمواجه من قتامة ورماد.

لو لم تهزني يد الريّس لتماديت في انزلاقاتي الذهنية.

ـ هيا ندخل، الجو بارد جداً وسطح السفينة غير ملائم على الإطلاق.

ـ أتعرف يا ريّس، إنّي ألمس تفاصيل الحياة وهي تُغتصب الآن في أمامي! أشعر حقيقة بوجود جدي بالقرب مني. أسمع هذا الخوف التي يأتيني بصمته وبارتعاشاته وذعره. أنظر إلى هذه الموجات، بها سحر المغامرة والضياع. إني أسمع من وراء تكسراتها على صخور الشطء نداءات الاستغاثة وغرق الأسيرات اللواتي انتحر الكثير منهن قبل أن يتحولن إلى سبايا بيد انكشارية البحر.

تأمل القبطان الأمواج المسودة التي كانت تتشلأ على أطراف *لا سانتا كروث* La Santa Cruz طويلا قبل أن يفرك يديه كالعارف الذي لا يغيب عنه أي تفصيل.

ـ يا صديقي، أنا بحار أولا وأعرف مسبقاً أن سرفانتيس لم تكن تخفى عليه مطلقا مصاعب رحلة مثل تلك التي قام بها. أسأل نفسي أحيانا كيف فوجىء باعتراض القراصنة في مكان يعرفه جيداً؟ هناك شيء ما غامض رفض دائما الإدلاء به ربما خوفا أو حبا لشيء ما كان يخشى على هشاشته.

ـ جنون الكاتب. مجنون بعشق البحر.

ـ هذا كله لا يفسر حالة الالتباس والغموض.. بوف.. المسألة أكثر تعقيدا.. هيا ندخل. الجو بارد جداً.

كلماته أحدثت فيّ حالة ارتباك خاصة. الريّس لم يكن شخصا اعتياديا من الذين نصادفهم آلاف المرات في اليوم. رجل مهم بين يديه مصير سفينة محملة بالخوف والأسئلة وربما.. ببعض المال؟ انزلقت داخل مدارات المخيلة المريضة. ماذا لو تطاردنا سفينة حربية انكشارية؟ لكن الريس ذكي ويعرف كل المعابر التي توصله سالما إلى مقصده. طيب!؟ ماذا لو يحدث لنا الآن ما حدث لجدي قبل أربعة قرون؟ سرفانتيس، مجنون البحر والحروب الخاسرة الذي قَبْلَ أن يفتح عينيه وجد نفسه محوطا بسفن القراصنة الذين طلبوا كل ممتلكاته. كان الزمن صيفا لكن كل هذا لم يمنع *لو صولاي* من التمادي في الغرق والتلاشي؟ في لحظة من اللحظات رأيت سرفانتيس وهو يحاول بما تبقى من شجاعة أن يدافع عن وجوده لكن يده المهشمة في معركة *ليبانت* Lépante لم تسعفه كثيراً. كنت غارقا في سحر الألوان والأشواق عندما غطاني فجأة رذاذ موجة انكسرت على وجهي وجسدي حتى شعرت بنفسي أُكْسى بتدرجات ألوانها. أخرجتني من حالة انسيابي وهروبي. تذكرت كلمات المعلم الكبير سيد أحمد بحذره وغموضه وهو يحدّث ريشته القصبية بعد أن أُخرج من حالة هدوئه وسكينته: أيتها الريشة! ستبقين معلقة على هذه الكلابة وهذا الخيط النحاسي، أيتها الريشة الصغيرة التي يشبه رأسها إبرة أو لا يشبه. ستعيشين هنا في هذا المكان قرونا متتالية إذا لم يأت مؤرخون معتدون متفاخرون ويخرجونك من قبرك وصمتك. لكن قبل أن يصلوا إليك يمكنك أن تحذريهم وتقولي لهم بأكثر التعابير حدة: ألزموا أمكنتكم أيها الخونة. أمنعكم من لمسي لأني ملك مصون لسيدي سيد أحمد.

في قمرتي، لم أستطع القيام بأي شيء إلا التفكير في هذا البحر الذي يعرف كيف يحفظ أسراره ولا يحتفظ إلا بالتكسرات العنيفة لأمواج ضائعة، غامضة وبدون ذاكرة. أسمع الآن أصداء حكمة جدي: إذا كانت الإهانة تورث الأحقاد في القلوب البسيطة فقلبي

استثناء. شعرت بنفسي أوقظ زمنا ميتا منفلتا كالزئبق من راحته واستكانته. سمعته مرة أخرى يقول لي: *تبحث عن المغامرات وتتسبب في المشاكل!*

ثمّ أسمع صوت صانشو يردد كلما انغلقت عليه الحياة: *عندما تصل إلى روما افعل ما بدا لك. خلّيه يزيد وسميه سعيد!*

أظن أن سفينة سرفانتيس لم تتمكن من الدفاع عن نفسها لأن الضربة التي تلقاها في الصدر واليد اليسرى لم تسعفه ليكون في يومه. حتى أخوه المنهك واليائس من محيطه لم يستطع القيام بشيء مهم سوى تسليم أمره لإله تحرك متأخرا كالعادة.

طوال اليوم وأنا أتساءل بدون أن أصل إلى إجابات مقنعة. شيء ما ظل يشغلني حول جرح سرفانتيس وعدم مقدرته الدفاع عن *لو صولاي*. التأويل بدا لي غير مقنع، فارغ، بدون أحلام ولا ألوان. اعتقد أنه لم يكن أصلا في يومه. لماذا طلب من دون خوان النمساوي الإذن بالعودة إلى إسبانيا بصحبة أخيه الذي حلم دائما بالبقاء بجانب سرفانتيس؟

الريس لم يخطئ عندما ذكر بأنه يعرف المكان جيداً. هل خاب ظن سرفانتيس في قائده دون خوان الذي وعده بالجنة المسيحية ولم يوف بوعده؟ حلمه الدائم والغامض! هل كانت عودته شكل من أشكال الحساسية والاحتجاج. جنون المحارب قاده حتما إلى أعدائه، عندما حوصر وسقط بين أيديهم كان منهكا ليس من مشقة السفر الصعب ولا من جراحات الذراع الأيسر ولكن من جرح القلب وأسئلة الشك. سفره ومخاطرته بهذه الطريقة هي تعبيره الخاص عن عدم الرضى والخيبة. لم تهزمه الحسابات الخاطئة ولكن الألم والغضب والحيرة.

في قمرتي الضيقة لم أقم بشيء مهم سوى التمادي في الغرق في تفاصيل هذا المكان المسمى: *زفرة سرفانتيس الأخيرة* أحاول

عبثا أن أجد وجها جديدا لجدي الذي لم تبق إلاّ صرخاته اليائسة المبحوحة.

مدينة الجزائر، يوم الأربعاء

لا أدري كم من الوقت مر على غفوتي ولكن عندما قمت تحت فعل الضجيج وأوامر الريّس اكتشفت بحرا بدون أمواج، بألوان لامتناهية ومدينة بيضاء مثل الصوف المغسولة بماء عذب بساقية قبائلية كما يقال هنا. يبدو أن سحر هذا اللون الأبيض هو الذي قاد جدي المسكين إلى هذا المكان ليقضي ههنا خمس سنوات من التردد والفراغ والخوف.

غمرت جسدي المثقل بالتعب، خشية غامضة من شيء ما.

كان الجو رائقاً ولأول مرة، منذ أيام، أرى النوارس بألوانها وبياضها الحليبي المشع تحت انعكاسات شمس، قريبة من رؤوسنا.

لم نتعرض لأية مضايقة ولأي تأخير. كل شيء مر بسرعة خصوصا وأن الريّس يعرفه كل الناس هنا، فقد قام بكل الإجراءات الجمركية في لمح البصر.

خرجنا. ذهب الجميع وبقيت وحدي. انتهت مهمتهم معي.

بقيت لحظات طويلة معلقا على متكأ واجهة البحر الذي يحيط بالميناء القديم بكامله. أول إحساس انتابني هو المبالغة الإعلامية التي شعرت بها عن الوضعية الأمنية لهذا البلد. لم يكن هناك ما يثير الانتباه أو الخشية. مدينة الجزائر تمتلك خاصية تتشابه في كل المدن المتوسطية: بسرعة تشعرك ببعض الألفة وكأنك تعرفها منذ زمن بعيد: اكتشاف الأمكنة، معرفة روائحها وعطورها...

انطفأت حيرتي وهواجس الخوف. ولكن سرعان ما وجدت نفسي من جديد فريسة لنفس التساؤلات بعدما صفعتني لافتات النُّزُل بكلمات: Complet. Prière ne pas déranger. Merci. خمسة نزل

وكأنها اتفقت مسبقا على نفس الجملة الباردة. مع ذلك لم أتوقف عن البحث. في النهاية شعرت بتسرب الوقت الذي يمضي بسرعة في المدن المتوسطية وسرت باتجاه قصر الثقافة متمنيا أن يساعدني المكلف بالعلاقات الثقافية الإسبانية الجزائرية على إيجاد حل لمعضلة المبيت لليلة على الأقل حتى أستطيع القيام بعملي كما يجب. التبست على الأمور أكثر عندما انتظرت بكل بلادة مدة ساعة بكاملها لإيجاد تاكسي.

شيئان مهمان سجلتهما لصالح هذا اليوم، وبشكل جد إيجابي. الأول هو لقائي بحسيسن. فقد فتح لي باب منزله بكل طيبة أو بالأحرى باب حنا لأن حسيسن اضطر، تحت التهديدات الأصولية إلى مغادرة بيته الذي كان يقيم فيه. الظاهر أن القتلة في هذه البلاد غيروا كل عادات الناس وحياتهم بدون الوصول إلى فرض نظامهم ما دامت الحركة والحيوية تملآن المدينة وكل شيء يسير تقريبا بشكل طبيعي. ثانيا، لقائي بحنّا، هذه المرأة المذهلة التي ذكرتني بنسائنا الحكيمات، في الحياض الأندلسية. لا شيء بالنسبة لها يساوي وفاءها لجدها البعيد، المكتبي الموريسكي، الذي عندما رأى ألسنة النار تأكل كتبه، عض على يده وهو يقسم:

لن أبقى دقيقة واحدة في أندلس تحرق كتبها وتحول الأبجديات إلى رماد.

ثم ترك كل شيء وراءه، الصرخات وألسنة اللهب، وحبه للمدينة ولم يأخذ معه كما تقول حنّا إلا حفنة من الكاسي وعضة مسمومة. من خلال حنا لمست أسطورة هذه المدينة، أسطورة حارسة الظلال. امرأة بدون سن، تنتظر منذ قرون، بدون كلل. لم تشخ أبدا. وترد بدون أدنى تردد على كل من يسألها لماذا هذا الإنتظار اليائس بينما الآفاق مغلقة لا تخبىء وراءها إلا الخراب:

الأفق المسود، سيأتي يوم ويغير لونه. السحب المثقلة بالماء ستفرغ أمطارها على الأرض. الأرض ليست مجنونة، فهي تدور

ولكن ليس في كل الاتجاهات. ستُظهر يوما شمسها التي تخبئها كل مساء بكبرياء وغيرة. دفعوني إلى الظلال القديمة ولم أختر حالي ولا أريد أن أقضي بقية العمر في النسيان. أنتظر دوما وليدي حمّو، حامل الشمس الذي سيخرجني من هذا الظلام لأعيش كبقية الخلائق داخل النور. سيعود. انتظروا قليلا. قرن في حياة كائن مثلي بدون سن، لا تساوي الشيء الكثير.

وأنا أستمع إلى حنا تقص قصصها، شعرت كأنها تتكلم عن أشياء حميمية ومعاصرة. كانت تقسم برأس أجدادها وكل الأولياء أن حارسة الظلال موجودة إلى اليوم في زاوية ما من زوايا المدينة، تنتظر عودة خويا حمو. كلما سقطت الأمطار، تخرج رأسها قليلا لتنظر إلى السماء المغلفة بالسحب وتنشد نشيدها الطفولي:

يا النو يا النويوه،

صبّي، صبّي

ما تصببيش علي،

حتى يجي *خويا* حمو

ويغطيني بالزربية.

وتغني حنا مثل الطفل الصغير. لا أنسى أبداً نشيجها الذي يقلب كما يشاء امتدادات النشيد. سجلت كل ذلك في مسجلتي. حنا ترجمت لي الأغنية الطفولية بطريقتها وكما تشتهيها أن تكون. كلمات بسيطة وقرية تذهب إلى القلب مباشرة لتختبيء هناك فسحة من الشوق والأمل.

مدينة الجزائر، يوم الخميس.

منذ الصباح، لم تتغير حرارة الجو القوية.

ضباب كثيف يغطي كل الأنحاء بغلالة ثقيلة تجعل من التنفس

أمرا صعبا وتتضاءل كل الرومانسية التي تملأني. الرائحة كريهة جداً. داخل الأدخنة تتميز بقوة، رائحة الأدوية والجلود المحروقة والمطاط والآجر والحديد الصدىء والصوف وحتى رائحة اللحم المحروق.

ليلة البارحة سهرت كثيراً بسبب القصص الجميلة التي روتها لي حنّا، خصوصاً عن حارسة الظلال التي تنتظر بفارغ الصبر عودة خويا حمو، حامل الشمس، الضائع وسط الأشواق والأنوار. حكت لي الليل كله عن أسدها الأندلسي والسيدة التي لا عمر لها.

اقترح علي حسيسن أن نزور مفرغة الجزائر الكبرى ولكنه على الرغم من ذلك تركني على جوعي لم يقدم لي أي مبرر معقول لزيارة هذه الأمكنة ما عدا جملة واحدة تتعلق باللوح التذكاري الذي وُضع تكريماً لسرفانتيس ويوجد بنفس المكان. لم أفهم اقتراحه الغريب إلا بعد انتهاء زيارتنا للمفرغة. في أعماق هذه الجبال من الزبالة يوجد في زاية آمنة تمثال نصفي لسرفانتيس وأشياء أخرى لأسرى القراصنة. أسمعنا مسيّر *المصنع*، لأن هذه الاماكن الغريبة تسمى مصانع، قصة الشاعر الفرنسي رينيار Regnard العجيبة والذي لم يكن مستعدا لسماع شيء آخر سوى صوت معشوقته إلفير Elvire الجميلة.

لا أدري كيف حدث ذلك ولكني وجدت نفسي في حالة من الهذيان الكبير. كيف يقبل بلد أن ترمى ذاكرته في مفرغة؟ وددت لو استطعت الصراخ بأقصى ما يمكن حتى يسمعني الأموات أو بكل بساطة أن أفعل ما فعله جد حنّا الذي عندما رأى الحرائق تلتهم الكتب، عض على يده بيأس.

* * *

عندما غادرنا المكان، أشياء كثيرة كانت قد تغيرت فيّ.

هذه الأرض كلما اكتشفناها تزداد غرابة وجنونا حد الإدهاش والخوف. حبها هش بشكل دائم.

صحيح أني لم أخطط لزيارة المفرغة ولكن موضوعها يهمني لفهم هذا الجد المجنون الذي لم يفرق بينه وبين بطله. حتى فيلّا حنا التي لم تعد موجودة إلا في ذاكرتها الموشومة بتفاصيل الحياة وبراعم الزيتون القبائلي، ليست أقل أهمية. حنّا تؤمن بشكل مطلق بروٴاها التي تبدو مسدودة الآفاق وهي ليست كذلك. تملك المفاتيح والأسرار التي تفتح بها كل الانسدادات. عند حنا لا يوجد المغلق المطلق. كل مغلق يفضي إلى فضاء يتسع ويضيق بحسب عمقنا وأشواقنا.

فكرة يمكن كتابة رواية من خلالها، يوما ما. ما أعيشه الآن يتجاوز المشروع الصحفي البسيط الذي جئت من أجله. أجد نفسي الآن وسط عالم مبهم مثل السحر. على كل لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا الآن.

* * *

كنت أنا وحسيسن نازلين من مرتفعات العاصمة بعد انتهاء زيارتنا لمغارة دون كيشوت المهملة والتي تموت بهدوء وسكينة مثل العجوز الذي يفتقد إلى الحنان والحب.

الآثار القليلة المتبقية قذفت بي بعيدا نحو الرجل الطيب الذي قاوم ضغينة الدين التي كانت تحاصره، يحلم يوميا بترك الأرض التي سبته ذات يوم بعد أن اختطفته من عمق موجة مسالمة. الجزائر! هذه المدينة الخليط من الجنون والسحر والفوضى لم تعد بالنسبة له إلا تلك السوق الواسعة لبيع وشراء العبيد. ما زالت تطن في رأسي وقلبي صراخاته في هذه الأمكنة الحزينة وجمله التي خرجت من فمه الناشف وظل يكررها على مسمع الذين اقتفوا آثاره كنت من بين الأسرى الصالحين للمقايضة لأنهم عندما عرفوا بأني كنت عسكريا مهمّا، وعلى الرغم من تأكيدي بأني بدون قيمة كبيرة ولا أموال لي، لم يمنعهم ذلك من تصنيفي من بين الناس الذين تطلب فدية لإطلاق

سراحهم. وضعوني في القيد كدلالة على صلاحيتي للمقايضة أكثر من كوني أسيرا موجودا داخل سجن للأشغال الشاقة مع عدد من الناس في نفس وضعيتي.

اللقاء بينه وبين الجزائر لم يتمّ. لكنه لم يستطع أبداً أن يتفادى عينيْ زُرَيد الموريسكية المذهلة والمحرومة من رجل يفتش جسدها ويبعثره قبل أن يلتهمه الدود. تبحث وسط ضجيج مدينة لا تعرف السكينة عن لحظة شوق هادئة تستطيع من خلالها أن تستحضر رجلها في حلم مسروق من عيون الريس العجوز. حياتها لا تتعدى نافذة صغيرة ترى من خلالها ما يدور في العالم الخارجي وتكتشف كل صباح من وراء زجاجها السميك مدينة تتغير ألوانها وسفنها باستمرار. لا يا عزيزي سرفانتيس، أعتقد أنك أخطأت. هي نافذة ولم تكن كوة كما كنت تكرر دائما. عندما صعدت إلى سطيحة السجن مثلما كان يفعل أغلب السجناء الذين ينتظرون الفدية ليطلق سراحهم، كنت أول من اكتشف هذه المرأة. وبسبب أنانية ضامرة تمنيت أن تكون الوحيد من يحادثها أو على الأقل يراها. أول ما لمحت زريد وجهك حدث بينكما الذي كنت تبحث عنه. اخترقتكما الدهشة والذهول وغموض ما لم تفهمه أبداً. العصا القصبية التي تركتَها تتدلى من النافذة كانت علامة على تعلقها بك أنت تحديدا. لم تفهم الشيء الكثير من حركتها. من يومها لم تتوقف عن تأمل النافذة، هذا المربع الصغير المفتوح على البحر والذي يحولها إلى نجمة داخل مساحة ضيقة. وفجأة انغلقت النافذة وغابت القصبة ثم زريد. أصابك الهلع والجنون: أيعقل أن تكون قد انطفأت؟ حتى نجمتها التي كانت تظهر بارزة في سماء هذه المدينة، غابت. لم يكن ذلك ليبشر بخير. اشتقت إلى يدها وبعضاً من ذراعها وأصابعها الصغيرة التي كنت تعيش عليها في المساءات الرطبة كل فونطازماتك. لكنها لم تدرك أبداً أنها كانت تختنق وتموت بالتقسيط في ذلك المكان وأن أباها حاج مراد عاشق لالة مريم وقائد حصن الباطا قد سدّ عليها كل المنافذ. لماذا كنت تصر دائما

أن زُريد مسيحية أُجبرت على أن ترتد لتصبح موريسكية مظهرا وتظل داخليا مسيحية نقية كالمعدن الصافي؟ يبدو لي أن الخوف وأحاسيسك الدينية الغامضة ضيعوك يا جدي. لم تر في خلوتك إلا الجزائر التي كنت تريد رؤيتها، جزائر القراصنة وتركت زريد العاشقة تتسرمن بين يديك.

غادَرْنا، حسيسن وأنا، فيلاّ عبد اللطيف التي تحولت إلى ملجأ لبعض سكان البوادي (التي نسيت اسمها) الهاربين من الخوف والقتلة وبني كلبون.

ونحن نتدحرج من فوق إلى أعلى، فجأة توقفت عند أقدامنا سيارة القولف السوداء التي ظلت مدة غير قصيرة تقتفي خطانا. طلب منا أحد ركابها أن نقدم له أوراقنا. لم يكن معي إلا جواز سفري. سلمته له. تركت بطاقتي الصحفية في البيت لأن حسيسن نصحني بعدم حملها معي تفاديا لكل المفاجآت. الصحفيون في هذه الأرض يعيشون تقريبا في سرية غير معلنة. نظر الرجل إلى وردات الرمل التي كنت أحملها والتي اشتريتها من المغارة ثم دفن نظره من جديد في الجواز. عرفته رغم تنكره تحت نظارتين سوداوين. رجل مفرغة وادي السمار بعينيه القاطعتين. رغم خوفي، شعرت ببعض الطمأنينة. لم أحسّ تجاه ركاب السيارة بأية ضغينة، بالعكس، في لحظة من اللحظات عطفت عليهم. ولكن فجأة تحولت نظرات رجل المفرغة إلى أوامر. يبحث بصعوبة عن جمله.

ـ السيد فاسكيس سرفانتيس دالميريا، أنت في وضعية غير قانونية.

رددت بسرعة وبدون تفكير:

ـ لا أعتقد يا سيدي. معي فيزا.

ـ أتحدث عن جوازك. لا توجد به أية إشارة عن تاريخ دخولك التراب الوطني.

ـ دخلت من الحدود بشكل قانوني مثلما يدخل جميع الناس. وإذا كان هناك نسيان ليست هذه مسؤوليتي. فأنا صحفي و...

قطع كلامي بشكل قبيح:

ـ أنا لا أبحث عن المخطئ. جوازك في وضعية مشبوهة وعليك أن تركب معنا لمعرفة الملابسات في محافظة الشرطة. اركب.

وعلى الرغم من تدخلات صديقي حسيسن، لم يستمعوا لتعليقاته واحتجاجاته. ركبت يحدوني اليقين أن حسيسن لن يتخلى عني وسيقوم بتصحيح سوء التفاهم. ما جعلني أتأكد من ذلك هو أنه طلب أن يرى رقم بطاقة رجل المفرغة الذي أصدر أمره لي بالركوب، ليتأكد من هويته. وأنا بالسيارة لم أتذكر شيئا إلّا حديقة التجارب النباتية Le Jardin d'Essai التي مررنا بها أنا وحسيسن. ولكن عندما دخلت السيارة بشارع بلوزداد، قام أحدهم بوضع قماش أسود على عيني. لم أحاول المقاومة لأني كنت على يقين أن المسألة لن تعدو أن تكون سوء تفاهم سرعان ما يتم توضيحه. خوفي من أن يكون مختطفوي إرهابيين تضاءل وقلت في نفسي أن هذا التفتيش لا بد أن يكون مسألة روتينية في وطن في حالة حرب طاحنة، يبحث عن طريقه وسط ظلمة العميان. في طريقنا إلى محافظة الشرطة لم يطرح لي أي سؤال، حتى أن أحدهم ساعدني على النزول عند وصولنا إلى المكان المقصود، وهو نفسه الذي أعطاني يده عندما بدأت نزول الأدراج بعينين مغلقتين دائما.

رائحة الرطوبة كانت قوية وقاتلة. عندما توغلنا في النزول لم تبق إلا رائحة خشب السنديان القديم. نزعوا القماش الأسود عن عيني وطلبوا مني التوقيع على ورقة اعتراف بأني صاحب وردات الرمال الثلاثة. وقعت على الرغم من أني لم أفهم جدوى ذلك. فالوردات لم تكن لها أية قيمة ما عدا الجانب الرمزي والتذكاري. احتفظ الرجال الأربعة كذلك بكراستي التي أدون فيها كل ملاحظاتي.

خرجوا بدون أي سؤال.

وجدت نفسي في قاعة باردة. خرج رجل ضخم من زاوية ما من هذه الفوضى أو من شيء كان يشبه ذلك. أراني سريري وطلب مني إذا كنت أحتاج إلى بعض الأكل أو إلى أي شيء آخر؟ طلبت ورقة وقلما من أجل إفراغ ما يتآكل داخل القلب. لم يتوان عن إعطائي ما طلبته وانطفأ بدون أن يعلّق.

مدينة الجزائر، يوم الجمعة

لم أستطع تحمل الليلة الأولى من السجن، فقد كانت قاسية جداً. يقف على رأسي مثل بومة، الرجل الضخم الذي لا ينتظر إلا الأوامر. جسده يتعرق بدون أي مجهود جسدي. ومن حين لآخر يغرق داخل الفوضى ليعود بعد لحظات وهو يتنفس بمشقة بعد أن يرش على وجهه وصدره العنبر والمسك وأشياء أخرى تمتص رائحة العرق الكريهة. طوال الليل لم يغمض عينيه إلّا قليلا. مثل الديك أول من يستيقظ. كلما حاولت النوم أجده منغرسا عند رأسي، يحاصرني بتوسلاته وإزعاجاته وطيبته المقلقة طالبا مني إذا كنت أحتاج إلى شيء ما. أكاد أصرخ: ابتعد عني فقط بنتانتك، ولكن شيئا ما يمنعني.

ـ شكرا يا سيدي لا أحتاج إلى أي شيء. أريد فقط أن أنام.

ـ أُعذرني يا سيدي ولكني أتقاضى راتبا للسهر على راحتك، حتى لا ينقصك أي شيء.

ـ شكرا. في الوقت الحاضر لا أحتاج إلى أي شيء.

ـ أنا هنا لتلبية كل رغباتك. لا بد أن تحتاج إلى شيء ما وإلا سيؤنبي المعلم الكبير وأخسر منصبي.

لا أدري إذا كان يقول الحقيقة أو كان يكذب علي ولكني في لحظة من اللحظات عطفت عليه كثيراً.

ـ من هو هذا المعلم الذي يخيف الجميع هنا؟

ـ لا أعرفه يا سيدي. ولكن يقال أنه يشبه الظل تارة وتارة أخرى مثل الزئبق. في كل مكان وفي اللامكان. يسمع كل ما يقال في السر والعلن. أرجوك يا سيدي لا تحرجني. لا تطرح علي مثل هذه الأسئلة الصعبة والمؤذية لحياتي. بعد هذا النقاش أتصور أنك تحتاج إلى شيء ما؟

ـ طيب. فليكن.

تمددت على سريري الحديدي المصدّأ الذي جُهز بالمناسبة من مجموعة القطع المتناثرة.

ـ أنا أحتاج إلى كوكا كولا، كأس من الماء، قهوة مرة جداً وقليلا من الخبز المحروق وبعض اللحم المجمر.

وبدون أن انتظر جوابه تركت رأسي ينزلق على الوسادة بهدوء وتعب. سرقتني إغفاءة ناعمة قبل أن يعود لي بشخيره، سعيدا فرحا ليوقظني على ابتسامة غبية.

ـ ها أنا يا سيدي قمت بواجبي كاملا تجاهك. حضرت لك ماطلبته مني.

ـ شكرا جزيلا. اذهب أنت الآن وارتح قليلا.

وتسرب داخل فوضى الأشياء المكسورة التي كانت تملأ المكان. بعد لحظات لم أعد أسمع إلّا شخيره الذي كان يصم أذني ويؤذيني. كل هذا لم يمنعني من النوم.

ـ أوف... أخيراً.

تركت نفسي أنزلق بين الأحلام التي اشتهيتها. الرجل الضخم كان يشخر دائما.

في الصباح عندما استيقظت من نومي، لم يكن بمكانه المعتاد وحلّ محله رجل آخر، مسنّ قليلا، بهندام جميل. سألني إذا كنت أحتاج إلى مشروب ما. قلت:

ـ قهوة مرة من فضلك.

ـ أمرك.

ثم طلب مني بلطف أن أتبعه إلى المكتب.

مكان واسع وعريض، مملوء بالكتب وأثاث كله من قصب البانبو، حتى الكراسي والمكتب الكبير. وجهه كان يبدو طيبا. في أعماقي، كنت أحاول دائما أن أظلّ هادئا لأنه لم يكن لدي ما أخاف عليه. صحيح أن الكثير من الوقت ضاع مني قبل أن يكتشفوا الخطأ ولكن لا شيء يذهب هباء. كنت أريد أن أوضح له وضعيتي هذه التي لم أفهمها ولكن كان علي أن أتريث قليلا لأن الرجل يمكن أن يكون قد حضر للاعتذار.

عندما بدأت في شرب قهوتي، طرح علي سؤالا سخيفا ولكنه حساس، برقت عيناه من خلاله مثل عيني قط.

ـ لماذا أنت بالعاصمة؟ هل هناك شيء محدد؟

ـ أنا أشتغل كصحفي وأنا بصدد كتابة كتاب عن جدي، وهو كاتب معروف من قبل الجميع. سرفانتيس.

ـ والرجل الذي كان برفقتك، كيف تعرفت عليه؟

ـ بحكم وظيفته. لا غرابة في ذلك يا سيدي. فهو المسؤول عن العلاقات الإسبانيةـ الجزائرية. قام بواجبه تجاهي لا أكثر.

ـ على كل ليس جوابك هذا هو الذي ينقذك من الشكوك التي تحوم حولك.

ـ أية شكوك يا سيدي؟ أظن أن هناك حقيقة خطأ ما ألصق بحالتي هذه.

ـ كل شيء فيك مبهم وغامض. دخولك على متن سفينة مشبوهة، مملوءة بالسكر، جواز سفرك الذي لا يحمل أية علامة للدخول، وظيفتك الصحفية بدون أي دليل يدل على ذلك، وشراؤك

لبعض عناصر التراث الوطني السياحي لتهريبها إلى أوروبا. هل تحتاج إلى أكثر من هذه التهم لتقتنع أنه أصبح من الضروري عليك أن تتكلم إذا أردت إنقاذ جلدك.

ـ ولكنك يا سيدي تمزح؟ أي تراث وطني؟

ـ اهتمامك الخاص بمفرغة وادي السمار، بسرفانتيس، وبالأشياء التاريخية التي تهم إسبانيا. أليست كل هذه الممارسات سرقة؟

ـ أنا صحفي ولا علاقة لذلك بالسرقة أو بالنهب. مهمتي الأساسية تتلخص في البحث عن آثار جدي. والجزائر كما تعرفون محطة مهمة في حياته. فبعد أسره كتب نصه الكبير والمعروف: دون كيشوت الذي لخص فيه كل الحماقات الكبرى للإنسان الذي يظن نفسه كل شيء وهو لا شيء.

ـ هذا كله على صحته لا يبرئك من تهمة بدأت تتأكد ضدك.

قضيت كل الصبيحة أشرح له سب وجودي في هذا المكان، وأنهم إذ يتهمونني بالجوسسة والنهب المنظم، يعطونني قيمة لاأمتلكها مطلقا وأني لست أكثر من صحفي بسيط يقوم بعمله لا أكثر.

بالنسبة لقصة الجواز، والتي كانت تبدو غامضة قدمت له كل المبررات: دخلت عن الطريق الشرعي كما يدخل كل الناس الطبيعيين ويستطيع أصدقاء الرحلة أن يشهدوا على استقامتي. لم أكن في حاجة إلى التزوير أبداً ما دمت أملك فيزا قانونية للدخول. ربما كان مرورنا الجماعي عند الجمارك هو الذي أحدث كل هذه البلبلة. افترض، وقريب من اليقين أن الأصدقاء البحارة الذين دخلت معهم، نسوا أن ينبهوا الجمارك بوضع الختم. فقد كانت لهم معارف واسعة بالميناء بحكم عملهم تسهل لهم إمكانات الدخول بدون المرور عن طريق الدالة الطويلة. لا يوجد أي مبرر آخر مقنع.

بإنصاته وانتباهه، كنت متأكدا أن الرجل قد اقتنع بكلامي. لكن الملاحظة التي سجلها نسفت كل ما كنت قد بنيته.

ـ ببعض النباهة منك كان يمكنك أن تتفادى السقوط في هذا المأزق.

أثناء النقاش سمحت لنفسي حتى بتقديم ملاحات قاسية عن الوضعية التي آلت إليها المغارة وغيرها من الأماكن السياحية الأخرى التي كانت تتهاوى وتموت بصمت وتواطؤ أو جهل، بدون أن يبدي أي انزعاج. ولكنني عندما بدأت الحديث عن مفرغة وادي السمار، المصنع مثلما يسميه سكان المنطقة، اكفهر وجهه فجأة وترمّد والتفت نحو الحائط الذي كان يتكئ عليه وغمغم وهو يبتلع بعض كلماته

ـ قضيتك أصبحت الآن قضية دولة بكاملها. في هذا البلد هناك الكثير من الانزلاقات التي لم تصحح أبداً ولم يُشَرْ إليها في عملية نقد ذاتي شجاعة... النقد الذاتي منعدم. ولكن ما يحدث معك شيء آخر. المعلم سيرى ذلك عن قرب. الأمور تتعقد حولك.

لا أدري إذا كان يتكلم عن نفس المعلم الذي تحدث عنه كل من صادفتهم بما فيهم الرجل السمين. يبدو أن كلهم يتكلمون عنه ولاأحد يعرفه حقيقة.

وقبل أن يخرج رجلان من الفراغ ويغلقان عيني بالخرقة السوداء، خزر إلي الرجل للمرة الأخيرة وكأنه كان يريد أن يحفظ تفاصيل وجهي وكل قسماتي. وهو يحرث وجهي جيئة وذهابا، كان يعدّل من هندامه، شعره، سرواله، ربطة العنق، بدون أن ينسى فتحة سرواله التي يخاف أن ينساها مفتوحة. مشّط حتى شنباته وهو ينظر إلي من وراء المرآة الصغيرة التي كانت بين يديه.

ـ يا ابني، عندما أطرح عليك الأسئلة عليك أن تجيب بدقة لأنهم يكتشفون التخريف والكذب بسهولة. مع المعلم يجب أم لا نلعب

بالنار. وضعيتك صعبة جداً وواجبي أن أحذّرك من مغبة الانحرافات وأحضرك لمواجهة المغامرة.

- لن أكون في حاجة إلى الكذب يا سيدي.

بدون مقاومة، تركْتُني أنقاد بسهولة نحو مكان مجهول هذه المرة كذلك.

ربما باتجاه المعلم، من يدري؟ وسط هذه الحالة الكافكاوية، كل شيء ممكن.

مدينة الجزائر، في كهف بمحاذاة البحر، يوم السبت صباحا.

بدأت حقيقة أحس بأني سجين داخل هذا الكهف. منذ أن قمت من نومي هذا الصباح، لم أكلم أحدا. كل ما رأيته هو بعض الناس الذين يسرعون الخطى جيئة وذهابا. في الحقيقة يجب الاعتراف أن هذا المكان أفضل بكثير من السابق. من هنا أسمع انكسارات الأمواج القادمة من بعيد. الرجال الذين يلبسون زيا عسكريا يبدو عليهم الانهماك في شيء غير مرئي. لا أحد يكلم الآخر.

هذه الحركة الدائبة حرمتني من إمكانية التركيز والكتابة.

فجأة سمعت صوتا مفخما لبوق وكأن هناك احتفالا عسكريا أو رفع العلم. وفي لحظة من اللحظات خُيّل إلي أني سمعت مارشات عسكرية متناغمة ومنضبطة وضربات أعقاب البنادق وهي تنزل بانتظام كبير على الأرض الصلبة المزفتة. خمنت بدون كبير تفكير أني كنت في ثكنة عسكرية.

الأرضية الخشبية كانت نظيفة جداً.

مدينة الجزائر، يوم السبت ليلا.

العسكري الذي قدّم لي فطور الصباح بصمت، هو نفسه الذي

قادني باتجاه صالة واسعة ذات ضوء خافت ثم تركني وانسحب بدون أن تخرج من فمه كلمة واحدة.

من رواء مكتب عتيق كان يقف رجلان بلباس عسكري. بدأت أشعر أن المسألة بدأت بالفعل تتعقّد. المكتب كان ممتلئا بالأوراق والوثائق من بينها جواز سفر إسباني خمّنت أنه لي. تبادر إلى ذهني شيئان: الأول هو أن حسيسن يبذل مجهوداته المضنية لإخراجي من هذه الحفر المتتالية ومن هذا الأسر العبثي، والثاني أن وضعيتي أصبحت سيّئة للغاية وجدية بالفعل ولم تعد مجرد سوء تفاهم. وكلما تقدمنا في الغموض تزداد تضخما. بدأت أدرك أني تحولت إلى مشكل حقيقي يرهق كل الناس. العسكريان صمتا كثيراً قبل أن يكلماني وكأن كل واحد منهما كان ينتظر من الآخر أن يبدأ ويتورط معي لأن وجودي لوحده في هذا المكان كان مشكلة.

في الأخير تجرأ أحدهما وفتح النقاش.

ـ لمصلحتك، عليك أن تتكلم وأن تقول الحقيقة. لا تكرر ما قلته للعالم النفساني، فنحن نعرفه ولا قيمة له. كل ذلك الكلام يعقد وضعيتك أكثر. لا نفهم كيف لا يعرف مثقف مثلك حدود القوانين الدولية وواجبات كل فرد. الجهل بالقانون في حد ذاته تهمة ولم نجد لك أي مبرر. التهمة الكبيرة بالجوسسة لمصلحة دولة أجنبية، تحوم حولك وعليك أن تعترف أو أن تدافع عن نفسك ولكن بلغة أخرى غير اللغة التي سمعناها.

وكان كلما تحدث يمدد في كلماته التهديدية لمزيد من الإثارة والتخويف: الدولـ ... ية، غير مقبـ ... .ولـ ... .ة، مضـ ... ... رة، خطـ ... .يـ ... رة، الجوسـ ... سة...

ـ لم أفهم شيئا يا سيدي مما يحدث لي. أصدقائي البحارة هم الذين بادروا وساعدوني على إنجاز هذه السفرة وهم من جمع عند الوصول كل الجوازات لربح الوقت من أجل الخروج بسرعة. إذا كان هذا التصرف أمرا مشينا فأنا أعتذر. نادم على الضرر الذي يمكن

أن أكون قد تسببت فيه بدون تقصد وأعتذر كذلك في مكان أصدقائي. أتحمل هذه المسؤولية بالكامل.

ـ للأسف المشكل يتجاوز هذا كله. نحتاج بالدرجة الأولى إلى معلومات إضافية لاكتشاف شبكة التهريب المرتبطة بالباخرة التي سافرتَ على متنها. على عاتقك الآن تهمتان: الأولى: الجوسسة لمصالح أجنبية لم يتم بعد الإفصاح عنها وتحويل كنوز تراثية وطنية كبيرة باتجاه الخارج.

ـ أنا جاسوس! غير معقول يا سيدي. هذا ليس أمر جدي. جاسوس يتجول في عاصمة بلد لا يعرف عنه أي شيء. هذه مزحة. لستم جديين يا سيدي!

ـ إذن فسر لنا سر وجودك في المنطقة الصناعية!

ـ لا أعرف أبداً هذه المنطقة. وأنا متأكد من كلامي.

ـ مع أن الملف الأمني يؤكد على وجودكما في عين المكان وزرتما حتى الأقبية الخاصة.

ـ عفوا سيدي. لم نكن نتحدث عن نفس الشيء. تقصد المفرغة. طبعا كنت هناك ولا أستطيع أن أنكر ذلك. وضحت هذا من قبل. فأنا صحفي ووجودي هنا لا يبرره إلا شيء واحد هو البحث عن تفاصيل جدي الذي قضى قسطا من حياته بهذا المكان. وقد ذهبت إلى المفرغة لرؤية التمثال النصفي لسرفانتيس وهو موجود هناك ويمكنكم أن تتأكدوا بكل سهولة. تلفنوا لمسيّر المصنع الذي زرناه!

ـ المشكلة معقدة جداً وأنت في وضعية هشة. في بعض البلدان يعاقب مهربو المعالم الأثرية بصرامة قد تصل حد الإعدام.

ـ لكن يا سيدي لست أنا من وضع هذه الآثار في المزبلة.

ـ وهل نفهم من هذا أنك تعلمنا ما يجب أن نعرفه؟

ـ لست كفؤاً لذلك يا سيدي. لكن بلدا مثل بلدكم حرام أن يضيع

هكذا. فهو مهدد بالأمنيزيا ومرض النسيان. بعض مميزاته الثقافية تندثر الواحدة بعد الأخرى تاركة أماكنها للفراغ المخيف. فاللعبة مكشوفة يا سيدي. تسمية المكان مفرغة، حيلة لا تنطلي على أحد.

ـ تحرياتنا تقول أنك متورط في عملية التهريب هذه.

ـ ليس لدي ما أقوله. وإذا تماديتم في اتهامي فلن أتكلم إلاّ بحضرة محامي. قد لا يهمني أمر المفرغة الذي يبدو أنكم تريدون تغطيته. ولكني أصرّ على أن المفرغة ليست مفرغة.

ـ إنها آلاف الأطنان من النفايات التي توفر القوت والحياة لسكان وادي السمار الفقراء.

ـ معي شهود عيان يؤكدون كلامي.

ـ حسيسن مثلا، سنتكفل به، ليست هذه هي المرة الأولى التي يغالط فيها الناس.

ـ الرجل لم يقم بشيء مضر لمصلحة الوطن العليا. فقد قام بواجبه فقط.

ـ هو يشتغل بوزارة الثقافة وله وصاية تحاسبه. على كل حال سنستدعيه بعد أيام لنستمع إليه. لكن كل هذه النوايا الحسنة إذا ثبت أنها حسنة، لا تبرر التجاوزات الخطيرة التي ارتكبتها: الدخول غير القانوني إلى أرض الوطن، الزيارة المشبوهة للمفرغة، الاعتراف بسرقة معالم أثرية وطنية بهدف البيع في الخارج والربح، التواطؤ في عملية تجارية مغشوشة وأخيرا الجوسسة لمصالح لم يتم الكشف عنها بعد. فوق هذا كله، التجول بدون أوراق ثبوتية.

ـ أظن يا سيدي أنه من حقي أن لا أرد على هذه التهم إلا بحضور محام.

ـ هذا رد فعل الذي أخفق في أن يصل بكذبه إلى بر الأمان. حبل الكذب قصير مهما طال. نعرف جيداً الأهداف المبطنة التي قادتك إلى هذا المكان والتي دفعت بك إلى القيام برحلة غير مأمونة العواقب

خصوصا مع الوضع الإستثنائي الذي يعيشه بلدنا والذي يمكن أن يكلفك حياتك.

- أنا واعٍ بمخاطر الرحلة ولكنكم تنسون يا سيدي أني صحفي وأن العمل الصحفي يسكنني. وكتابة مؤلف عن مسار سرفانتيس هو أكبر تحدي في حياتي وأكبر تكريم يمكنني أن أقدمه لأبي وأجدادي. ما عدا ذلك، لا يهمني مطلقا.

- وشبكة تهريب السكر وسرقة المعالم الأثرية الوطنية والجوسسة التي لا يستطيع انشغالك بجدك أن يخبئها. نعدك بأن كل شيء سيتم الكشف عنه بوضوح ولن تكون لك وقتها فرصة الدفاع عن نفسك مثلما هي متوفرة الآن. نتركك لتأملاتك.

ثم ضبّا أغراضهما وغادرا المكان بينما بقيت أنا غارقا في التساؤلات التي لم أجد أجوبة للكثير منها وسط هذا الجو الغريب.

عندما عدت إلى غرفة الحجز الصغيرة والنظيفة. بذلت مجهودا مضاعفا لتذكر تفاصيل الاستجواب ولكني لم أستطع. فقد كنت منهكا وغير قادر على التفكير. فنمت مستغلا فسحة الهدوء.

عندما استيقظت كنت أكثر ارتياحا بعد أن حاولت أن أتخلص من بقايا حلم مزعج لم يستمر. كان المساء. ساعتي تشير إلى السادسة. تذكرت بعض ملامح الكابوس. رجال يلبسون الأبيض ويشحذون سكاكينهم ليذبحوا شخصا كان يشبهني. كنت أتأمل نفسي من أعلى البناية في شرفة حسيسن وهم يمزقونني إربا إربا.

الرجل الذي أيقظني من الكابوس كان سعيدا وكأنني بُرّئت وإياه من جريمة مؤكدة أو من تهمة ثقيلة.

- انهضوا يا سيدي، لدي بشرى سارة لكم.

- ما هي هذه البشرى. هل سأخرج من هذه الحفرة قريبا؟

- تقريبا. بطاقتكم الصحفية وصلت والحمد لله.

ابتسمت، لكن بخيبة كبيرة. فقد كنت أنتظر أن يبشرني بشيء أكبر من ذلك، إطلاق سراحي مثلا.

ـ شكراً. ولكن يبدو أن الإشكال بات أكثر تعقيدا. البطاقة الصحفية مفيدة ولكنها ليست كافية أبدا. سنرى كيف يتطور الوضع.

المحزن في كل هذا هو أن حسيسن الذي يتقاتل من أجل أن إخراجي من هذه الحفر أصبح في وضعية صعبة. وجودي نفسه يعقّد وضعيته المهنية والحياتية.

الرجل الذي أخبرني بوصول البطاقة المهنية سرعان ما أخلى المكان تاركا البقية لغيره ليبدأوا في عملية ترحيلي التي أصبحت عادة مكرورة داخل هذه الحفر. بعد أن أغلقوا عيني، تحرّكوا بي نحو المصعد. لم أشعر بأي شيء إلا عندما سمعت من جديد أبواب المصعد تفتح مرة أخرى لنسير في بهو طويل. استخلصت ذلك من أصداء الخطوات المتقاطعة. والغريب في كل ما يحدث، أني منذ ذلك الخطأ أو سوء التفاهم الذي قادني إلى هذه الفراغات، لم أحس في أية لحظة أن حياتي مهددة وأن الموت قريب. لم أتوقف عن التكرار: ليكن! لم افعل ما يسيء إلى هذا البلد، فلماذا الخوف؟

عندما نزعوا الغطاء من على عيني، أول شخص ملأ عينيّ، امرأة بوجه مريح، شابة في مقتبل العمر، تتوسّط شرطيين يرتديان الأزرق. تلقائيا ذكّرتني بزُرَيْد الموريسكية التي سحرت جدي من على سطيحة السجن. كنا نسير داخل مكان يشبه شارعا نفقيا، واسعا وطويلا ومضاء بشكل جيد بفوانيس ملتصقة بالجدران، في حفر دائرية. ميّزت من جديد وأنا أتدحرج صوت الأمواج الجاف الذي كان يتمزق في مكان ما ليس بعيدا عنّا. بدا لي كذلك أني أسمع السفن الضخمة التي كانت تستعد للرسو في الميناء أو للإقلاع بعيدا.

زُرَيْد، كما أسميتها هي التي أعطت الأمر بالتوغل أكثر داخل النفق. لأول مرة وعلى العكس من السابق لم يعط أحد الأمر بإغلاق

عيني. تركوني تماماً حراً. شعرت في أعماقي بأن شيئاً ما كان بصدد التغير على الرغم من جو الريبة والشك السائدين بهذه الأمكنة. أخذت مكان زُريد بين الشرطيين ثم تركنا أنفسنا ننساب داخل البهو الذي يشبه شارعا. شعرت بأني لم أكن بعيدا عن الأميرالية وربما كنت بالضبط تحت قصر الداي، تحت الشارع الذي كان يحمل اسم الإمبراطورة والذي حدثني عنه حسيسن طويلا ومشّاني فيه.

مشينا طويلا. تسبقنا زُريد بحركاتها المنضبطة وخجلها الذي لم تستطع صرامتها أن تخبئه. لا أحد يكلم الآخر. كان من الصعب علي أن أسجن لساني الطويل داخل فمي.

- هل نحن تحت شارع الإمبراطورة؟

الشرطيان اللذان يلبسان الأزرق لم يحركا ساكنا على الرغم من تبادلهما الابتسامات، لكن زريد ردت بسرعة على سؤالي الذي طرحته بالفرنسية، بلغة إسبانية صافية بدون أن يكون السؤال موجها لها تحديدا.

- هنا، أنت تحت حيطان الميناء القديم لداي العاصمة. وعلى الرغم من انهياراتها في زوايا كثيرة ما تزال واقفة. تسندها بعض الأعمدة التي أُضيفت من طرف الفرنسيين فيما بعد الأمر الذي سمح لها بالوقوف ومقاومة الزمن.

بقيت للحظات أبحث عن كلماتي، لكن هذه المرة كذلك زريد هي التي قطعت لحظة الصمت.

- أنا مترجمتك الخاصة. تستطيع أن تتحدث بلغتك الأصلية والبقية اتركها علي. اسمي مايا وأنا هنا لغرض المقابلة.

رددت تلقائيا وبدون تفكير:

- أية مقابلة؟ قولي استجوابا!

- لم أقل هذا. قلت مقابلة.

ـ في مثل هذه الساعة! ثم ما الفرق بين مقابلة واستجواب؟

ـ لا أدري. هذا ما سنكتشفه مع بعض.

واصلنا السير مدة طويلة. صمتنا من جديد، لا زريد عفواً مايا ولا أنا ولا حتى الشرطيان اللذان كانا يقطعان معنا هذه الممرات الواسعة مثل الأجسام الآلية. كنت منشغلا برؤية الحيطان العارية التي كانت تقاوم على الرغم من الموت والنسيان اللذين كانا يزحفان نحوها بسرعة مقلقة.

لاحظت مايا بسرعة دهشتي وانشدادي.

ـ هذه سراديب ساحة الحكومة العملاقة ويوجد أحد مداخلها على أرصفة الميناء. وبقايا الحصن البحري الذي بني بعد حملة اللورد إكسماوث Lord Exmouth سنة 1816 والمدجج ب 36 مدفعا. جزء مهم من الترسانة العسكرية التركية كان هنا. في سنة 1837 تمت إضافة سراديب ومرتكزات أخرى في الطابق الأول والطابق الأرضي. أعمدة أخرى بثقل تسعة أطنان وبطول عشرين متراً علواً تمت إضافتها لإسناد تمثال الدوق الأرليوني Le Duc d'Orléans. عندما بُدء العمل على ساحة الحكومة، الكثير من المعالم دمّرت ومسجد المسكايسية النادر والتاريخي، لم يشذ عن قاعدة المحو والتدمير.

ـ خسارة ترك كل هذا الغنى للإهمال والموت البطيء.

ـ عقليات الناس والبلدان تختلف من مكان لآخر.

في لحظة من اللحظات نسيت أني كنت سجينا بدون أن أعرف كيف أفسر هذا الإحساس بالانعتاق المفاجئ. جواب مايا أعادني إلى وضعيتي الحقيقية البديهية وأوقفتْ نهائيا النقاش الذي كان يبدو حرا أكثر من اللازم. كان معها كل الحق لأني مازلت أسيرا لايعرف لماذا هو هنا.

قطعنا ممرا ضيقا ثم صعدنا أدراجا حديدية متآكلة من فرط

الرطوبة وملح البحر. فجأة انفتح أمامنا باب كبير ظهرت من ورائه صالة واسعة مضاءة بحميمية، ما تزال تحافظ على طرازها الموريسكي. كانت مليئة بالتنميقات الخشبية والستائر التي تغازل ألوانها المتدرجة غوايات البحر الذي تنكسر عليه الشموس التي ترفض الأفول.

دعتني مايا إلى الجلوس وغادرت المكان. عندما غابت، شعرت بأسئلة كبيرة ما تزال معلقة في الحنجرة. الشرطيان اتخذا لهما زاويتي الركن في الصالة ووقفا هناك باستقامة وانضباط. بعد زمن لا أدري طال أم قصر، رجعت مايا بصحبة ثلاثة رجال يرتدون ألبسة سوداء قاتمة، كل واحد منهم يتأبط كومة من الأوراق ووضعوا كل الملفات على المكتب الطويل.

جلس كل واحد منهم في مكانه. مايا وقفت وراءهم، في الوسط، بحيث يكون بإمكانها أن تسمع الكل وتضع نفسها تحت تصرفهم إذا طرأ طارئ في الترجمة. كل شيء كان جاهزا للمقابلة. أكبر الثلاثة سنا، دعانا إلى الجلوس. مايا كانت تترجم مباشرة كل كلماته من العربية إلى الإسبانية وأحيانا تقلد حتى حركاته لمزيد من التوضيح.

ـ ليقف المتهم.

لم أكن مستعدا للاستجابة لأني في أعماقي كنت أحس بظلم كوني ضحية لخطأ ما، لكن حركة عيني زريد (مايا) دفعتني إلى القيام متجاوزا كبريائي وتساؤلاتي المبهمة.

الرجل الأكبر سنّاً واصل حديثه:

ـ اسمع يا ابني من واجبي أن أبلغك خبرين سارين: الأول هو أننا استلمنا بطاقتك الصحفية وتأكدت أجهزتنا بالمناسبة من وظيفتك الحقيقية. فقد وصلنا فاكس من جريدتك التي أكدت على الهدف الذي ترمي إليه من وراء زيارتك لبلدنا. الخبر الثاني هو تبرئتك من تهمة المشاركة في عملية تهريب السكر. قبطان السفينة نفسه أكد أنه لا علاقة لك بهم وشرح بالتفصيل لماذا قَبِل ركوبك في

سفينته. المبررات التي قدمها كانت مقبولة وفي صالحك. من هذا المنطلق، سمحت أجهزتنا لعضو من طاقم السفارة الإسبانية بزيارتك ابتداء من نهار الغد. لكن يا ابني هناك زوايا بقيت في الظلّ تؤذيك ويجب أن تتعاون معنا لجلائها بالصورة المرضية.

ـ أشكركم يا سيدي. أنا متأكد أن هناك خطأ ما يجب أن يصحح. المسألة أبسط مما تتصورون. أنا إنسان بسيط جداً. واحد من هذه الخلائق التي تصادفونها يوميا في الشوارع المكتظة بالبشر. أنا واع كل كلمة أقولها وأتحمل مسؤولياتي كاملة. يمكنني أن أخطئ في التقييم ولكني لا يمكنني أن أخطئ فيما أريد وأعرف. كيف أكون مناوئا لبلد تهمني كثيراً عافيته، أقل شيء، بيني وبينه تاريخ عائلي مشترك؟ مستحيل. لا أخفيك سراً يا سيدي إذا قلت لك أني أكره السياسة وكذبها كدم الأسنان. أنا بسيط جداً. مخلوق تصادفونه مرارا في زوايا المدينة ولا تنتبهون إليه وهو لا يطلب الشيء الكثير سوى حقه الأدنى في امتلاك عالمه الخاص لا أكثر ولاأقل ومستعد للدفاع عنه حتى الرمق الأخير. فهل أخطأت في هذا يا سيدي؟

ـ المشكل يا ابني أن المسألة أكثر تعقيداً مما تقدمه. هناك وضعية غامضة ستؤثر كثيراً على القرار النهائي الذي سيتم اتخاذه. وجودك في أماكن مشبوهة لا يسهل فهم وضعيتك. ومن واجبنا أن ندفعك إلى الكلام حتى توضح حالتك جيداً وأن نستمع إليك بانتباه كبير ابتغاء لمزيد من العدل، بدون التأثير المغرض على قرارات العدالة المختصة في مثل هذه القضايا وهي التي يعود لها قرار الفصل النهائي قبل أن يوقع المعلم على القرار المُتّخذ بشكل نهائي.

ـ لا أعرف يا سيدي ماذا أقول لكم؟ ليست لدي حجج مقنعة أقترحها عليكم أكثر مما قلته لزملائكم الذين استجوبوني من قبلكم. أجدني مورطا في قضية تتجاوز إمكاناتي الفكرية للتحليل. كلما اقتربت من هذه الحقيقة أجدني أزداد بعدا بسنوات ضوئية. عالم معقد يسير وفق منطق أكبر من قدراتي العقلية. ما أستطيع أن أضيفه

هو أن مرافقي حسيسن، يستطيع أن يشهد عن براءتي ونبل مشروعي. إذا أعطيتموه فرصة الكلام، سيقول كل الحقيقة. هو إطار في وزارة الثقافة.

ـ هل تعرف أنك بحديثك عن هذا السيد الموضوع تحت رقابة أجهزتنا منذ مدة، تسبب الأذى لنفسك؟ وضعيته أكثر إشكالية. أتساءل لماذا تحتفظ به وزارة الثقافة حتى الآن وهو يعمل بشكل معلن على تدمير قيمنا وفتح الباب على مصراعيه أمام أعداء الأمة والمغامرين. لدينا سوابق مع أناس يشبهونه ولهذا لا نترك أي شيء للصدفة. على كل، المعروف عن هذا الرجل أنه يدمر كل الأماكن التي يمر عليها ولا يترك بها إلا الخراب بأيديولوجيته الشيوعية. في الجامعة خرب عقول الكثير من أبنائنا الطلبة قبل أن يُطرد شر طردة منها. للأسف، بمعارفه وتواطؤات الكثيرين استطاع أن يصل إلى وزارة الثقافة. حساسية الناس تجاه هذا الشخص كبيرة، حتى البوابون لا يطيقون رؤيته.

ـ يبدو يا سيدي أننا لا نتكلم عن نفس الشخص. أتحدث عن إنسان بسيط، متواضع ويسمى حسيسن لأن جدته تريده هكذا. هو المسؤول الأول عن العلاقات الإسبانية ـ الجزائرية.

ـ لا يوجد في وزارة الثقافة آلاف حسيسن. واحد يكفي لتخريب عقلية أمة بكاملها. أليس هو من اقترح عليك زيارة المنطقة الصناعية؟ مسكين أنت كذلك فقد سحرك بلسانه الأفعواني.

ـ لم يفعل شيئا مضراً، سوى أنه اقترح عليّ زيارة المفرغة الوطنية لهدف واضح يهم بحثي وتقصي للحقائق المتعلقة بحياة جدي سرفانتيس في هذه المدينة. اعترف له بالعلم والمعرفة في اختصاصه.

ـ لا يبدو عليك أنك ساذج كما تلح على إظهار ذلك. مستوى وعيك المفروض أن يمنعك من السقوط في شرك هذا الرجل. أنت كذلك كنت ضحية لكذبه بدون دراية منك. الأخطر من هذا كله أنك

أصبحت طوع أفكاره. نحن حذرون دائما. أنت تعرف أن الجزائر تعيش تجربة جديدة ونحن مضطرون بعدم التهاون في أي شيء. الكثير من البلدان تحسدنا بتواطؤات داخلية وينتظرون أول انزلاقة لينقضوا علينا. يحسدوننا في كل شيء، حتى في ثورتنا التي حررتهم وغيرت وجه العالم.

فجأة تذكرت كلمات صديقي حسيسن الذي تُحضَر له قيامة أسوأ من هذه التي أعيشها: ثورة عظيمة يمكنها أن تصير لا شيء إذا وجدت نفسها بين أيدي الفاشلين مثلما يحدث عندنا. غيرت جزءاً من وجه العالم ولكنها أخفقت في تغيير مصائر الملايين من الناس الذين وُعدوا بالجنة الوهمية.

بدأت أغرق في كلماته وكأن هذا الرجل كان يدفعني بشكل مغناطيسي نحوه. لكن أكبر الثلاثة سنا أعادني إلى الحقيقة المرة.

- الجزائر، البلد العربي الوحيد وربما في العالم الثالث بكامله، الذي يدفع ثمن ديموقراطيته غاليا بالألم والمآسي. في عالم اليوم الفاتورات صارت مرتفعة.

كان الرجل يقول كلاماً حقيقياً وصحيحاً ولكن به خللاً ما. لغة الخشب من الصعب ابتلاعها وتحملها، كان يتحدث ويتوقف للحظات وكأنه ينتظر مني تعليقا يؤكد ما كان يقوله.

- نعم يا سيدي، هذا البلد يستأهل قدرا آخر غير القدر التراجيدي الذي فُرض عليه.

فجأة غير مسار حديثه مثل جرم محروق ضاع فجأة في عرض سماء بليدة.

- التراجيديا هي ثمن المصائر الاستثنائية. قل لي وسأصدق ماتقوله، ألا تتاجر بالمعالم الأثرية؟ اعترف وأعدك من جهتي بحفظ السر ولن تكون هناك متابعات قضائية.

- طبعا وأستطيع أن أوقع على ذلك مغمض العينين.

بدون تردد طلب مني التوقيع على ورقة مليئة بالبياض.

ـ إذن ماذا كنت تفعل بهذه المفرغة؟

ـ لا شيء مهم. كنت أريد أن أتحصل على صورة اللوح الرخامي لأنه وبسبب ظروف غريبة لا أعرفها كانت توجد هناك بينما مكانها الحقيقي، المتحف الوطني. فهي تراث إنساني قبل أن تكون مسألة فردية.

ـ أجهزتنا سترى ذلك كله عن قرب. النظام السابق دمر كل شيء في هذا البلد. حتى رموزنا الوطنية ديست بدون هوادة. هو عمل تخريبي منظم بإحكام.

مرة أخرى قفز أمامي وجه صديقي حسيسن وهو يحاول أن يتفادى جُمل الرجل العجوز التي تشبه لازمة شعر رديء مفروض على الناس سماعه بالقوة. ظهر حسيسن بوجهه الطفولي وبكلماته النادرة والقوية.

هم نفس الأشخاص الذين كانوا يقولون قبل ثلاث سنوات أن الشعب غير محضر لاستقبال الديموقراطية وأن التعددية الحزبية ستقوده حتما إلى الحرب الأهلية وأن نظامنا قوي والأفضل في العالم لأنه مبني على الصخ. فجأة أصبح نفس الناس يتحدثون عن النظام السابق الذي كان معاديا للديموقراطية والذي تكلس ولم يعد قادرا على العطاء إلا بهزة عنيفة. في هذا البلد هناك أمنيزيا أصابت الجميع ولهذا لا يمكن أن يوجد عقل نقدي.

لم يكن بإمكاني أن أواصل الاستماع إلى خزعبلات الرجل بدون استحضار كلمات حسيسن.

ـ أخطر شيء لا يقبل به هذا البلد هو التدخل في شؤونه الداخلية. ما قمتَ به للأسف لا يمكن إلا أن يحسب كذلك. لنا نظامنا ولنا ديموقراطيتنا الخاصة المستوحاة من قيمنا العربية ـ الإسلامية والنضالية التي لا يستطيع الغربيون فهمها بسهولة.

- ولكن يا سيدي لم أتدخل أبداً في الشأن الخاص لهذا البلد. ولاأهتم إلا بما يخصني.

- أعرف. وأصدق ما تقوله. ولكني لا أستطيع أن أخبئ أخطاءك، فهي كثيرة.

- هي أخطاء لا أنكرها، أتحمل كل تبعاتها ولكن أبعدوا عني تهمة الرغبة في أذاء هذا البلد العزيز علي. فهذا غير صحيح مطلقاً.

مايا لم تكن تفعل شيئا سوى ترجمة كلام أكبر الثلاثة سنا. الرجلان الآخران لم يقولا أي شيء ولكنهما سجلا كل كلامي. حتى عندما وقعت الورقة التي قدمها الشيخ، واصلا تسويد الأوراق التي كانت بين أيديهم. يبدو لي أن مهمتهم لا تتجاوز ذلك.

تواصل الاستجواب العبثي طويلاً. سمعته وتحملته بملل.

مايا لم تتحرك أبداً من وضعها إلّا عندما غادر الجميع المكان. ظلت مستقيمة كَسُور على الرغم من التعب الذي يقرأ بسهولة في عينيها اللتين قلّ إشعاعهما.

ولم أرتح إلّا في ساعة متأخرة من الليل.

مدينة الجزائر، يوم الأحد

يبدو لي أن وضعي قد تحسن قليلا منذ البارحة بالقياس إلى حالة الموت الأولى. الكثير من المشاكل بدأت تجد حلولها نظريا على الأقل، وإن ظلت التساؤلات المركزية قائمة. يغمرني أمل كبير لمغادرة هذه الحفرة أخيراً.

لأول مرة منذ أن وجدت نفسي رهين هذه الدهاليز، يزورني شخص من الخارج: الملحق الثقافي للسفارة الإسبانية كابييرو. كان مرتاحا وهو يكلمني ويستمع إلي. اكتشفت فيه رجلا شهما. منذ اللحظة التي رآني فيها، عرف بأني بريء من كل ما أُلصق بي من

تهم. قبل أن يغادرني سلم لي رسالة من حسيسن الذي لم يتوقف عن السخرية على الرغم من أن وضعه لم يكن بأحسن من حالتي. تحدث عن أخبار حنّا التي لم تنس أندلسها. ما زالت تؤمن أن غيابي راجع لتلبيتي لدعوة أشراف المدينة الذين أصروا على بقائي بينهم مدة من الزمن وأنني أعيش في قصر واسع وأستقبل كل مساء التكريمات والترحيبات. شيء مهم بالنسبة لحنا. امرأة أليفة وحساسة كأني أعرفها منذ زمن بعيد.

المجهودات التي بذلت لتغيير وضعيتي، قد أثمرت، إذ بفضلها بدا كل ما كان يبدو صعبا ممكن المنال. تدخلات كباييرو أبعدت قليلا تهمة الجوسسة والتآمر وتحركات حسيسن لإخراجي من منافي العزلة. لكن الشبهات لم تمحَ كليا وهو ما يحزنني.

بعد خروج كباييرو، عاد الصمت من جديد يملأ فراغات هذه الصالة الواسعة. حتى زريد (مايا) التي كانت تظهر من حين لآخر مثل الضوء الهارب غابت كلية. الشرطيان ما يزالان في مكانيهما مثل تمثالين من رخام أزرق. وجودهما وحده يعمق حالة العزلة والوحدة والانتظار المزمن. الغريب في هذين الشرطيين لا يمكن أن نمر أمامها بدون التوقف قليلا عندهما. متشابهان كقطعتي ثلج. لهما نفس الحضور، نفس الطاقم، نفس الوجه، وإذا لم أكن مخطئا نفس ردود الفعل. قد يتشاجران لأسباب تافهة وبنفس الطريقة.

في حلمي المكسور رأيت زريد (مايا). كانت تلبس لباسا موريسكيا مثل الذي ترتديه حنا. واسع ومزركش. كانت تبدو سعيدة في هندامها الذي كان يكشف عن معالم جسد فاتن.

فجأة سمعت صوتها، وهذه المرة لم أكن أحلم.

- إذا احتجت إلي أرجوك أن لا تتوانَ بطلبي، فأنا رهن إشارتك. وقبل أن اصرخ في وجهها: أحتاجك. انطفأت بسرعة باتجاه القاعات الأخرى المتداخلة مع الصالة.

مددت يدي إلى صحيفة الوطن التي سمح لكباييرو بإدخالها لي.

فتحتها. حاولت أن أتواصل مع الأخبار التي انقطعت عنها منذ دخولي هذه الحفرة. الصحيفة هي وسيلتي الثالثة لكسر هذه العزلة القاسية، بعد اللقاء مع كبابيرو ورسالة حسيسن. أثار اهتمامي خبر موضوع في زاوية مهملة: *بفضل نباهة قوات حفظ الأمن العمومي، استطاعت هذه الأخيرة بمؤازرة الجمارك أن تحبط محاولات مجموعة من الأجانب كانت تهدف إلى التخريب والتجسس على الاقتصاد الوطني*. وفي إطار صغير، في الأسفل، خبر محوط بإطار عن اغتيال رجل أعمال إسباني. بدون تفاصيل ولا شرح. شيء ماكان يحيرني. شعرت في لحظة من اللحظات أن هذه الإعلانات المقتضبة كانت تعنيني بشكل ما من الأشكال. كنت في حاجة ماسة للحديث لأي شخص ولكن لم يكن هناك إلّا الصمت والشرطيان المصنوعان من الرخام الأزرق.

بدأت أهذي كالعاشق الذي ضيع الصواب.

مايا..أيتها الضوء المتسرب بحلاوة عسلية، غيابك ترك فراغا كبيرا. تمنيت أن اقول لك: مايا.. زريد.. لالة مريم.. أينك ايتها السيدة العالية. اريد ان افضي لك بما في القلب. اشعر بأنك الوحيدة القادرة على فهم هذا الجرح الفج الذي فُرض عليّ.

كنت جالسا في الصالون الفارغ، في الزاوية المخصصة لإقامتي التي تشبه السجن ولكنها ليست كذلك، لا عمل لي إلّا الانتظار واستعادة التساؤلات القاسية وفلي الصحيفة اليومية. فجأة

شعرت بظل ناعم يعبرني ويدثرني.

كانت هنا بابتسامتها الساحرة وسخريتها المبطنة.

ـ أنا هنا، إذا احتجت لأي شيء أطلبني. فهمت؟

ـ نعم. فهمت جيداً وأحتاج إلى شيء.

ـ طيب. أنا تحت تصرف حضرتك.

ـ احتياج بسيط. لا يكلف مشقة كبيرة. أريد فقط أن أتكلم.

ـ طبيعي. أنت صحفي ومن حقك أن تتحدث، خصوصا مع هذه العزلة التي أتمنى أن تكون مؤقتة. يبدو أن مشكلتك في طريقها إلى الحل. مع زيارة الملحق الثقافي والسماح بإدخال الصحف، الوضعية تسير نحو انفراج أكيد. يبدو أن صديقك حسيسن لم يقصر أبداً في حقك. لم يهملك أبداً.

ـ ما يزعجني هو أن كل ما يقع لي الآن عبارة عن حماقة لامعنى لها. لم أسيء لأي شخص ولا لهذا البلد الطيب.

ـ يا سيدي كل شيء سيتحول إلى ذكرى. عموما القصص العظيمة تبدأ دائما بحماقة لا معنى لها ثم تصبح شيئا مثيرا. ما دمتَ بريئا لا تحمّل الأمور أكثر مما تتحمل.

ـ حالة الانتظار الفارغ مؤذية كثيراً. حلق جاف وعين على سماء لا تمطر أبدا.

ـ نحتاج إلى الإيمان بأن السماء ستمطر حتما وإلا الأفضل لنا أن ننتحر. حالة العبث لا تقاس بالعقل ولكن لها منطقها الخاص الذي يقتضي منا البحث عنه في كل الأصقاع. أنا مثلا، لم أفكر يوما أن أقضي حياتي العملية هنا ومع ذلك هذا ما حصل بالفعل. على كل لست نادمة على الطريق الذي سلكته. في البداية اخترت دراسة الطب مع الاحتفاظ بتعلم اللغات: الإسبانية والإنجليزية اللتين كنت قد بدأت تعلمهما في وقت مبكر بالإضافة إلى العربية والفرنسية اللتين زودتني بهما المدرسة. لكن سوق العمل الوطنية الفوضوية والمسدودة جعلت من مهنة الطبيب رديفاً للبطالة على الرغم من النقص الفاضح في كل القطاعات خصوصا مع انفجار النمو الديموغرافي الذي لا تضبطه أية ضابطة في بلدنا تحديدا. في يوم من الأيام وأنا في حضن البطالة، نصحني أحد الأصدقاء بالمشاركة في دورة تعلم اللغات التي لم تكن لتكلف شيئا ومساعِدة على مراجعة مخزوني اللغوي الذي بدأ يضيع من قلة الممارسة. وتسارعت الأحداث. قرأت ذات مرة وبمجرد المصادفة، إعلانا يتعلق يتوفر

مناصب عمل في قسم الترجمة شرط الفوز في المسابقة. شاركت بدون آمال كبيرة ولا حماس استثنائي. ثم دُعيت بعدها للمقابلة. لم يكن الأمر صعباً أبداً. وسلكت هذا الطريق الذي أوصلني إلى هذا المكان. منذ أكثر من عشر سنوات وأنا أمارس هذه المهنة التي أحببتها بقوة وارتبطت بها. أتعلم الآن اللغة الألمانية لتنويع مجالي العملي. أحب اللغات كثيراً وكل واحدة تفتح أمامي عالما كان مسدودا بعدم المعرفة. لكن داخل هذا، هناك لغة واحدة تملأني لأنها جزء من دورتي الدموية. يجب تفادي المنفى اللغوي. فهو منفى رهيب يوقظ فينا الرغبة الدفينة للإنتقام العنيف من الأم. لا يمكن ردم الهوة العميقة التي يفتحها هذا المنفى. صارت اللغات اليوم عالمي الذي أعيش فيه ويعيش في. العمل هنا ليس شاقاً. لا أشتغل إلّا عندما يكون هناك زبائن وإلا فأنا أقضي الوقت هنا في القراءة بنهم العطشان أو ترجمة الوثائق الخاصة التي تصل المعلم من مختلف الأماكن والأنحاء وأحفظ سرها. عمل مثل هذا يستوجب الثقة وإلّا لن نستطيع أن نتحمله.

ـ لكن اختيارك ليس سيئا إلى هذا الحد. ولم يكن نزوة عبث.

ـ العبثي في كل هذا هو أننا عندما نكتشف فجأة أن تكوين العشر سنوات لم يجد نفعا. وسلكنا طريقا لم يدغدغ أحلامنا الطفولية أبدا.

ـ يا مايا، أنت مدهشة. تذكرينني بشخصية نسائية عند سرفانتيس...

ـ من؟ زريد؟ لالة مريم؟ كما ترى لست جاهلة بجدك إلى هذا الحد. يبدو لي أن قسوة الأسر لا تتلخص في الحجز ولكن في آليته الجهنمية، فهو يعمي البصر والبصيرة. جدك مثلا لم يفهم هذه البلاد جيداً والكثير من تفاصيلها الحميمية تسربت من يده. الدين عماه إلى حدود عالية. جعل من زريد صورة لقلقه وارتباكه وكان بإمكانه أن يجعل منها مادته الأدبية للتسامح الديني. انظر مثلا، أنت هنا في

هذه الزاوية، يبدو لك أنك تعرف الكثير ولكن عماء الحجز جعلك تلغي العالم الذي يحيط بك ويعبرك وعليك أن تبذل مجهودا لتلمسه في العمق، فهو لا يسلم نفسه بسهولة. أشياء كثيرة لا تراها ولا يمكنك أن تراها والحالة هذه. هذه الصالة التي تقيم فيها لو كانت الظروف عادية لن تطأها أقدامك أبدا. هي صالة الاستراحة الكبيرة التي كان يقيم فيها كبير البحارة، الرايس، كلما عاد من عناء البحر. بعض المؤرخين يقولون أن خير الدين هو الذي أسسها وبناها حجرة حجرة يوم اتخذ القرار الخطير بمواجهة الأسبان الذين استولوا على جزيرة *البنيون* Le Penon.

- لا أعرف عن هذه الجزيرة شيئاً.

- جزيرة صغيرة تقع في مواجهة مدينة الجزائر استولى عليها الإسبان الذين كان يقودهم بيار دي نفار Pierre de Navarre وسمى المكان الصخرة الكبرى. وبنى به حصنا منيعا مدججا بالمدافع التي صارت تهدد مدينة الجزائر وحدت من حركة سفنها وأشرعتها وفي الكثير من الأحيان كانت تمنعها من الرسو وتضطرها إلى التوقف بعيدا، من ناحية شاطئ باب الوادي أو في الزاوية غير الآمنة، بجانب نخلة باب عزّون بالقرب من مقام الولي الصالح سيدي عبد القادر. *شوكة مغروسة في قلب المسلمين* كما كان يسميها انكشارية ذلك الزمن. ولهذا صمم خير الدين تخليص المسلمين من هذه الشوكة. في البداية حاول أن يفاوض مقترحا استسلاما للحامية الإسبانية ومغادرتها المكان سلميا بأسلحتها، لكن المقترحات رُفضت من القائد مارتن فارجاس Martin Vargas. في المرة الثانية بعث خير الدين القائد والي ومعه مقترحات جديدة، رُفضت بدورها. ولم يبق أمام خير الدين سوى إعلان الحرب بعد أن ضَمِنَ البارود والذخيرة التي كان يأتي بها الإنكشارية من جزيرة جربة الذين استولوا على سفينة من البندقية مملوءة بالعتاد الحربي. وفي 7 مايو بدأ الهجوم. القذائف الأولى لقوات فارجاس مست الدور العالية خصوصا جامع البحرية. رد الفعل المضاد كان عنيفا: تدمير

الأسوار وتحطيم أجزاء مهمة من القلعتين. فارجاس استنجد بالإمبراطور شارل كينت Charles Quint من أجل الحفاظ على هذا العقب مغروسا في نحر المسلمين، ولكن الإمبراطور كان مايزال منشغلا بالتتويج في إيطاليا وبدل أن يتحرك شخصيا، أعطى أوامره للسفن الحربية الراسية في موريس وقرطاجنه لتتوجها صوب الجزائر محملة بالعساكر ومجهزة بأحدث الأسلحة. لكن هذه السفن لم يكتب لها الوصول فقد تم الهجوم عليها في عرض البحر وحُرفت عن مسارها. وظل المحاصَرون في حالة قلق دائم، ينتظرون يوميا قدوم السفن التي لا تصل أبدا. يفتشون بعيونهم البحر الذي تتكسر عليه الأشعة، والآفاق المغيمة بدون جدوى. في أحيان كثيرة يرون أسطولا بقوامه ومدافعه لكن سرعان ما يتكشف وراء السحابة الضالة، سراب وأشعة منكسرة حوّلها التعب والشمس الحارة إلى سفن وهمية. وفي صبيحة 27 ماي بدأ خير الدين زحفه المظفر باتجاه البنيون على رأس السفن الحربية والشراعية المعدة لغرض الحرب محملة بألف مهاجم بهلواني مختص ومئتي قوّاس موريسكي وكم كبير من البحرية. في حوالي منتصف النهار، استطاع الجزائريون أن يتوغلوا باتجاه الشاطئ الصغير الذي كان يمتد على طول البنيون. أثناء الهجوم الأول، جُرح فارجاس وتم سجنه هو وضباطه وثلاث نساء، إحداهن مُنحت للقايد رمضان، الثانية وهي من مايوركا، ستصبح حماة حاج مراد وجدة زوجة المولى مالك ملك فاس. وبأمر من خير الدين تم مسح الحصن بكل قلاعه المتبقية بينما أُعدم فارجاس بالخازوق في الجنينة.

ـ والعبث داخل كل هذه القصة؟

ـ كل القصة من أولها إلى منتهاها. أولاً كان يجب على فارجاس أن يقبل بعرض خير الدين ويخرج سالما. شارل كينت فضل تاجه على أتباعه وجنده. ثم هذه النساء ذات المصائر العجيبة، من السبي والقنانة إلى أمهات لقادة أتراك ووريثات لراية الإسلام... شيء ما في التاريخ البشري يسير بشكل مقلوب ولا منطق له إلا

منطقه الخاص. العالم صغير لأننا في نهاية المطاف لا نفعل شيئا سوى إعادة إنتاجه باستمرار ولو بلمسات جديدة لا تغير الشيء الكثير في العمق. ولهذا فتحسنه بطيء وأحيانا يصير مستحيلا. كما ترى يا عزيزي لا يمكنني أن أكون زريد التي تشتهي أن تراها حتى ولو أردتُ ذلك.

ثم قامت من مكانها.

كانت جميلة. كلامها المتزن ذكرني بحنّا وقصة المرأة التي لا هاجس لها إلا حماية الذاكرة من التلف والتسرب والضياع. تحتمي يوميا بالظلال حتى لا يراها الراؤون وتدفن حية. مايا مثل حنّا، عندما تتكلم تتحول فجأة إلى حارسة للظلال وتبدأ في انتظار خويا حمو الذي يغطيها بالكلمات والدفء.

- أتركك الآن. إذا احتجت إلي أنا موجودة رهن إشارتك.

- شكرا على كل شيء. لأول مرة لا أشعر بنفسي سجينا.

- لم أقم إلّا بما يمليه علي عملي.

عندما فتحت عيني، كان رأسي مايزال ممتلئا بقصة البنيون الثقيلة، بينما زريد كانت قد اندثرت داخل هذه الفراغات الغامضة.

ربما تكون حارسة الظلال قد عادت إلى ظلمتها.

مدينة الجزائر، يوم الإثنين

أظن، بل متأكد تماماً بأن الوضعية تغيرت رأسا على عقب. لأول مرة لم يحولوني من إقامتي كما تعودوا فعل ذلك باستمرار. صرت أتحرك بحرية أكثر وإن ظلت عيون الشرطيين الرخاميين متفتحة عن آخرها وتتلصص كل حركاتي حتى البسيطة منها.

وصلتني صحف اليوم في وقت جد مبكر وهذا مؤشر إيجابي. لكني في هذه الخلوة المقلقة، لم أستطع نسيان زريد التي أراها

دوما في وجه مايا المليء بالنور والبراءة. البارحة زارتني في إغفاءتي. ملأتني. أظن أنها ليست امرأة عادية في هذه السراديب. هي أكبر وأهم مما تظهر. أقنعتني بعبثية ما يحيط بنا ونظنه حقيقة مطلقة. تحررتْ في حضرتي وتحولتْ بكل بساطة إلى دليل وكأنها تريد أن توصل لي حيرتها وجمال هذا البلد الذي يظل مخبأ في الظل حتى يجي خويا حمو ويكشف سره ويحفظه من تلف المطر. مايا امرأة مليئة بالنبل والدلال والعظمة. مع أن الذين يشتغلون في هذه الأمكنة يتكلمون أقل من العادي حفاظا على أسرار الدولة. أي سر تخاف عليه هذه الدولة مني؟ لم أطلب شيئا. أصلا لا أريد ان اعرف شيئا، أريد فقط أن أعرف النشيد الدنيوي الغائب وسط جو مقلق لايعطي إلا الإحساس بالخراب. لا شيء يمنع من قص التاريخ خصوصاً عندما تكون المسافة الفاصلة بيننا وبينه كبيرة. مثلا قصة سرفانتيس، الجد العجوز الذي مر بجانب مدينة بكاملها. المسكين لم يعرف كيف يلامس جوهر زريد، سيدة الشأن والذهول والزمن الآخر الذي لم يكن معنيا بالحروب الدينية المفلسة وبالأحقاد. كانت موريسكية ولكنها ممحونة بأشواق لالة مريم.

استغرقت جزءا مهما من الليل في تدوين رؤاي في الكوريدلّو وفي استعادة وجه زريد (مايا) التي تحولت إلى قصيدة جميلة. فكرت فيها كثيراً وفيما قالته لي وما أرادت أن تقوله ولم تستطع. نعم. الأحقاد الدينية عمياء، لأن الدين في ممارساته الفعلية شديد العمى والضرر. وأنا أدون، شعرت بالأحجار الكلسية تتفتت في داخلي في صمت مطبق يشبه السكينة المفاجئة التي تصحب عادة الموت. من حين لآخر يأتيني صوت موجة قادمة أسمعها تتمزق على جدار ذاكرتي التي تقاوم لغة الصمت المفروضة عليها ولا أُلزم نفسي شطط البحث والتأكد من مآل الموجة. هل ماتت في عرض البحر آخذة معها أسرارها أم أنّ شيئا آخر غير دقيق يقع على الحافة الفاصلة بين الحقيقة والخيال. بينهما يوجد حجاب رهيف وشفّاف.

أتدحرج باتجاه عمق الصالون. ألمس المكتب الذي وقف عليه

الرجل الذي ظل يقاضيني بشكل خرافي. كان مكان الجميع فارغا. الفراغ كان يعمق بلمسته السحرية حالة عدم الانسجام والأسف. لانوافذ للتهوية. كل شيء مغلق ولكن مهوّى من مكان ما بشكل جيد. نحن في أعماق الأرض على بعد كبير. لا يمكننا أن نفكر في الهرب ولكن نفكر على الأقل في البحث عن شخص نحدّثه ويُحدثنا.

دخلت مايا إلى الصالون. وضعت منديلها على مكتب القضاة الثلاثة وقصدتني مباشرة:

ـ كيف حال ضيفنا العزيز؟

ـ ضيافة غريب هذه!

ـ لن تقول لي بأنك سجين! وضعيتك تحسنت كثيراً. ننتظر الآن فقط القرار النهائي للمعلم. لا يوجد أي مبرر لإبقائك في هذا المكان. على كل حال أنت لم تخسر شيئا في تصوري. لقد اكتشفت ما لن يكون بإمكانك مطلقاً اكتشافه في الظروف العادية. تماماً مثل جدك عندما مست قدماه تربة هذه البلاد، وعلى الرغم من ضيق رؤيته لمدينة الجزائر، فقد ظل أسير حلم لم يكشفه إلا لأقربائه وللهيدالجو Hidalgo دون كيشوت الذي أثقله بجنونيات وحماقات الفنان المجبر على تخبئة أعمق ما يشغله. هكذا كانت الدنيا في زمانه. آلة محاكم التفتيش أحرقت ناساً بتهم أقل مما كان يفعله سرفانتيس. حالة مثل التي تعيشها الآن عليها أن تفيدك وإلا لا قيمة لها.

ـ معك حق. بل أن قناعتي ازدادت أكثر أن هذا العالم لم يتغير إلّا قليلا. جوهره بقي هو هو. جدي قبل أربعة قرون كان في مغارة تنز بالرطوبة والماء. لم يستطع فعل شيء سوى الانتظار والتوغل بعينيه في بحر أزرق دوما يتمنى أن يركبه في أقرب الآجال ويحرره من سحر لا يدري إذا كان عليه كرهه أو حبه؟ ما الفرق بيني وبينه، كلانا أعماه انتظار اللاّشيء.

السر الكبير في هذا البلد هو قوته اللامتناهية على التجدد

والولادة. من أشلائه وآلامه يعيد خلق نفسه باستمرار. في اللحظة التي يظن فيها الجميع، الأصدقاء والأعداء، أنه انتهى، ينشأ من رماده. لكن مأساته الكبرى هي فشله في تسيير شؤونه بقوة. يصل إلى البوابة بعد موت وحرائق مدمرة ثم يقف عند البوابة هادراً الفرصة التي لا تتكرر، ليعود مثل سيزيف إلى صخرته الثقيلة.

ـ هناك أشياء لا تحتاج إلى قوة في التسيير أو تفكير استثنائي. مغارة مثل مغارة دون كيشوت يمكنها بمجهود بسيط أن تصير مَعْلماً تارخياً مهماً ليس في البلد وحده لأنها تراث إنساني، بحد أدنى من الاهتمام. أظن ان حضور الدولة منعدم وإلا لما وصلت إلى تلك من الحالة من التردي. كل شيء في هذا البلد مدهش، الألوان، الناس، الحركة، الأطفال، ورود الرمل والزمن الذي تختزله، فقد تراكمت حبة حبة عبر القرون وداخل العواصف والرياح الرملية العاتية حتى صارت كيانا حيا. البحر نفسه في هذا البلد ليس اعتياديا، وحده يجعل الحياة ممكنة لهذه الوجوه وهذه النباتات ذات الخضرة الأسطورية ويعطي للشجيرات التي لا تاريخ لها أريجاً فيه من رائحة موجه وألوانه وانكساراته.

ـ هذا هو الشيء المؤذي في هذا البلد. الكثير من علاماته الواصلة تضيع أو ضاعت. انظر مثلا أشجار الجزائر العتيقة التي تملك نفس تاريخ الذين صنعوا أمجاد هذه الأرض ونبلها، ماذا بقي منها؟ لو بقيت حتى اليوم لأعطت نسغاً جديداً للتاريخ. أينه البلاطان الكبير الذي كان يظلل، في القصبة، إقامة الدايات والذي ترجعه الأسطورة إلى عهد بربروس Barberousse. ورمان حيّ لالّهم والجنينة؟ وشجرة التين التي كانت محاذية للقصبة بزنقة الصفصاف، ماذا بقي منها؟ ونخلة سيدي عبد القادر التي ياما نشرت ظلالها وتمايلت بكبرياء في مواجهة منحدرات المدينة التي يؤمها بائعو الجمال القادمون من جنوب البلاد، وزيتون الحامّة وحي الينابيع. بعيدا، تتسامق أشجار الصفصاف والحَور الإيطالي الذي يكسو سواقي بيرمراد رايس. ونخلة سيدي عبد الرحمن المهيبة

والسرو الذي يحاذي عمره سن الولي الصالح. وجوزة جامع القبايل سيدي رمضان العتيقة التي تغطي أغصانها فسقية الوضوء التي يتجمع حولها يوميا آلاف المؤمنين لتطهير أجسادهم قبل الدخول على الولي الصالح... كل شيء اليوم اندثر. حتى الأماكن الرمزية غطتها البنايات العالية لتصبح المدينة كيان بدون ذاكرة. عقلية المحو والفراغ سحبت كل شيء في إثرها. مع أن هذه المدينة شيء آخر. فقد اختلطت فيها كل الدماء والألوان: الموريسكي واليهودي والمرتد والمسيحي والعلماء القادمون من كل الأصقاع الأوروبية وشذاذ الآفاق والعاشقون وغيرهم... مجتمع أكثر تعقيدا مما يبدو في مظهره، المستحيل فيه ممكن والممكن فيه مستحيل. مدينة مثل الضوء الهارب، كلما ظننا أننا كمشناه، تسرب بسخرية من بين الأصابع. ثم فجأة، ذات صباح، وجدنا أنفسنا في مواجهة مدينة منغلقة على نفسها لا نعرفها، تتنكّر لنا باستمرار. حاقدة علينا وعلى جوهرها وتاريخها.

ـ المدن لا ذنب لها. فهي دائما ملتقى الألوان اللامحدودة والجمال الأخاذ، الناس هم الذين يخربون كل شيء بحقدهم ومصالحم الصغيرة ويحولون الحدائق إلى مقابر.

ـ كل شيء مرتبط بالتربية التي يتلقاها الناس. ببساطة يمكن أن نجعل منهم عشاقا لمدنهم أو قتلة يمحون كل أثر للحياة. وحشنا، نحن الذين خلقناه وربيناه وكسوناه وأطعمناه حتى بلغ سن القتل فصفانا واحدا واحدا. جاءنا من حيث لم نكن ننتظر: من جهلنا وإصرارنا المستميت على النسيان والمحو. لا أحد مسؤول غيرنا. تاريخنا الغني بكل التناقضات منحنا فرصة تشييد بلد متعدد ومتسامح ولكننا أهدرنا كل الفرص وسنضيّع البلد نفسه إذا لم نتدارك الوضع من الآن. لا نحصد إلّا ما نزرع. حبنا وحده لهذا البلد لم يعد كافيا لإنقاذه من الهلاك. بدل استقبال الحياة كل صباح بمزيد من الإصرار على التأمل والحب، نواجهها في كل الأوقات

بالموت والخوف وكل واحد منا يصنع مصيره ويداري هذا الموت الذي ينتظره في كل الزوايا.

- حالتك الأمنية لابد أن تكون صعبة في وضع مثل هذا؟

- بوف المسألة الحتمية التي نكررها يوميا. لست حالة معزولة. امرأة كل الصباحات، تعيش في ظل مجهول، عارية إلا من صراخها وإصرارها على الحياة، لا ملاية لها لتغطية الأموات الذين يسقطون يوميا إلّا ذراعيها وذاكرتها الموشومة بالآلام والخوف. لم أعد أقيم في بيت الأهل. لقد أصبح كل الناس يقيمون عند كل الناس. أمر عسير فهمه، أليس كذلك؟ أرأيت يا صديقي لست حتما زريد التي تتشوق لإسقاطها علي! والتي كان جدك، قبلك، يشتهيها لدرجة أنه خلق لها وجهاً آخر ودينا آخر. أنا زريد الحياة اليومية، البسيطة المعلقة على منقار عفريت وتعني التسمية في لغتنا العقد الذي يشع من بعيد أو الدرة ذات الألوان المتماوجة التي لا يمكن حصرها والتي تزيد صدر المرأة جمالاً.

- طيب ولماذا هذا الإصرار؟ لماذا لا تغادرين هذا البلد ولو بشكل مؤقت؟

- لأذهب إلى أين؟ المنفي ليومين مجرد كذبة جميلة نخلقها لنعطي مبررا لخروجنا المحزن. هل رأيت منفيا عاد إلى الوطن بعد يومين؟ عندما نقبل بالمنفى ننكسر قطعا قطعا مثل البلّور ولنتجمع من جديد نحتاج إلى الكثير من الصبر وأي صبر عند المنفي لإعادة ترميم ذاته؟ قدري هنا، علىهذه الارض التي أكلت لحم أجدادي العقلاء والمجانين، المؤمنين والمرتدين، الإنكشاريين والموريسكيين، اليهود والمسيحيين والمسلمين، الفينيقيين والبرابرة، الوندال والرومان، العرب والأتراك، الإسبان والفرنسيس... أبذل مجهوداً مضنياً يومياً لإضافة يوم آخر إلى حياتي. أركز كل طاقتي ونباهتي لتفادي الموت الحاضر في كل مكان. تخيل إنسانا يخوض حربا تراجيدية ضد الظلال؟ دون

كيشوت على الأقل واجه طواحين هوائية موجودة. مع ذلك، فأنا فخورة لأن دولثنيّا Dulcinée بسيطة مثلي استطاعت أن تصبح امرأة تملك الكثير من الأسرار، تتكلم أربع لغات حية والخامسة في الطريق، طبيبة وتحلم كل يوم أن تصير اختصاصية في الأمراض النسائية أو عالمة آثار، تستنطق في متحف غني بالمعالم، صمت الأحجار. وهذا ليس أمرا بسيطا في هذا القفر الأزرق. هذا هو الاختلاف الكبير بيني وبين زريد التي سطّحها جدك بسبب الخوف من العمى الديني والملوكي.

مدهشة. مايا كانت تعرف جيداً ماذا تريد. شعرت في لحظة من اللحظات أنها هي كذلك كانت بحاجة إلى التحدث والاستماع مثلي. خوفها كان مبطنا في كلامها ولم تستطع، بل لم تجهد نفسها لتخبئته. في كلامها بياض يقول نفسه بالوقفات ولحظات الصمت. لم أُقلقها. لها الحق في الاحتفاظ بما تريد. بل إني تمنيت أن أخفف عليها المشقة وتسليتها بقضيتي التي لا تساوي الشيء الكثير أمام الموت الذي تواجهه كل صباح. ما هو المبرر المعقول لوجودي في هذا المكان؟ ولكني لم أجد الشجاعة الكافية. بدا لي في السؤال شيء من الأنانية وربما بعض الغباء. حتى قضية المفرغة التي يظهر أنها محور الإشكال، لم أتجرأ على التساؤل حولها. تحايلت لأصر على أنانيتي:

ـ ومع ذلك ليست أكثر من مفرغة مليئة بالنفايات والفضلات.

ـ بوف...

ثم هزت رأسها بدون أن تنبس بكلمة واحدة. تركتني بعد أن تمنت لي حظا سعيدا مكررة كلماتها المعتادة.

ـ ما زلت هنا، إذا احتجت إلى أي شيء أطلبني.

انتهى اليوم وأنا في حالة كآبة كبيرة لم أعرف مصدرها. كنت أشعر بحالة من الملل والانزعاج. ولم أعرف إلّا في آخر النهار

السبب الرئيسي لكل هذه الحالة عندما بدأ الرجل المكلّف بالسهر على راحتي يتحدث عن احتمال عملية طرد استعجالية قصوى.

في المساء وقبل أن تغادر المكان، أكدت لي زريد (مايا) ذلك بمرارة أحسستها في حديثها.

ـ يبدو أنك ستجبر على مغادرة البلاد بشكل استعجالي مثلما يُفعل عادة مع الأشخاص غير المرغوب فيهم. إنه قرار المعلم الكبير. أمر مؤذي ولكن أفضل من حالة السجن واللاسجن بسبب تهمة تخاف من أن تسمي نفسها.

ـ ولماذا هذا القرار القاسي؟

ـ ستبلغ حتماً غداً بكل التفاصيل. قد لا أكون هنا للترجمة ولتوديعك هناك أشخاص آخرون يقومون بذلك.

ـ كنت طيبة جداً.

ـ أنا لم أقم إلّا بما يمليه عليّ الواجب.

مع ذلك نمت بشكل سيء. حلمت بشكل أكثر سوءاً. لم أستطع لاالتركيز ولا التفكير. حاولت أن أنسى وأن لا أفكر إلّا في وجه مايا الحزين، حارسة الظلال الضائعة في سراديب مدينة بلا روح، ولكني لم أستطع.

مدينة الجزائر، يوم الثلاثاء

غيروا لي المكان منذ الصباح الباكر.

في الخارج، وأنا أقف بالقرب من سيارة الرونج روفر التي ستقلني، نزعوا الغطاء الأسود من على العينين. تنفست بعمق كبير هواء المدينة الصافي وكأني طوال مدة الحجز كان مكتوماً على نَفَسي. هذه المدينة تخرج كل إغراءاتها صباحا، فكتلة رطوبة منتصف النهار لم تكن بعد قد تكونت. نزلت سيارة الرونج روفر

بسرعة جنونية باتجاه الميناء القديم. بسرعة وصلنا. أدخلوني في حجرة صغيرة تقع في الطابق الخامس لمخزن كبير يواجه البحر وجزءاً مهماً من المدينة. لم يتأخر وصول كباييرو الذي أبلغني بأني كنت في حبس الميناء. استغليت بعض لحظات الخلوة ورحت أدون في الكورديلّو ما كان يخطر لي. كنت أريد أن أسلم نسخة مصورة منه لكباييرو ليسلمها لحسيسن ويعيد لي الأصل وأنا على ظهر السفينة المتوجهة إلى مارسيليا. قال لي كباييرو أنهم طلبوا ترحيلي بالجو للتخفيف من التعب ولكن المعلم أصر أن القانون فوق الجميع: من دخل الجزائر بحراً يُرحَّل بحراً، ومن دخلها براً يغادرها براً، ومن أمّها جواً يُخرج منها جواً.

منذ وصولي إلى هذا المخزن لم أقم بأي شيء مهم ولهذا لم يحضروا لي أي مترجم. لم يحدثني أحد. شعرت برغبة مجنونة لرؤية مايا ولو للمرة الأخيرة قبل مغادرة هذا البلد. تمنيت توديعها وتوديع حسيسن الذي تنتظره كل البلاوي بسبب حماقتي، ولكني على يقين أنه سيعرف كيف يخرج كبيراً.

هه... نسيت. علي أن أسجل هذا الخبر الصحفي المهمل على طاولة، قبل نسيانه: اقترح والي ولاية مدينة سعيدة في الندوة الوزارية المختلطة اعتبار التحصينات الفرنسية المتداخلة مع المخيم العسكري للأمير عبد القادر معلما تاريخيا. لكن الملف لم يتم تقديمه إلى اللجنة المختصة لأن نائبة مديرة المتاحف والمعالم الأثرية بوزارة الثقافة قررت عدم إدراج الملف، بعد تلقيها لمكالمة تليفونية من الوزارة نفسها مفادها أن الأمير عبد القادر مُنّيَ بهزيمة نكراء بهذه التحصينات ولهذا وجب إهمال الموضوع نهائيا.

عند البعض جنون تدميري كبير لا تهزه أي ريح مهما كانت قوتها. فالحياة عندما تنغلق على ذاتها، تتخلف الذهنيات وتتراجع.

أظن الآن أن هذه القصة تجاوزت السرد الحيادي لحياة

سرفانتيس، أصبحت قصتي الخاصة قصة سكان هذه الجزيرة الواسعة مثل نجمة والضيقة كخرم إبرة.

من خلال النافذة المطلة على الزرقة والبنايات، أتأمل السفن والبحر وبياضاً من النوارس المنهمكة في اصطياد الأسماك التي عرتها الموجات المتشلِّئة عند أقدام الصخور البركانية.

أنتظر بفارغ الصبر وهما جميلا اسمه: مايا. أفتّش في الآفاق القلقة عن خويا حمو، حامل الشمس يتناوب مع حنا أغنية المطر والانتظار:

النوّ يا النّويوه،

يا حَبُّ الرمّان،

صبي..صبي..ما تصبّيش عليّ،

حتى يْجي خويا حمو

ويغطيني بالزربية.

الفصل السادس

رائحة الخوف

ويتحدّث عن الوقائع الرهيبة التي حدثت لحسيسن مع وزير الثقافة والإرشاد الوطني وصديقه رئيس جامعة الجزائر الكبرى، كما يتحدث هذا الفصل عن قصة العاشقين: مريم ومصطفى اللذين انتحرا بسبب أذى أحميدا بوسنادر ووالده السحّار ولم يَسْلم قبراهما من النبش والخبش.

I

بعد الانتهاء من قراءة الكورديلّو، بقي شيئان عالقان في الحلق: الأول الرغبة المحمومة في التعرف على مايا *(أفضّل هذا الاسم على اسم زريد. ولكن في الحالة التي أنا فيها لا أدري إذا كان يحق لي استعمال فعل: أفضّل؟! هذا الفعل ملك للآخرين الذين يستطيعون ولهم حق الاختيار وليس لي. هذا ما حفظته من الملثمين الذين ارتأوا من الضروري لمصلحة هذا البلد وراحته أن يبتروا ذكري ولساني حتى أتعلم. وقد حفظت الدرس جيدا ما هذا الخرا؟؟؟ ماذا أقول؟ لا أنا مجنون، غير مدرك للعواقب التي تنتظرني. يجب أن أنسى نهائيا كل ما حصل لي. هم لم يقوموا إلّا بواجبهم الوطني تجاهي. كابوس ملعون. لا. أنا أريد أن أعيش ولهذا يجب أن أتوقف عند هذا الحد. يكفي. حتى في غياب اللسان، هم يعرفون جيداً أني أستطيع دائما أن أقول كلاما مؤذيا. لا أريد أن أزعجهم في راحتهم وهم يفكرون في إصلاح الأمة بنزع كل الزوائد المخجلة والمسيئة لطمأنينتها وشرفها وتاريخها. الصمت ثم الصمت ولا شيء غير الصمت).*

أحسد دون كيشوت لأنه استطاع أن يكشف عن عالم الشر واللاتسامح من خلال اللغة التي طاوعته كامرأة عاشقة.

أمّا الشيء الثاني هو الطرد الظالم لدون كيشوت. ليكن ما دام كل ما حدث، كما قالت مايا، لا يمكن أن يخضع إلّا لمنطق العبث

العالي ولقرارات المعلم الذي يتحدث الجميع عنه ولا يعرف شكله أحد.

مع ذلك فقد شعرت ببعض الراحة والاطمئنان لنجاحي في إعطاء دون كيشوت حقيبته ومصورته الغنية بكليشيهات المدينة وحصاد اليوم المشهود، التي أهملتها عيون رجل المفرغة، الحارقة. كما سلمته عن طريق كباييرو، حاجاته الشخصية التي كانت حنّا تحرسها أكثر مما تحرس ذاكرتها.

للمرة الثالثة تدخل علي زكية بوجهها المدور مثل وجه دمية صينية لتذكرني بالموعد مع السيد الوزير. السي وهيب. صورتي اهتزت في هذا المكان منذ بداية مشاكل التمثيل إلى غرناطة، كل واحد يريد أن يسافر على حساب الدولة حتى ولو يذهب إلى هناك ليبهدل نفسه وبلاده. كان علي أن أقنع الوزير بجدية اختياراتي وبنزاهتها. فهو على الرغم من نقائصه المعرفية يملك طاقة كبيرة للإنصات. عيبه الكبير أنه لا يريد من يناقضه ويجابهه. نقائص تآلفنا معها ونتحايل عليها بإعطائه الحق في مسلمة هو الوحيد على هذه الكرة الأرضية من يناقضها. وعندما يكتشف خلله، يردد كلمته المعتادة التي تعني ضمنياً تراجعه: *ديروا واش تحبّوا.*

مياه النافورة العذبة كانت تتوزع في ساحة القصر كالدرر الصافية، منذ الصباح. الوزير إذن لم يخرج. هذه النافورة تذكرني بساقية البلاطان التي لا تتوقف حنا عن ذكرها والاعتزاز بها وكأنها ما تزال موجودة. وسط حالة الانتظار والتساؤلات لست أدري ما الذي ذكرني بقريتي وبتفاصيلها الناعمة التي تملأ القلب والذاكرة، وبساقيتها التي كانت المكان الأمثل للقاءات العشاق الاستثنائية. كنا نتقاتل لاحتلال الأماكن الاستراتيجية على صور الساقية حتى يكون لنا حظ رؤية مريم الجميلة. مريم الوديعة وهي تغسل الصوف وألبسة بعض ناس القرية. كان هذا عملها الذي يضمن لها الحياة. قبل أن تنزل إلى الساقية، تمر على الأبواب تدقها

واحدا واحدا لتأخذ الألبسة من العائلات التي لا تستطيع النزول إلى الساقية مقابل قليل من النقود أو بعض الألبسة التي يتنازل عليها أصحابها كمقابل لمجهودها الكبير المبذول، تبيعها بعد تنظيفها. كانت مريم غصنا مقطوعا من شجرة يابسة، لا أم ولا أب ولا أحد يضعها في القلب باستثناء جدة على أبواب الجنون والهبل. مريم الوديعة، لذة المشتاقين والمسحورين بجمالها، كانت حلم الجميع الذي يوقظ فينا كل أنانياتنا الصغيرة وكذباتنا الطفولية. كل مساء عندما نتجمع أمام باب مدرسة القرية، نتقاسم الكذب والقصص الخيالية عن مريم. كل منا يقسم برأس اكبر الأولياء وبرأس أمه العزيزة أن مريم غمزته وأنها تحبه أكثر من الآخرين. نفسر كل حركاتها العفوية التي يجرها كل واحد منا نحو هواجسه الخاصة. حق ربي، غمزتني. الحلوفة تحبني وما تحبش تقول. غمزتها ملعونة. بوف... أنت ما شفتش والو. لما رفعت رأسها كانت ممتلئة بي. لم تصبر علي. فبعثت لي قبلة بحركة يدها اليمنى، فأحسست بدفئها. انا وحدي القادر على قراءة رموزها. بعضنا يذهب إلى أبعد من ذلك كله ويروي لنا أفظع كذبة يتخيلها. ياه! اسمحوا لي. لقد حان موعد لقائي بها. ستكون لي هذا المساء. لقاؤنا سيكون داخل جنان عمي بنعشور. ما تغيروش يا الخاوا، البنت اختارت من يفهمها. لايمكنها أن تكون لنا جميعا.

كنا جميعا نعرف أنها كانت مغرمة بأقلنا كلاماً، مصطفى. معاركنا كلها كانت خاسرة، وحدها الحرب التي يخوضها مصطفى بصمت، كانت هي الأصدق ضد أحمد بوسنادر ابن السحّار الذي أقسم أن يفوز بمريم مهما كان الثمن فهو أولى بها لأنها ابنة عمه الشهيد. كل الناس يتغنون بها وكلهم مستعد للدفاع عنها باستماتة. مصطفى كان الوحيد فينا الذي يعرف تفاصيل حقيقة مريم. ذات يوم صارت مريم سرابا، دخانا ذاب في مياه الساقية العذبة، ظلا يستتر به كل العشاق من العيون الهمجية وصورة تتدحرج في ذاكرة المراهق الممحون بالزين. وبدأت الأفواه تتلاقف قصتها وتجتهد في

تعميقها. مصطفى لم يكن يتكلم ولكنه كان يبكي بصمت في كل الأوقات. البعض ذهب إلى حد القول أن جنياً كافراً من جنون السحّار اشتهاها، فاختطفها ووضعها عارية بين يدي أحمد بوسنادر بعد أن اغتصبها. البعض الآخر يقسم باسم كل الأولياء الصالحين الذين حطوا الرحال بالمنطقة، أنهم رأوها بلباس فضفاض أبيض اللون، داخل سيارة متجهة نحو مدينة بعيدة. الآخرون الذين يعرفون جزئياً القصة، صمتوا وتواطئوا خوفا من رد فعل السحّار. تكلم يوماً مصطفى وقال ما يعلّ قلبه الممتلئ بنور مريم. أكد أن مريم أجبرت على الزواج من أحمد بوسنادر. أقسمنا كلنا أن نقتل بوسنادر. انتظرناه عند مدخل مقبرة القرية. لكن في ذلك المساء كان مرفقا بوالده السحار فبلنا في سراويلنا من فرط الخوف لأننا نسمع عنه أنه يملك جيشاً من الجنون الذين يأتمرون بأمره. وبدل أن نتوجه لقتل بوسنادر ظللنا نتخبأ وراء بعضنا البعض حتى لا ترانا الجنون المسخرة لخدمته. ومع الزمن تواطأنا مع الخوف ونسينا أحقادنا الصغيرة. بقي مصطفى المسكين وحده إلى أن اضطر إلى مغادرة القرية. ولم يظهر إلّا عشية موته. لقد تم انتشال جثتيهما، هو ومريم من الوادي الكبير الذي يعبر القرية من ناحيتها الجنوبية، ماسحا في طريقه كل الروابي والساقية التي يترك بها بعض مائه وينتهي في الجبل العتيق. يوم الدفن طلبت أم مصطفى وضعهما بنفس القبر لكن قرار السحار كان هو الأقوى، ودفنا منفصلين كل واحد في مربعه العائلي الخاص به. في الصباح وقبل شروق الشمس، ذهبنا مع بعض سكان القرية للترحم عليهما، فوجدنا قبرين فارغين. البعض قال أن عملية مثل هذه لا يمكنها أن تصدر إلّا عن السحّار والد بوسنادر. يكون قد أخرج الجسدين بالتعاون مع ابنه وقطعهما وأحرقهما أو سلمهما لجنونه المخبولة. آخرون يقولون، بثقة غائبة، أن ما حدث لا يمكن أن يكون إلّا من صنع الله، فقد جمع ما فرقه البشر. فرفعهما إليه مثلما فعل مع المسيح.

في القرية لمصطفى ومريم قبران منفصلان، شقتهما عند الرأس، شجرتان: الأولى شجرة سرو عالية والثانية صفصافة أنيقة يسمهما ناس القرية، مصطفى ومريم.

رن التليفون للمرة الثانية. ذكرتني زكية مرة أخرى بالموعد.

ـ السيد الوزير يريد أن يراك حالا.

ـ ما تزال أمامي نصف ساعة على الموعد.

ـ له انشغالات طارئة ولهذا قدّم موعده معك. سيغادر الوزارة بعد قليل. يفضل الحديث إليك الآن. إنه في انتظارك. لاتضيع فرصتك لتمرير مشروعك. يا الله! هزّ روحك بسرعة.

ـ حاضر. أنا قادم حالا.

II

بهدوء كبير فتح لي الحاجب الباب. اقترب مني شاب بعينين غامضتين سوداوين. فتشني وهو يعتذر عن المضايقة. اعتبرت أن هذه الأشياء الجديدة متأتية من الأوضاع الأمنية المزرية وحملة إعادة الهيكلة والتنظيم الذي باشره السيد الوزير. إنها المرة الأولى التي أصادف فيها كل هذه الممارسات. الإحساس بالمضايقة كان بادياً على وجهي.

تركوني أمر.

في صدر المكتب كان يقبع السي وهيب بجسمه الصغير الذي انطفأ من وراء المكتب الكبير ذي الطراز القبائلي الذي تحصّل عليه في إطار الإصلاحات الجديدة، ولم أعد أرى إلّا رأسه المستطيلة. ويده الطويلة غير المنسجمة مع بقية جسده، أشّر لي بأمر الجلوس.

لأول مرة أحس بنفسي مشلولاً وغريباً لم أجد لا كلماتي ولامكاني.

ـ مساء الخير سيدي الوزير.

نظر إلي طويلا قبل أن يتكلم بشكل آمر لم أتعود عليه مطلقا.

ـ هل تعرف لماذا استدعيتك؟

ـ طبعا سيدي. فقد بذلت مجهودا كبيرا لأسلمكم ملفا متكاملا لندوة غرناطة، ويمكنني أن أبرر اختياراتي للأشخاص الذين

انتقيتهم للتمثيل. مقياسي الأساسي هو الاختصاص. يجب أن نقدم صورة إيجابية عن وطننا الحبيب. أدرك مسبقا أن هذه الاختيارات ستزعج الكثيرين ولكن الله غالب، في كل اختيار هناك شيء من الاعتباط حتى عندما نصر على أقصى درجات الموضوعية. فعلت كل ذلك من أجل مصلحة الوزارة وصورتها في الخارج.

ـ يبدو أننا لسنا في نفس الاتجاه. كل منا يغني لليلاه. بالنسبة لملف التمثيل أبشرك بأني نزعت عنك هذه المسؤولية الشائكة وكلفت عالما كبيرا عارفا للكثير من اللغات العالمية، السيد رئيس جامعة الجزائر المركزية. هو في مكان يسمح له بتحديد الناس الذين يراهم صالحين للمهمة. سأقنعه بالسفر مع الوفد. وقد سلم لي اقتراحاته الأولية. إذن إخرج هذا المشكل من اعتباراتك الشخصية.

ـ ولكن يا سيدي أنا هنا لأجل هذا؟

ـ لا. أنت هنا لشيء آخر أكثر خطورة، يهدد أمن الوزارة والوطن وأنت متورط فيه بعمق. وعليك أن تبرر ذلك أمام السلطات المختصة فيما بعد.

ـ لم أفهم يا سيدي. أقسم لكم بأني لم أعد استوعب ماتقصدونه. المزاح له حدوده. لقد قمت ببذل مجهود خارق، يحزنني كثيراً أن يُرمى هكذا.

ـ أعتقد، وحتى إشعار آخر، أنا هنا هو الوزير وليس أنت؟ ما قمت به لم يرق لي قط. هل يرضيك هذا؟ ما أنجزته «C'est de la merde. ça va?» لم يثر اهتمامي على الإطلاق وأتساءل كيف يمكنه أن يجلب اهتمام الآخرين؟ وضّح لي قليلا أولا قصة هذا الجاسوس الإسباني الذي تكرمت كل الوزارة بمعرفته إلّا أنا.

ـ قصة تافهة يا سيدي. خطأ لا معنى له ارتُكب في حق رجل بريء. دون كيشوت سيخرج قريبا من المعتقل ويصبح حراً. كبابيرو أكد لي ذلك.

- بالضبط هذا ما أريد أن اعرفه. كيف تسمح لنفسك بإدخال أجنبي مشبوه إلى الوزارة. من يكون هذا كابييرو؟ تجاوز خطير.

- ولكنه يا سيدي ليس أجنبيا. فهو شريكنا. هو ملحق ثقافي لبلد له تمثيل دبلوماسي في بلدنا. وتحكمنا معه علاقات جادة.

- هذا شريكك أنت وليس شريك الوزارة. بالنسبة لي لا يعدو هذا الرجل أن يكون أجنبيا. في حالات خطيرة مثل هذه المفترض أن يمر كل شيء علي. هذه تجاوزات غير مقبولة. وأظن أن مجيء كابييرو إلى الوزارة لم يكن من أجل العمل الثقافي المشترك ولكن من أجل الجاسوس الخبيث.

- كارثة يا سيدي. دون كيشوت ليس جاسوسا ولكنه صحفي كبير يعشق مهنته باستماتة. فوق كل هذا فهو رجل طيب ويحب هذا الوطن كثيراً وإلّا لما زاره في وقت يخلي فيه الجميع أمكنتهم بسبب الإرهاب.

- لم اطلب منك أن تقص عليَّ الأحجيات. عندما يريد أحدهم أن يؤذي بلدا يمكنه أن يرمي بنفسه وراء قناع الحب. بلدنا ليس في حاجة إلى من يحبه. وليست بطاقته الصحفية التي بعثت له بها هي التي ستنقذه من الحبس. دارها بيدّيه، يفكها بسنّيه.

فجأة دجل الحاجب ووشوش في أذن الوزير الذي برقت عيناه مثل قطعتي زجاج.

- طبعا، قل له يدخل. البيت بيته.

ثم ظهرت قامة رئيس الجامعة الضخمة بظلها المنكسر على الكتب المطوقة للقاعة والتي يبدو أنها لم تفتح أبداً نظرا لعلو أماكنها. شعرت بشيء ثقيل يضغط على صدري وبقرحة في المعدة.

قام السي وهيب من مكانه لاستقباله. بدا بقامته الصغيرة تحت رئيس الجامعة مثل قزم ناتئ الطول. وأنا الذي لم يعرف في حياته كيف يحقد على الناس، لم أستطع يوما أن أتحمل وجوده وأن أطيقه.

الكثير من ناس الوزارة يقولون أنه واحد من الـ Les Intouchables في هذا البلد. أجنحته عريضة. الذين قذفوا به إلى هذا المكان يريدون تخبئة أموال الدولة التي نُهبتْ والتي بدأت تتكشف بعد تدخل بعض الجامعيين والنقابة. الفيلّاتان Les deux villas الواقعتان في حيدرة واللتان تأويان مكاتب ديوان المطبوعات الجامعية والديوان الوطني للبحث العلمي بيعتا بالدينار الرمزي لبعض مسؤولي الديوان. المدرسة السابقة للترجمة الواقعة في شارع حمياني بطوابقها الأربعة هي بدورها بيعت بالدينار الرمزي لأشخاص غير بعيدين عن القطاع الذين باعوها بدورهم في شكل إقامات وسكنات بدون أن تحرك لا الوصاية ولا السلطة ساكناً. الأملاك السكنية الجامعية نهبت لتنتهي بين أيدي مجموعة فوق القوانين والبلد نفسه.

عبقريتهم دفعتهم إلى البحث عن أسوأ إنسان وأكثر الناس هزالا ونصبوه رئيساً للجامعة. البلد لم يغير طقوسه رغم المآسي، فقد سُيّر دائما بالطريقة نفسها.

ـ زيارتك بركة.

ردد السي وهيب وهو يواصل.

ـ حسناً فعلت بمجيئك. نحتاج إلى الاستفادة من تجربتك الكبيرة وخبرتك وعلمك. اطلب من الله أن يساعدني على إقناعك وتساعدنا على تسيير هذه الوزارة التي تنتظر كل مقترحاتك. تحتاج إلى هزة عنيفة في العمق. تحتاج بالفعل إلى رجال مثلك ومثلي.

مسح على بطنه المنتفخ كمن يخرج من مأدبة دسمة، ثم قال بنوع من الملعنة والخبث:

ـ أتمنى أن لا أكون قد أزعجتكم. فأنا كنت دائما في خدمة هذا البلد المعطاء ولن أتوقف أبداً عن هذا النفس التطوعي حتى يرث الله الأرض ومن عليها. لقد حاربت الاستعمار وأعرف جيداً ما معنى التضحية من أجل هذا الوطن.

ـ كنت على يقين أنه يمكن الاتكال عليك وعلى طاقتك الكبيرة للمقاومة، صحّ وصحيح.

إلهي! لا شيء يتغير في هذه البلاد وهذه الأرض التي تصرخ كل ذرة من ذراتها ألماً وخوفاً واستشهاداً؟ من غير المعقول أن نظل نسير إلى الخلف بهذا الشكل السخيف. يبدو أن لا شيء سيتغير في هذه البلاد. بني كلبون يملكون طاقة استثنائية للتوالد وتغيير الجلد مثل الخلايا السرطانية. يخرجون منكسرين من النافذة ويعودون من البوابات الكبيرة حاملين لواء التحرر والثورة، مغسولين من كل الأوساخ العالقة بأجسادهم وينتظرون دائماً من يصفق عليهم.

ألتفت رئيس الجامعة صوبي بدون أن يحييني وكأنه لم يرني أبداً في حياته، ثم واصل حديثه مع السي وهيب.

ـ بالنسبة للملف الذي كلفتني به هو الآن في مرحلته الأخيرة. استهلك مني وقتاً كبيراً ولكن لا يهم. *العقبة في وجه الأحباب حدورة.* السي وهيب يستأهل كل خير.

ـ أشكرك سيدي رئيس الجامعة. *(في هذه اللحظة بالذات شعرت بأن رئيس الجامعة كان أكثر أهمية من الوزير نفسه على الرغم من اختلاف الرتب السلطوية، فقد صَغُر حتى تبدلت المواقع. كنت على قناعة مطلقة بأنه كان خائفا منه).* لقد حللت لي مشكلاً كان يشغلني بعمق. أعرفك متواضعاً ولهذا لا أريد أن أسمع منك أي اعتذار. من خبرتك تعلمت الكثير. كانت دائماً مرتكزي في أكثر اللحظات حساسية. ثقتي فيك كبيرة. فالملف إذن بين يديك، رتّبه كما يحلو لك، لا أجد من هو أفضل منك لإتمامه. شكرا على قبولك مرافقة الوفد. كل ما أتمناه لك، سفراً سعيداً إلى غرناطة لك ولنادية. عندما تعود من هناك اتصل بي، نحتاج إليك لتسيير مكتب العلاقات الثقافية الإسبانية ـ الجزائرية.

ـ ولكن لديكم شخص متخصص ورفـ ... يـــ ... ـع المستوى للقيام بهذه المهمة.

قالها وهو يمطط كلمة رفيع إمعانا في السخرية. التفت بعدها نحوي وخزرني مثل ذئب متعطش إلى الدم، بعينين صفراوين مخيفتين.

ـ لقد دُعي إلى مهام أخرى.

ـ تعرف يا السي وهيب، هناك مثل قشتالي Castillan يقول: إذا كانت الخيانة مقبولة فالخائن يظل منبوذا حتى لدى الأعداء الذين تعاون معهم. الحياة هكذا دائما. للأقوى والأكثر حنكة. مملوءة بالمزالق، يوم تفتح لك كل الأبواب ويوم تسد عليك كل شيء. الذكي هو من يعرف من أين يأخذها بدون أن يترك نفسه ضحية لغواياتها. السي وهيب، أنت وزير ومع ذلك لم نرك يوما تتجاوز حدودك مع أن منصبك يؤهلك لذلك، لأنك بكل بساطة من عائلة كبيرة وشبعانة. بالمقابل، هناك ناس لا علاقة لهم بالكبر والعلو يرون أنفسهم أنهم وصلوا وتحولوا إلى ناس كبار، وزراء مثلا وهم لم يتخطوا بعد العتبات الأولى للسكرتارية، لا أكثر ولا أقل.

ـ دعك من هذا، أنت رجل كبير وكبرك يعطيك طاقة استثنائية للتجاوز. الصغير يبقى صغيرا مهما فعل. الله عندما خلق الحياة فكر جيداً ولهذا حدد منذ البداية الفوارق والمَلَكات لدى كل واحد، ولا نستطيع أن نفعل أي شيء أمام جبروته وقدراته الخارقة. علاّم الغيوب يا خويا!

كان يحدثه ويده على صدر رئيس الجامعة الذي بقي في مكانه متسمرا كالوتد الصدئ الذي لا تستطيع أية قوة نزعه.

كنت على يقين أن كل هذه البلاغة الرديئة التي تتخبأ وراءها ثقافة هزيلة، ثقافة البؤس والنفاق والحقد والكراهية كانت تتقصدني تحديدا بدون أن تتجرأ على تسمية نفسها أو ضحيتها. ذكرني هذا الظلم قصة لاسونير Lacenaire المجرم الدلوع. هذا الرجل الذي كان يتمنى أن يقتل مثلما يأكل أو يشرب كأس نبيذ. في لحظة من اللحظات تمنيت أن أكون في مكانه وأعيد على مسمع

الناس كل كلماته في المحكمة وهو يعلن قرفه من مجتمع الفساد والغش قبل أن يقوم بتدوين ذلك في مذكراته التي كتبها بين نهاية محاكمته وتنفيذ الإعدام: *هل هو ذنبي إذا رأيت في كل مكان المصلحة الشخصية تتقنع وراء المصلحة الاجتماعية، واللامبالاة وراء الصداقة والإخلاص، والخبث والرغبة في الضرر وراء التزين بالدين والأدب... أنا هنا لألقن الغني دين الرهبة والخوف مادام دين الحب لا يحرك فيه ساكنا.*

التفت الوزير نحوي بشكل نصف دائري مثل الدمية الآلية:

شعرت برأسي ثقيلا مثل الرصاص، لم يعد بمقدوري تحمله. لم أكن مرتاحا على الإطلاق. كنت في أعماقي متعبا وخائفا من ارتكاب حماقة لا أغفرها لنفسي ومستعدا للانفجار في وجوههم كلغم حربي.

سحبني تدخل السي وهيب من حالة الغفوة:

ـ حسيسن! شوفْ زكية تقول لك واش لازم تعمل منّا وْجايْ.

فلتت جملة من رقابتي.

ـ سيدي أريد استرجاع الملف الذي حضرته عن غرناطة.

لمعت عيناه بشكل غريب أثار لدي بعض التساؤلات الغامضة.

ـ الملف ماراحش يهرب. شوف مع زكية.

ـ الملف الأحمر. أراه على المكتب. آخذه؟ شكراً.

وبدون انتظار جوابه، قمت من مكاني وأخذت الملف. سارع مدير الجامعة ليرمي بنفسه علي الكرسي الذي كنت فيه، تاركا جسده الضخم ينتشر طولاً وعرضاً. كنت ممتلئا بالمرارة والضيم. الوزير لم يقل شيئا وحسناً فعل. فقد كنت قادراً على نسيان المقام. استيقظت فجأة في كل الغرائز البدائية المدفونة.

عندما التفت صوبهم وأنا أغلق الباب للمرة الأخيرة، لم أر شيئا

سوى عيونهم المريضة ونظراتهما الجارحة وهي تحاول أن تمزقني بحقد غير معهود. خفت. انتابتني رعشة خوف من الرأس حتى أخمص القدم. تماسكت وسرت وهذه المرة بدون أن ألتفت.

كانت زكية تنتظرني. لم تقل شيئا ولكنها سلمتني رسالة ودعوة رسمية ثم انطفأت داخل البهو الطويل تستمتع بنقرات حذائها الباريسي الأخير باتجاه سكرتيرة وزير الاتصال تروي لها آخر الفتوحات والمعلومات التي تقسم برأس كل الأولياء والصالحين والله أنها صحيحة وكانت حاضرة عندما حصلت.

تدحرجت كالمسطول باتجاه مكتبي. لم أرَ أناسا كثيرين سوى الذين يهربون مني كلما صادفتهم وكأني خرجت من مكتب الوزير مصابا بداء البرص أو الجذام. لم أكن يائسا ولكني كنت حاقدا على كل شيء. يبدو أني وضعت يدي في مكان حساس كان من الأفضل تفاديه.

دخلت المكتب. تناهت إلى مسمعي قهقهات السي وهيب ورئيس الجامعة. شممت رائحة كريهة. أغلقت الباب. جلست على الكرسي الوثير ثم أغمضت عينيَّ.

III

لم تغادرني عيونهم المريضة وهي تفترسني بحقد.

لم أكن في حاجة إلى فتح الغلاف الأول لأعرف محتوياته، ومع ذلك لم أقاوم رغبة اكتشاف الجمل الأولى التي تشكرني عن مجهوداتي التي بذلتها في صالح الأمة. حتى هذا الشيء خاب ظني فيه. فقد كانت الرسالة جافة مثل هذه الظهيرة: نحيطكم علما بأنه تم طردكم بسبب عدم الكفاءة في تسيير شؤون الاختصاص والمس بأمن الدولة. التوقيع: رئيس مصلحة العمال.

في هذا البلد، جملة واحدة تكفي لاغتيال آتٍ بأكمله مثل رصاصة تمحو كل أثر للحياة.

فتحت الدعوة التي لم تكن مغلفة ولكن كانت عبارة عن ورقة مطوية على اثنتين ومحكومة في الزاوية بمشبك صغير، على ظهر إحدى جهتيها كُتبَ بالأحمر: URGENT. فتحتها وبدأت أقرأها وأنا أغوص أكثر فأكثر في عمق كرسي الوثير كأني أريد أن أتخبأ من شيء ما: الرجاء أن تتقدموا شخصيا إلى مصالح المديرية العامة للأمن الوطني الكائنة بباب الوادي لأمر مستعجل يخصكم، وذلك يوم الثلاثاء على الساعة التاسعة صباحا.

شعرت برائحة العفن تأتي من مكان ما لم أستطع تحديده. فجأة مثل الحيوان تحركت فيّ كل الغرائز المدفونة دفعة واحدة. بحركة عفوية تأكدت من جديد إذا ما كان الباب مغلقاً.

كتبت على ورقة مستقلة الكلمات التالية: *إذا حدث لي أي مكروه فإني أحمّل المسؤولية الكاملة لأعلى الهيئات بوزارة الثقافة وطاقم المستعاشين بها وكذلك لرئاسة الجامعة التي لا شيء يثنيها عن تكليف من يقومون بمهام الجريمة بدلها*. ثم أخرجت كراسة أرقام التليفونات والفاكسات وبعثت بكل الوثائق التي سُلمت لي والورقة التي كتبتها إلى الجرائد الوطنية الأكثر انتشاراً. قمت بذلك لتغطية نفسي درءاً لأي طارئ أو لأكثر الاحتمالات سوءاً. فقد سكنتني بالفعل حالة خوف حقيقية. *(في الحقيقة لم تؤخذ هذه الوثائق بعين الاعتبار وربما كانت هي الشارة التي دلت القتلة الذين قطعوا لساني وذكري، على طريقي، سوى أني أعتقد جازما أنها نفعتني في البقاء على قيد الحياة ولو بهذا الشكل المبتور. لا تحاولوا أن تحفروا، فوراء كل حقيقة مكشوفة هناك حقيقة أخرى تظل مخبأة ولن تسمعوها مني. الكل سيُدفن في القلب. هذا هو الجبن عينه. أنت تحمي القتلة. قلت لكم لا أعرفهم. ما نحبش نعرف ربهم. عفّوني. أنتم لا تعرفون شيئا عن حالة الموت التي تأكل الإنسان وهو يسمع خشخشة السكين الصدئة وهي تتحرك جيئة وذهابا، تتلذذ بقطع العروق واللحم؟! قلت لكم أنا خائف. عن طريق الغلط وجدت نفسي في هذا الطريق السريع وفي هذه الوزارة التي بُنيتْ لغيري. أي كلام في المرة القادمة سيكلفني حياتي. أنا متأكد من أن الذين اعترضوا سيارتي لم يكونوا يريدون قتلي وإلا لفعلوا ذلك بكل بساطة في ذلك الخلاء الفاصل بين المدينة وبحر تيبازا Tipasa. قد تكون اندفاعاتي الأخيرة هي التي أنقذتني. قلت لهم بكل جرأة بأن الصحف غدا ستتحدث عن قتلي وأني أعطيت للجرائد أسماء القتلة المحتملين أو المتواطئين. قلّ حماسهم وصمتوا للحظات. أخرج أحدهم من جيبه تليفونا نقّالا. قال جملة أو جملتين مرمّزتين لم أفهم منهما أي شيء لكني شعرت في أعماقي بأني هذه المرة كذلك سأنجو ببعض جلدي وبخسائر جسدية أقل. تشاوروا فيما بينهم، بعدها عروني، شمّخوا خرقة رثة بالماء سدّوا بها فمي بإحكام ثم تحلقوا علي. لمع سكين*

أحدهم تحت ضوء القمر الذي لم يعد يعني لي إلا الموت. ثم بدأ بحز ذكري الضامر من كثرة الخوف وعندما انتهى لف على ما تبقى منه خيطا وضبطه بإحكام. كنت كمن يصرخ في وادٍ. تدحرجت نحو فراغ مظلم بدون قرار. لا أدري كم طال بي الزمن، لكني عندما أفقت، كانوا يقهقهون بعد أن نزعوا الخرقة من فمي. أخرجوا لساني أحكموه بين أسناني وبدأوا يضغطون بكل قواهم على فكيّ حتى شعرت بقطعة لحم تقطع داخل فمي وبملوحة خاصة. ثم غبت ثانية داخل نفس الظلمة. عندما عدت إلى وعيي كان العضوان الزائدان قد بترا نهائيا لأصير مواطنا صالحا. تبًا لي ماذا أفعل؟ مرة أخرى أنسى نفسي وأقول كلاما كان يجب أن يتم حفظه. أرجوكم لا تصدقوا شيئًا مما قلتُ. كل ما صدر مني تخريف في تخريف مصدره الانهيار العصبي. أنا الآن إنسان مجروح بل معطوب في عمقه. فقد أقسموا في حضرتي أن لا يخطئوني في المرة القادمة إذا صدر مني أي شيء: شوف يا ولد القحبة، لو كان تخرج منك كلمة واحدة أنَحّي لكْ يمّاك. نشويكْ حيّ. نقْلي لكْ قلاويك وأنت تشوف بعينيك يا وحد الطحان).

كنت مصمما على عدم الاستسلام بسهولة وأن أقاوم حالة الرعب التي خلفتها فيّ العيون الحاقدة.

تلفنت لكريم لودوك وطلبت منه أن لا يأتي في سيارته ولكن في سيارة أخيه. هو يعرف أني عندما أطلبه بهذه الطريقة فهذا يعني ان أمراً ما يسير بشكل معكوس وأنه يجب اتخاذ بعض تدابير الحذر. كما قلت له أن يأتي من الزاوية الخلفية للوزارة وأن لا يتوقف في موقف السيارات الاعتيادي. حمدت الله أني وجدته في البيت، لأنه أحيانا، في مثل هذا الوقت، يكون منشغلا بتوصيل بعض زبائنه.

استغلّيت فرصة وجودي وحدي، فتلفنت لحنّا. بذلت مجهوداً مضاعفا لأبدو في حالة طبيعية. أخبرتها بأن الفارس الأندلسي يحتاجني في المكان الذي هو فيه وأنا مضطر للذهاب إليه وأنّ عليها أن لا تقلق علي إذا تغيبت عليها لبعض الأيام.

وأنا أهم بالخروج لم أتذكّر شيئا مهماً سوى العيون الكريهة التي خرجت منها رائحة العفن والضغينة والرغبة الدموية في القتل وتأوهات عمي مختار الذي شارك في كل الحروب الحديثة وهو يترجّى ذوي السلطان لإعادته إلى وظيفته التي فُصل منها.

IV

من الجهة الثانية من موقف السيارات، بين شجرتين جافتين، كان كريم لودوك ينتظرني بحيرة. وضعت قبّعتي على رأسي ومعطفي الفضفاض الذي احتفظ به دائما في مكتبي خوفا من التقلبات الطقسية، وهي كثيرة في هذه المدينة. حضرت نفسي جيداً. أصبحت فجأة موظفا نموذجيا يشتغل في وزارة محترمة. لم يكن هناك ولا قط في البهو ولا في الممرات وكأن أمرا أُعطي ليندفن كل هؤلاء البشر مرة واحدة في مغاراتهم.

من النافذة أطللت للمرة الأخيرة على بحر كانت ألوانه تتغير بشكل جنوني، من الزرقة إلى السواد الغامق. تأملت مدينة الجزائر بواجهتها البحرية، امرأة عارية ومتدفقة بلذة. ثم فجأة اسودّت كل ملامحها مثل الرماد. صارت كتلة من الرخاوة والقذارة والصمت والخديعة.

نزلت أدراج (سلالم) النجدة وتفاديت متعمداً المصعد. خرجت من الباب التي تنفتح مباشرة على الشجيرات اليابسة التي يتوقف بينها كريم لودوك. عندما رآني أخرُجُ، فتح لي باب السيارة. ركبت.

انطلق كالسهم باتجاه الفراغ، من أعلى هضبة قصر الثقافة إلى الأسفل وكأنه يسقط من سماء منسية.

ـ كالعادة! إلى باب الزوار؟

ـ إلّا ذي. لا. تحاش منحدر السيدة المتوحّشة. خذ طريق تيبازا السريع، فهو أكثر أمناً. روح وما تشوفشْ مُراكْ. ازْدَمْ القدّام وخلاص.

الجزائر، باريس

الفهرس

صدر للكاتب

* البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل). دمشق ـ الجزائر 1980.
* طوق الياسمين (وقع الأحذية الخشنة). بيروت 1981.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2002).

* ما تبقّى من سيرة لخضر حمروش. دمشق 1982.
* نوار اللوز. بيروت 1983 ـ باريس الترجمة الفرنسية 2001.
* مصرع أحلام مريم الوديعة. بيروت 1984.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* ضمير الغائب. دمشق 1990.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية. دمشق ـ الجزائر 1993.
* المخطوطة الشرقية. دمشق ـ 2002.
* سيدة المقام. دار الجمل ـ ألمانيا ـ الجزائر 1995.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

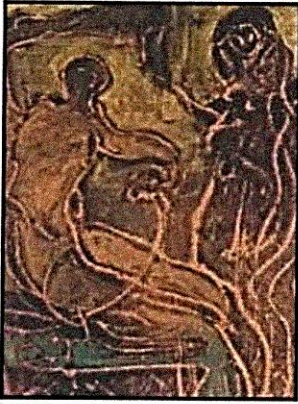
* حارسة الظلال. الطبعة الفرنسية. 1996 ـ الطبعة العربية 1999.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* ذاكرة الماء. دار الجمل ـ ألمانيا 1997.

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر ـ Libre Poche 2001).

* مرايا الضّرير. باريس الطبعة الفرنسية 1998.
* شرفات بحر الشمال. دار الآداب. بيروت 2001.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر - 2002 Libre Poche).
* مضيق المعطوبين. الطبعة الفرنسية 2005.
(سلسلة الجيب: الفضاء الحر - 2005 Libre Poche).
* كتاب الأمير. دار الآداب. بيروت 2005 - باريس الترجمة الفرنسية 2006.



حارسة الظلال

علي مولا

«الـ... جـ... زا... ئـ... ر...
الجزائر، مدينة اللامعنى العظيمة، الطائر الحر، أيتها المومس المعشوقة.
حزين لدرجة المرارة لأن رجلاً ممحوناً بهذه المدينة، سبقني إلى هذا الكلام الذي تمنيت أن أكون قائله، ومع ذلك فأنا على يقين مطلق بأني لن أسلم من تجريحهم. أولاد الكلبة، سيلصقون بي تهمة هذا القول وهم لا يعرفون أنهم يرتفعون بي إلى عالم سام أكبر مني.
ليكن. هم هكذا، لقد أفسدوا أعمارهم ودمهم في انتظار فرص الإساءة».

واسيني الأعرج. مواليد 1954، بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. ويعتبر أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي.
على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لاتستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

* في العام 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.
* تحصل في العام 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.
* اختير في العام 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.
* تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.